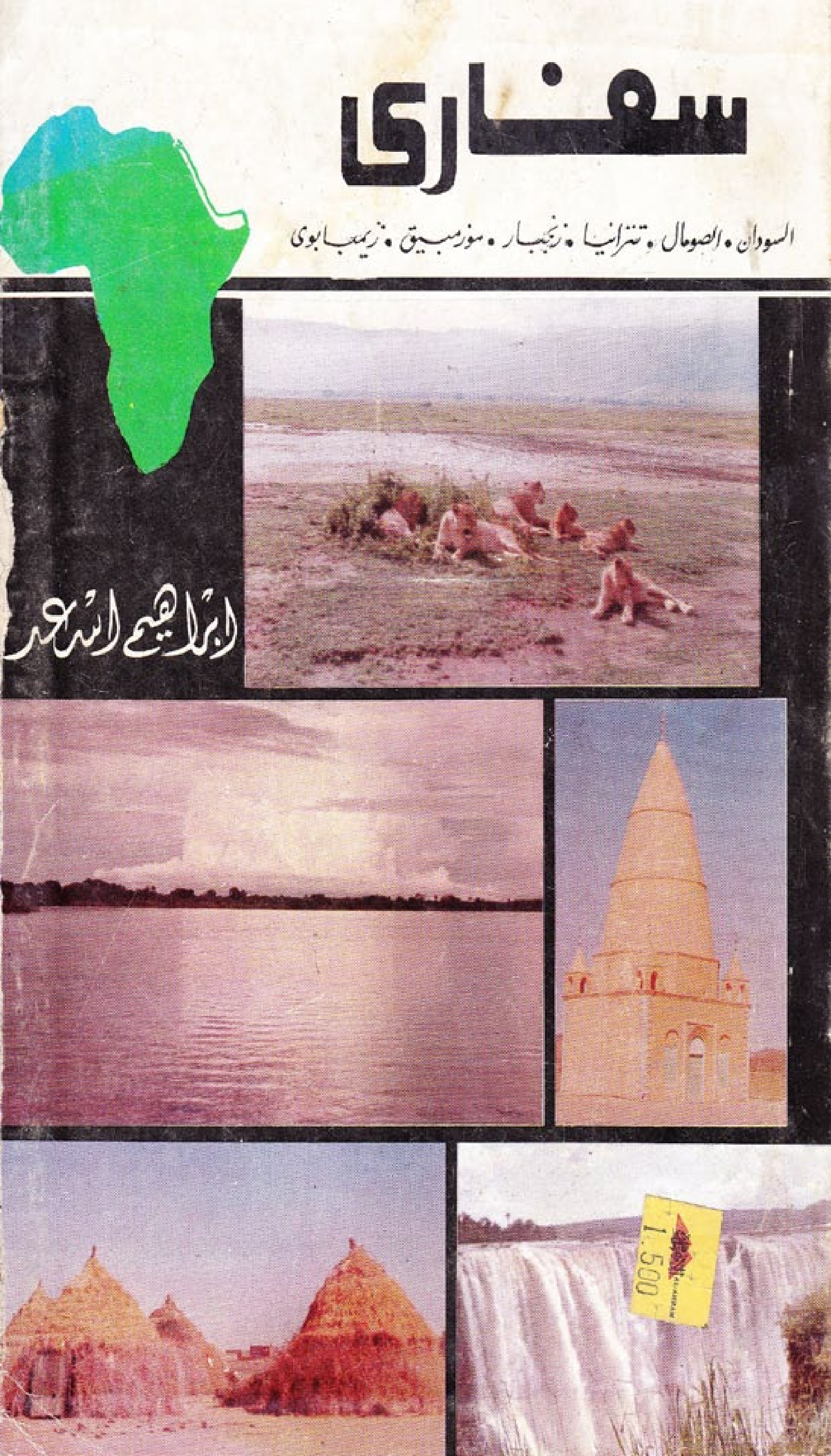
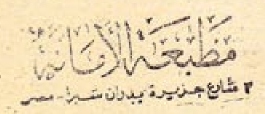

سفاري
السودان . الصومال . تنزانيا . زنجبار . موزمبيق . زيمبابوي
ابراهيم السعد
1.500

سفاري

السودان ـ تنزانيا ـ موزمبيق ـ
زيمبابوي ـ الصومال

تأليف

ابراهيم أسعد محمد



بسم الله الرحمن الرحيم

يكاد المرء أن يلاقى الصعوبات نفسها كلما أزمع على الارتحال إلى البلاد الافريقية لسياحة ، وذلك فيما عدا كينيا التى بدأت تظهر على مسرح السياحة فى مصر فى السنوات الأخيرة . لا أحد تقريبا يعلم شيئا عن أشقائنا فى القارة .

على المرء عادة إذا ما أراد السياحة ، أن يحدد البلاد التى ينوى زيارتها ، وبالنسبة لافريقيا عليه أيضا أن يوفق بينها من ناحيتين . الأولى مواسم الامطار والجو عموما ، فعلى السائح أن يبتعد قدر استطاعته عن هذا المواسم . وعليه فى هذا أن يوفق بين البلاد وبعضها ، نظرا لأن خط الاستواء ، كما هو معروف ، يقسم القارة إلى نصفين متساويين تقريبا ، وبالتالى فحيثما يكون الجو فى نصفها الشمالى صيفا يكون شتاء فى الجنوبى ، والعكس صحيح . ولهذا كان من الهام جدا ان يحدد السائح البلاد التى سيزورها ، والوقت الذى سيقضيه فى كل منها .

الناحية الثانية أن عليك أن تعتمد على نفسك فى كل خطوة . عليك أن تعتمد على نفسك فى استقصاء المعلومات ، فلن تجد فى كثير من قنصليات البلاد المعنية معلومات كافية ، أو قريبة من الكافية ، وبعضها سيحاول أن يضللك عن حسن نية ، ورغبة فى خدمة بلاده ، فيصور لك أشياء غير حقيقية ، ويهون أمورا عسيرة ، وعن جهل أو عمد ، يصعب أمورا سهلة .

عليك أن تعتمد على نفسك أيضا فى مسألة الطيران ، أعنى الوصول إلى البلاد التى أزمعت زيارتها ، ولذلك أسباب . إلى عهد قريب جدا ، وربما فى أواخر الستينات ، وأوائل السبعينات كنت لا تستطيع أن تصل من القاهرة

إلى أى قطر افريقى تقريبا إلا عن طريق أوربا ، فكان الطيران الاوروبى يحتكر تماما المواصلات التى تربط بين الأقطار الأفريقية وبعضها. إذا أردت مثلا أن تذهب إلى الكونغو فطريقك هى بروكسل ، أما إذا أردت الذهاب إلى إحدى المستعمرات الفرنسية فى أفريقيا فطريقك إلى باريس . ثم بدأ إستقلال هذه الدول فى الستينات ، بالتالى بدأت أيضا تفكر فى الاستقلال بطرق مواصلاتها ، فأنشأت شركات الطيران خاصة ، بعضها مايزال يحبو ، وبعضها أضحى شركات عملاقة ، كشركة مصر للطيران ، والاثيوبية . مع هذا فمن الواضح أن الطريق مايزال طويلا ، ولا تزال هنالك عثرات ، على ذلك عليك ان تبذل مجهودا حقيقيا للتوفيق بين مواعيد الطيران المختلفة التى لا انسجام فيها ، وانى بعد ان قضيت يومين فى البحث عن الطائرات التى تذهب من الخرطوم إلى مقديشيو ثم إلى دار السلام ضاعت مجهوداتى هباء ، بعد أن وفقت اوكدت ، لانه كان يلزمنى الذهاب من مقديشيو إلى نيروبى ومنها إلى عنتيبى ومنها إلى دار السلام ، لكن الفارق فى التوقيت بين الطائرة من نيروبى إلى عنتيبى ، ومن الأخيرة إلى دار السلام ، كان خمس دقائق فقط ، وهى مدة لا يمكن أن تكفى لان ألحق بالطائرة . فاذا علمت أن الطائرة التالية بعد أسبوع ، فهمت لماذا تركت الخطة كلها بحثا عن غيرها ، ثم أخيرا تركت الذهاب إلى الصومال إلى فرصة أخرى ، وقد قمت بإملائى رحلة خاصة من القاهرة .

حاولت إحدى موظفات الشركة السياحية التى أتعامل معها جهدها أن توفق بين رغباتى ، والتعقيد الغريب لشركات الطيران ، لكنها مهما بذلته ، لم تستطع . ربما يعن لاحد القراء أن يقول لعل التعقيد فى رغباتك ، فلماذا تنسبه إلى شركات الطيران ؟ وأقول ان رغباتى إنما استقيتها من الخرائط الجغرافية ، أعنى من الاوضاع الطبيعية للبلاد ، أما شركات الطيران ، فانما تنظر إلى إمكانياتها الشخصية ، وهى ضعيفة كما ذكرت . يزيد الأمر سوءا المواقف

السياسية للبلاد المعنية . فالحبشه مثلا فى نزاع مع الصومال ، وتنزانيا فى نزاع مع كينيا ؛ وتكون النتيجة أن تذاكر الطيران التى تصرفها شركة الطيران الاثيوبية غير معتمدة فى الصومال ، وأنه لا توجد خطوط طيران بين نيروبى ودار السلام ، ولست أدرى لماذا لا توجد خطوط طيران من الخرطوم رأسا إلى مقديشيو ، ثم رأسا إلى دار السلام وبذلك فلكى أذهب من مقديشيو مثلا إلى دار السلام على أن أذهب إلى نيروبى ، ومنها إلى عنتيبى ، فى أوغندا ، ومن ثم إلى تنزانيا ، أو من نيروبى جنوبا إلى لوساكا ثم شمالا بشرق إلى دار السلام .

توليت الأمر بنفسى مضطرا فإن الوقت كان يمر دون أن أتقدم خطوة واحدة . اتصلت بشركة الكرنك بقصر النيل ؛ وهى إحدى مؤسسات شركة مصر للسياحة ، ووجدت من الموظفين معونة صادقة ، سواء فى تتبع خط السير ، أو تحديد المواعيد ، والتوفيق بينهما ، وأخيرا استقر الرأى على أن تكون التذكرة إلى موزمبيق ، مع وقفة فى الخرطوم ، وأخرى فى دار السلام ، ثم العودة من موزمبيق إلى دار السلام ، ثم رأسا من دار السلام إلى القاهرة .

أخذت التذكرتين ، لى ولزوجتى ، وحددت يوم الخامس عشر من ديسمبر سنة ١٩٨٢ موعداً لسفرنا من القاهرة . والطائرة تغادر المطار فى الساعة الثانية والنصف صباحا لتصل إلى الخرطوم فى الخامسة . كانت الآنسة فتحية من شركة السياحة التى كنت أتعامل معهـــا قد اتصلت بالمريديان القاهرة وحجزت لنا فى مريديان الخرطوم ، وبذلك ضمنت على الأقل خطوة فى رحلتنا . ذهبت إلى سفارة تنزانيا وكانوا من الرقة بحيث منحونى تأشيرة الدخول فى اليوم نفسه مع أنها عادة لا تعطى إلا فى اليوم التالى . وليس لموزمبيق سفارة لديـــنا ، وعلى هذا فانى قررت ان آخذ التأشيرات أثناء وجودى فى تنزانيا بهذا ، وبعد صرف العملة المسموح لنا بها قانونا أصبحنا على استعداد للسفر .

السودان

هل أنا بحاجه إلى تعريف القطر الشقيق ؟ ربما لو مررت مرورا سريعا جدا على جغرافيته ، وتاريخه ، فسوف أنعش ذاكرة البعض .

هو أكبر أقطار القارة الافريقية مساحة ، ٩٦٧٠٠٠ ميلا مربعا ، أو أكثر من مليونى كيلو مترا مربعا . تحده من الشمال مصر ، ومن الشرق البحر الأحمر ، واريتريا ، والحبشة ، ومن الجنوب كينيا ، وأوغندا ، والكونغو أما الغرب فهنالك ليبيا ، وتشاد وجمهورية وسط أفريقيا . عاصمته الخرطوم ، وأهم مدنه الابيض ، وواد مدنى ، وكسلا ، وبورت سودان . أما جوه فهو مطير صيفا ، وجاف شتاء وهو جو استوائى عموما ، وإن كانت الصحراء تغطى مساحة كبيرة فى الشمال ، ثم تليها المراعى ، ثم الغابات الاستوائية فى الجنوب . واللغة السائدة فيه هى العربية ، مع وجود بعض اللغات المحلية فى القبائل الجنوبية وكذلك النوبة ، بين دنقلة ووادى حلفا . أما عملته فهو الجنيه السودانى ، والدولار يقابل حوالى ١١٠ قرشا بالسعر الرسمى ، وحوالى ١٨٠ قرشاً فى السوق السوداء .

قد يظن البعض أن مثل هذه المساحة تضم جماعات غير متجانسة مما يؤثر على الوحدة الوطنية، وهذا صحيح إلى حدما فهنالك خليط كبير من الأجناس النيلوتيين ، والبانتو ، والعرب ، لكن الواقع أيضاً أن هنالك اتحادا فى ثلاث نواحى هامة، فبين كل عشرة من السودانيين عموما يوجد أربعة أشخاص على الأقل ترى فيهم الدماء العربية، وخمسة يتكلمون العربية فى منازلهم ، وسبعة مسلمون . هذه الخصائص قربت إلى حد بعيد بين الاجناس المختلفة ، بل وأدنت السودان عامة من الدول العربية ، والاسلامية ، وإن تكن قد أبعدتها نسبيا عن سائر أقطار القارة الافريقية .

جمهورية السودان

ليبيا
مصر
وادى حلفا
بورسودان
البحر الأحمر
تشاد
عطبرة
أم درمان
الخرطوم
الفاشر
الأبيض
ملكال
الحبشة
أفريقيا الوسطى
جوبا
الكونغو
أوغندا
كينيا

إلى جانب هذا توجد الجذور التاريخية، مرتبطة بالتاريخ المصرى منذ زمن بعيد وإلى حد بعيد جدا.

كان الفراعنة يرسلون إلى القطر الشقيق، البعثات، سواء الحربية، أو الاستكشافية، أو التجارية منذ عهد بوبى الثانى من الأسرة الرابعة على الأقل، ودليلنا على ذلك رحلتا ونى، وحرخوف. استقى السودان من الحضارة المصرية القديمة، حتى أنه عندما قامت إمبراطورية كوش، وعاصمتها ناباتا فيما بين سنتى ٧٥٠، ٢٥٠ قبل الميلاد، وأعقبتها حضارة مروة، نجد أنهما تشابهان فى الحضارة إلى حد بعيد مصر الفرعونية. وصلتا من القوة إلى حد غزو مصر، والاستيلاء عليها، وتأسيس الأسرة الخامسة والعشرين التى استمرت حتى طردها الآشوريون من مصر. بعــد الميلاد تكونت الدول المسيحية، خاصة فى الشمال السودانى، وذلك فيما بين السنين ٥٤٠، ١٥٠٤ ميلاديه فتأسست ممالك النوبة، وعاصمتها دنقله، وعلوه، وعاصمتها سوبة على بعد بضعة أميال شرق الخرطوم.

فتح العرب مصر، وعقدوا معاهدة البقط الشهيرة مع النوبة، وتغلغل العرب سلميا فى البلاد، ومعهم دخل الاسلام، حتى تكونت فى السنة ١٥٠٤ مملكة الفونج الإسلامية من خليط من السودانيين المسلمين والعرب، واستمرت هذه المملكة حتى سنة ١٨٢١ حينما غزا محمد على السودان. فى سنة ١٨٢٢ قامت ثورة ضد جيوش محمد على، أو الأتراك كما كانوا يسمون، وأخمدت بشدة، وأستمر الحكم المصرى حتى سنة ١٨٨٥ حينما قامت ثورة المهدى التى استمرت حتى سنة ١٨٩٩. وبانتهائها بدأ الحكم الثنائى، البريطانى المصرى، لينتهى كل هذا، وتستولى بريطانيا على السودان بمفردها حتى سنة ١٩٥٥ حين نالت السودان استقلالها التام.

١٤ — ١٩٨٢/١٢/١٥

كنت قد اشتريت كاميرا فيديو لاستعمالها فى رحلتى ، ومن حسن الحظ أنى سألت أحد الأصحاب الذين يعملون فى الجمرك عما إذا كانت هنالك إجراءات خاصة بها فسأل بدوره ، وأجاب بأن هنالك تأمينا يدفع قدره ستمائة وستون جنيها . فى يوم السفر أخذت معى ألف جنيه وجاء لتوديعنا ابنتنا وزوجها على أساس أن يأخذا أيضاً باقى النقود المصرية لأنه كما هو معلوم من الممنوع قانونا أخذ نقود مصرية إلى الخارج .

حسنا فعلت ، إذ أن السيد مأمور الجمرك أصر على أن يأخذ مبلغ ألف جنيه كأمانة رسوم حتى عودتنا من الخارج ، ولست أدرى لماذا يغرم الموظفون الحكوميون عموما بوضع الصعاب؟، ولماذا لا يكتفون بتعلية الفيديو على جواز السفر مع فرض غرامات كبيرة فى حالة عدم استيراده ثانية ؟ هل المفروض أن كل مصرى غير شريف إلى أن يثبت العكس ؟

فى الساعه الثالثة إلا ربعا أقلعت بنا طائرة شركة مصر للطيران، وهى بوينج ٧٠٧ وسرعتها تسعمائة كيلو مترا فى الساعة وتحلق على ارتفاع ثلاثة وخمسين ألف قدم ، وتقطع المسافه فى حوالى الساعتين والنصف . كانت رحلة جيدة خالية من المطبات الهوائية مما أمكننا من النوم قليلا . وربما يكون من المستحسن أن أقول إن خطتى كانت هى أن أمضى ثلاثة أسابيع فى السودان لأزور شمالها، وجنوبها حتى جوبا ، ثم أسبوعين فى تنزانيا ،وأسبوع واحد فى موزمبيق لأتم بذلك خمسة وأربعين يوما تقريبا .

فى الساعة الخامسة والربع صباحا ، وصلنا إلى الخرطوم ، ومطارها صغير جدا بالنسبة لأهميتها كعاصمة لأضخم دولة حجما فى إفريقيا . مررنا بالجمرك دون أية عقبات ، إلا أنى فقط أعلنت ما معى من نقود حتى لا تنشأ لنا مشاكل . أكترينا سيارة أجرة من المطار إلى فندق المريديان ، ولما لم أكن قد أبدلت

قودا فإنني دفعت للسائق خمسة دولارات ، وهذه فى حقيقة الواقع مخالفة القدية .

كانت أول ملاحظة أن حركة البناء قد نشطت كثيرا عما كانت عليه منذ سنتين حينما زرت الخرطوم لأول مرة ، وقد علمت بعد ذلك أن ثمن الألف طوبة ، وهم يصنعون الطوب الأحمر من الطمى كما عندنا فى مصر ، يبلغ خمسين جنيها غير المشال الذى يتراوح بين العشرة جنيهات ، وخمسة عشر جنيها للالف .

دخلنا حجرتنا فى الساعة السادسة تقريبا ، ودون أن نقوم بأى عمل استلقينا على الفراش ، واستيقظت فى التاسعة صباحا ، وكانت زوجتى ما تزال نائمة . كان أول ما يجب أن أهتم به هو ترتيب رحلاتنا القادمة حتى لا نستقر فى الفندق دون عمل ففى ذلك سأم ، ومضيعة للمال والوقت . كان بعض الأخوة فى مصر قد أعطانى خطابا إلى قريب له فى الخرطوم كما أرسل إليه خطابا آخرا بالبريد ، وهذا القريب هو مدير فندق أكسلسيور ، وهو فندق ثلاثة نجوم ، ويقع فى شارع الجمهورية فى منتصف البلد ، ولا يبعد كثيرا عن المريديان .

اتصلت به هاتفيا فرحب الرجل ، وإن ذكر أنه لم يصله خطاب من مصر حتى الآن ، إلا أنه رجانى أن أزوره حيث أن عمله يحتم عليه التواجد المستمر فى الفندق . وقد كان ، فبعد حوالى النصف ساعة كنت أجلس معه فى حجرة مكتبه شرحت له مطالى وهو ببساطة أن يعرفنى على مكتب سياحة محترم أستطيع أن أعتمد عليه ، ولا شىء أكثر من ذلك . تفضل الرجل مشكورا واصطحبنى إلى شركة وكالة الشرق الأوسط للسياحة ، ومديرها السيد محمد محمد حسن ، وهو قريب جدا من الفندق ، ومن هنا بدأت سلسلة من المشاكل .

فى أواخر سنة ١٩٨٠ أى منذ سنتين زرت الخرطوم زيارة سريعة استغرقت ثلاثة أيام ، وفى أثنائها لاحظت أن هنالك أزمة فى البنزين . لكن البنزين كان موجودا فقد استأجرت سيارة وذهبت إلى أم درمان ثم إلى جبل الأولياء ، وطفت بها فى المدينة نفسها . ربما كانت هنالك بعض المتاعب فى الحصول على الوقود إذ إضطررنا فعلا أن نقف فى صف طويل من السيارات تسبقنا عشرة ، أو أكثر كما كان التوزيع بالبطاقات ، ومع هذا فلم يزد الأمر على أن نتحمل بعض المضايقات التى لا تذكر . أما أن يندر البنزين بحيث يختفى ، أو يكاد . وأن يرتفع سعره من ١٧٥ قرشا إلى عشرة جنيهات ، وأن لا تستطيع صرف مقابل البونات المخصصة لسيارتك ، وأن تقف فى أصفف متوازية ربما يتعدى مجموع السيارات فيه المائتين ، وأن يضطر سائق السيارة الأجرة إلى المبيت إلى جانب محطة الوقود حتى يكون من أوائل من يصرفه فى الصباح ، ثم بعد ذلك قد لا يصرف للمحطة أصلا وقود ، هذه الأشياء جميعها لم تكن موجودة فى زيارتى الأولى فى سنه ١٩٨ وشاهدتها هذه المرة ، وكان من الجلى أن الأزمة قد بلغت ذروتها .

حينما بدأت شرح ما أريد للسيد حسن واجهنى بهذه الصعاب . قال إن السير بالسيارات يكاد أن يكون مستحيلا ، وأن هناك بعض الشركات الطائرة خاصة تقبل أحيانا ركابا من غير موظفيها ، وأنه سيحاول أن يلحقنا بإحداها وإن يكن قد ذكر أننا حتى إن وصلنا إلى جوبا فلن نجد سيارة لتقلنا إلى الأحراش وقرر أن دندر ، وهى الحدائق الحكوميه المفتوحة ، لم يستطيعوا تشغيل الفندق بها حتى الآن نظرا لعدم وجود وقود ينقل إليها المواد التموينيه ، هذا مع العلم بأننا فى ذروة الموسم السياحى .

هنالك كلمة ؛ لست أدرى ما موقف مصر بالنسبة للبترول فى السودان؟

لكن المؤكد أن شركة مصر للطيران تستطيع أن تساعد إلى حد بعيد فى حل أزمة المواصلات ، وتستفيد هى أيضا من ذلك تجاريا . ذلك أنى لاحظت وجود عدة شركات أجنبية تستغل طائراتها الخاصة كما ذكرت ، بل وقيل لى إن بعضها يؤجر هذه الطائرات بالكامل للمجموعات السياحية ، وإن كان نادرا . لماذا لا تبحث شركة مصر للطيران موضوع تسيير خطوط طيران داخلية فى السودان ؟

إن الحكومة الإسرائيلية انتهزت فرصة الصلح مع مصر لتنشر ملصقاتها فى العالم السياحى مرغبة السواح أن يزوروا آثار إسرائيل ومصر معا، فلماذا لا تقوم الحكومة المصرية ، وهى أولى ، بوضع برامج لزيارة الاثار فى شندى، ودنقله العجوز، وأسوان، والأقصر، على أن تعمل رحلات موسعة إلى القاهرة من ناحية ، والخرطوم وجوبا من ناحية أخرى، لزيارة الأحراش فى دندره وفى جوبا ؟ أليس هذا نوعا من التكامل الذى يعود بالفائدة على البلدين ؟ إن الحضارتين فى الأقصر ، وأسوان ، ودنقلة العجوز ومروة ، وهى الآن شندى، مكملتان لبعضهما فلماذا لا تخصص رحلات منظمة لهما معا؟ أو لماذا لا تقوم الطائرة من القاهرة لتهبط فى مطار أسوان ، ثم الخرطوم ، ثم جوبا مثلا ؟

أخشى أن أكون قد أطلت ، وإن كنت لا أعتقد ، أن فى هذا خروجا عن موضوع الكتاب فللسودان وضع خاص فى قلبى لا يقل عن مصر ، كما أعتقد مما رأيت ، وسمعت، أن لمصر وضعها الصحيح فى قلوب إخواننا السودانيين، لهذا لم تكن هذه سياحة ، بقدر ما هى زيارة ، وليس ما أكتبه نقدا بقدر ما هو صرخة مرارة . إذا أريد تكامل حق فليكن بأعمال مثمرة يشعر بها الشعبان ، وأولها وسائل الاتصال . أما الطرق الأرضية فاصلاحها يستغرق

وقتا ، كما أنها طويلة جدا وأما المواصلات المائية فقد سمعت أن هنالك عبارات بدأت عملها فعلا بين السويس والسودان . وهذه خطوة ، ان تكن محمودة ، إلا أن أثرها محدود . وبذلك لم تبق سوى الطرق الجوية .

تركت السيد حسن على وعد بأن يبذل قصارى جهده ليعد برنامجا للسياحة فى الجنوب إلى جوبا ، رشندى ، وفى الشمال إلى دنقلة ، والشلال السادس ، وربما أيضا إلى الأبيض ، وجبل مارا فى الجنوب الغربى . وطلبت منه وقتما أن يرسل لنا سيارة فى المساء لتقلنا فى رحلة داخل الخرطوم ، وأم درمان .

توجهت بعد ذلك إلى الفندق ، وكان الجو حارا ، والشمس قوية أثناء الطريق . مضى اليوم ونحن ، زوجتى وأنا ، فى الفندق ولم تأت السيارة التى وعدنا بها السيد حسن .

١٩٨٢/١٢/١٦

توجهت صباحا مع زوجتى إلى المدينه وكان الجو أيضا حارا ، والشمس قوية حتى اضطررت إلى ارتداء قبعة . مررت على السيد حسن مستفسرا منه عن سبب عدم إرسال السيارة ، وعما فعله لنا فى موضوع ترتيب الرحلة ولم ألق سوى الاعتذارات والوعود . تركناه وتجولنا قليلا فى البلد ثم عدنا إلى الفندق . كنت قد لاحظت وجود شركة للسياحة فى الفندق نفسه ، ولم أعتن بأن أسألها المعونة لتدبير الرحلة نظراً لوعود السيد/ حسن لكننى حينما عدت إلى الفندق رأيت أن أرى هذا التوكيل السياحى ، أيضا وهو باسم خرطوم توريزم سنتر ، ومديره الدكتور محمد النور بلال ، وبهذه المناسبة الرجل حائز فعلا على إجازة الصيدلة من جامعة القاهرة ، ولكنه رأى أن يعمل فى السياحة .

حينما خاطبت الرجل ذكر لى أيضا صعوبات الحصول على البنزين ثم قال إنه مؤقتا يستطيع أن يأخذنا فى الساعة الثالثة فى نزهة نيلية على أحد زوارقه البحرية ، ليرى بعد ذلك إن كان يستطيع تدبير الرحلات . رفضت شاكرا إذ كنت على موعد مع السائق الذى سيرسله السيد حسن للذهاب إلى أم درمان لشراء بعض الأشياء من سوقها . فقال إن هنالك رحلة أخرى فى اليوم التالى فى الموعد نفسه ، وأن السعر بالنسبة لكل شخص هو عشرون جنيها سودانيا ، وقبلت على أن يبحث لى عن وسيلة للذهاب أولا إلى شندى ، وثانيا إلى الشلال السادس ، وثالثا إلى جوبا ، ولا بأس إن أمكن عمل رحلة إلى جبال مارا غرب السودان .

لم يأت السائق فى الساعة الثالثة — كما وعد السيد / حسن وحينما اتصلت بفندق أكسلسيور تأسف السيد على ، وهو المدير ، وقال إنه سيرسل أحد السائقين فورا . ولم يأت السائق إلا فى الساعة الخامسة ، وقد أوشكت الشمس على المغيب على أى الأحوال ركبنا ، زوجتى وأنا ، ولما كنت قد ذهبت فى رحلاتى السابقة إلى أم درمان فلم يكن فيها جديد بالنسبة لى ، ولكننى أردت أن ترى زوجتى كل العاصمة المثلثة ؛ أعنى الخرطوم بحرى ، وأم درمان ، حتى تأخذ فكرة صحيحة ، أو قريبة من الصحة ، عن البلدة وفعلا ذهبنا إلى بوابة القيوم ، وهى التى يقال إن المهدى بدأ هجومه على القوات الإنجليزية المصرية بقيادة غوردن منها ، وزرنا قبر المهدى ، وقد سبق لى أن وصفته فى كتابى السابق ، وكذلك منزله ، ثم اتجهنا إلى السوق الضخم ، وهو من أضخم أسواق أفريقيا ويكاد أن يضارع سوق أديس أبابا ؛ ومررنا كذلك بمنزل السيد الأزهرى رحمه الله ويقطن به الآن أولاده . ويصل المدن الثلاثة المتجاورة أربعة كبارى ، كوبرى بحرى ؛ وشمبات أى الزراعة ، وأم درمان ، وكوبرى كوبرا ، أى مصلحة السجون . لعل أجمل ما فى السوق جلود الحيوانات ، والزواحف

خاصة جلد الثعبان الذى قد يصل إلى ثمانيه أمتار . وجلد التمساح وهم يصيدون التماسيح الصغيرة التى طولها حوالى المتر ، ويحشون جلده بعد قتله وبعد دباغته ثم يعرضونه للبيع ، وهو أغلى كثيراً من جلد الثعبان .

بعد أن مررنا بعدة أماكن فى البلدة عدنا عن طريق خرطوم بحرى ولم ينس السائق طبعاً أن يأخذ عمولته من التاجر الذى اشترينا منه ولكنه على الأقل اعتذر حينما لاحظ أنى رأيت ما فعل ، وقال إن التاجر أرغمه ؟ !

بعد أن وصلنا إلى الفندق تناولنا العشاء ، وأوينا إلى حجرتنا .

١٩٨٢/١٢/١٧ .

اليوم هو الجمعة ، وكل المحلات التجارية ، والمؤسسات مغلقة ، فأنت إذا سرت فى الخرطوم فستجدها مدينة نائمة تماما . لكن السيد محمد النور ، كان موجودا فى مكتبه بالفندق ، وقال إنه مستعد لأن يأخذنا فى الساعة الثالثة فى الجولة السياحية ، فى النيل إلى جزيرة التمساح ؛ ثم نعود منها ، وأن الرحلة تستغرق حوالى الساعتين والنصف قرر كذلك أنه أوصى على سائق سيراه فى المساء ليذهب بنا الشلال ، وهم يسمونه « السبلوجة » ، وأننا حينما نعود من رحلتنا النيلية سنقابله فى الساعة السابعة لنتفق معه على الرحلة الثانية ذكر لنا أيضا أنه سوف يحجز لنا للذهاب إلى شندى ، حيث نستطيع رؤية آثار مروة كما أنه سيحاول حجز تذاكر على الطائرة إلى جوبا . ومنها نستطيع أن نكترى سيارة للدخول فى الأحراش أما دندره فكما ذكرت ، ومع أننا فى أحسن أوقات موسم السياحة بالنسبة لها ، ومع أنها أحسن حدائق الحيوان المفتوحة فى السودان ، فإن الفندق الموجود بها لم تتمكن وزارة السياحة من فتحه حيث لا يتوفر الوقود لنقل المؤن إليه . وعلى هذا ، ولاستحالة الوصول إلى الحدائق ، والتجول فيها دون وقود فلا فائدة من التفكير فيها .

فى الساعة الثانية والخامسة والأربعين دقيقة التقينا بالسيد محمد النور فى بهو الفندق وهنا التقى بنا ثلاثة أشخاص . امرأة انجليزية اتضح أنها تقطن

نيروبى منذ سبع سنوات ، وشاب أمريكى فى أوائل العقد الرابع وزوجته الأمريكية التى تناهز عمره . ركبنا سيارتين نحن والسيدة الانجليزية فى واحدة ، والأمريكيان فى سيارة السيد محمد النور . واتجهنا إلى كورنيش النيل الأزرق أمام الفندق الكبير ، وهو فندق ظريف المظهر له شرفة ضخمة تطل على النيل .

نزلنا إلى المرسى ، ورأينا المركب . وهو فى الواقع لا يزيد على لنش عتيق ربما يكفى لعشرة أشخاص ، ويعمل به قائد وميكانيكى . واسم اللنش « حباكم » وهى تعنى مرحبا بكم . وبالرغم من أننا كنا على النيل مباشرة إلا أن الجو كان شديد الحرارة ، والشمس ترسل أشعة حارقة . لاحظت ان النيل الأزرق فى هذه المنطقه ضيق . وحينما سألت عن السبب عرفت أن الضفة الاخرى ليست هى ضفة النيل . وإنما هى ضفة لجزيرة ضخمة جدا وأن طول الجزيرة واسمها توجى ، يقارب الخمسه وعشرين كيلو مترا ، ويقطنها ما بين ثلاثة آلاف ، وأربعة آلاف شخص تقلهم عبر النيل معديات . ولعله من سقط القول أن أذكر أن تربة الجزيرة خصبة جداً ، وأن بها كثيرا من الفاكهة كالمانجو ، والموز ، والبرتقال ، واليوسفى ، وتزرع كذلك أنواع من الخضر المختلفة .

كانت سرعة اللنش ، ما بين عشرين وثلاثين كيلو متراً فى الساعة ، واتجهنا إلى الجنوب الغربى ، ومررنا بجامع النيلين ، وهو مبنى جميل يلتمع فى ضوء الشمس ، ومبنى عند التقاء النيلين الأبيض والأزرق . عدنا شمالا على النيل الأبيض ، وشاهدت ورشة ضخمة لإصلاح المواعين ، والمركب البخارية ، واللنشات ، وعلمت أن صاحبها رجل يدعى الشيخ مصطفى أمين ، وهو يمتلك أسطولا نهريا كبيراً ينقل به الأشخاص ، والبضائع على النيل إلى جوبا ، وملكال ، وسائر المدن التى تقع على النيل ، ومررنا كذلك بقصر رئاسة الجمهورية ، وهو مبنى فخم يطل مباشرة على النيل ، أى أن الكورنيش يستمر داخله كطريق

خاص ، كما تطل على النيل فى الجهة المقابلة أيضاً بعض القصور الضخمة للتى علمنا أنها مساكن الدبلوماسيين رجال السلك السياسى الأجانب ؛ ولكل منها مرسى خاص على النيل مباشرة ، كما أن أمام الكثير من المراسى لنشات خاصة ، صغيرة ، ومتوسطة الحجم وكان البعض يستقلها ، ويسابق لنشنا ، ويلوح من فيها إلينا .

مررنا أيضاً بمجموعة ضخمة من قمائن الطوب الأحمر ، وهى شبيهة تماماً بالقمائن الموجودة عندنا بمصر .

وصلنا أخيراً إلى جزيرة التمساح إذ كانت الساعة الرابعة والنصف . وهى جزيرة صغيرة جرداء تقريباً ، يستعملها أهالى الخرطوم للنزهة ، وقيل إنها كانت مأوى للتماسيح حتى بنى خزان سنار ، فهربت من المنطقة . بعد ذلك وصلنا إلى جزيرة أخرى صغيرة اسمها أم دوم ، ثم بدأنا رحلة العودة فى الساعة الرابعة وأربعين دقيقة لنصل إلى المرسى فى حدود الساعة السادسة . وقد فاتنى أن أقول : إننا تناولنا الكركديه البارد على اللنش ، وأن الأجانب الثلاثة أعجبوا به جداً حتى أنهم أعادوا طلبه ، كما فعلنا نحن .

عدنا إلى الفندق فى حدود الساعة السادسة ، وبعد أن أبدلت ملابسى هبطت إلى الردهة حيث مكتب السيد محمد النور ، وهناك رأيته ومعه سائق السيارة التى ستنقلنا فى اليوم التالى إلى الشلال السادس . أو السبلوجة كما يسمونه ، واتفق معنا السائق على أن يقلنا ، ويعود بنا لقاء مبلغ مائة وخمسة وعشرين جنيهاً سودانياً ، وعلى أن نبدأ رحلتنا فى الساعة الحادية عشر صباحاً . بعد هذا ذهبنا ، زوجى وأنا ، لنتناول طعام العشاء ، وقد فاتنى أن أذكر أن المريديان يقدم فى الغداء والعشاء نظام المائدة المفتوحة لقاء اثنى عشر جنيهاً ونصف ، كما يقدم بداهة سائر أصناف الطعام حسب الطلب .

١٨/١٢/١٩٨٢

تناولنا طعام إفطارنا ، ومكثنا في ردهة الفندق ننتظر السائق الذى علمنا أن اسمه أبو بكر الطاهر . بينما نحن جالسين حضر إلينا السيد محمد النور ، وسألنا إذا كنا نقبل أن تقل معنا زوجين أمريكيين على أن نتقاسم المصروفات ويرتفع الأجر بالنسبة للسائق إلى ١٥٠ جنيها سودانيا ، بدلا من ١٢٥ ، وأجبته بأنى لا أعارض من حيث المبدأ . لكن حينما أشار إلى الزوجين وجدت معهما طفلتين ، إحداهما فى الرابعة ، والثانية فى السابعة ، فعدلت فى قولى وأجبته بأن لا مانع لدى أن يأتى الزوجان دون الطفلتين ، وفى الفندق مربيات مدربات لمراعاة الأطفال يستطيعان إستئجار واحدة وتركهما فى رعايتها . لكن يبدو أن الأم رفضت ، وقررت المكوث فى الفندق على أن يصحبنا الزوج فقط .

اتضح ان السيد الطاهر السائق لم يكن قد زود السيارة بالبنزين ، وأول ما فعل أن أصطحبنا إلى محطة البنزين حيث رأينا لا أقل من مائة سيارة أجرة فى الانتظار . كان المفروض أن يأخذ دوره ، لكنه استغل وجودنا وطلب من ناظر المحطة ، ومعه جنديين ، أن يتجاوزوا عن الدور إكراما لنا ، بل وطلب منى أن أخاطبهم فى الأمر ، واضطررت أن أفعل وإلا كان علينا أن نبقى طوال النهار ، خاصة وأن الجو كان شديد الحرارة . وبالمناسبة أن الخرطوم عموما شديدة الحرارة مثل هذا الوقت من السنة صباحا وجوها معتدل وقد يميل إلى بعض البرودة مساء .

خاطبت رئيس المحطة ، والجنديين ووافقوا مشكورين على أن نتعدى دورنا ، وأدخلوا السيارة من جانب المحطة ، وقد قال رئيس المحطة لى مؤكدا أنه ما كان يفعل ذلك إلا إكراما لنا كمصريين فى الساعة الحادية عشر بدأنا رحلتنا فاتجهنا شمالا ، وعبرنا كوبرى أم درمان ، واجتزنا المدينة نفسها . ومن

ثم انطلقنا إلى الريف وريف السودان قريب الشبه بريف مصر ، والواقع أن المرء لا يشعر مطلقاً أنه ترك بلده ، لما يلقاه من ترحيب من كل شخص يقابله أو يحتك به .

بدأ الطريق جيد الرصف ، واستمر كذلك حوالى الساعة مررنا أثناءها بقرية كبيرة اسمها حلفاية الملوك ، قال لنا السائق أيضاً أن هذه هى منطقة قبائل الكبابيش ، والسمات عموما فى الخرطوم وشمالها سمات عربية ، بل إن ألوان الوجوه ليست داكنة ، وإن كانت السمات الزنجية تبدو فى بعض الأشخاص .

فى الساعة الثانية عشرة ظهراً تركنا الطريق المرصوف ، وبدأنا طريقاً معبداً ، وإن يكن لا بأس به نظراً لوضوح أن كثيرا من السيارات تمر عليه ، انتهت بعد قليل الزراعة ، وبدأ الضياع . ويجب هنا أن أوضح أن الرحلة جميعها لا تبعد عن النيل كثيرا بمعنى أنه لو مدت ترعة منه لأضحت جميع الأرض خضراء .

أيضاً اتضح أن السائق لم يكن يعرف الطريق ، ولا طرقه قبل ذلك خلافا لما ادعى ونحن لدى السيد محمد النور .

بعد فترة قصيرة من القيادة اختفى الطريق ، وتعددت آثار عجلات السيارة فى شتى الاتجاهات كما ندرت السيارات نفسها ، وأضحى من اليسير على المرء أن يضل فى تلك الصحراء أو الأرض الجرداء ، وكان السائق يسأل كلما صادفنا شخصاً عن الاتجاه الصحيح ثم يسلكه .

تعرفت فى تلك الأثناء على رفيقنا الأمريكى ، وهو مهندس زنجى الأصل واسمه كورنيل يعمل فى شركة أرامكو فى السعودية . وهو شخص لطيف هادىء المعشر ، لقى الصعاب التى صادفناها فيما بعد بروح مرحة . كان السائق متهوراً فى قيادته خاصة وأنه يقود فى منطقة لا يعرفها ، وطريق غير معبد ،

لم يكن الطريق فى الواقع سيئاً جداً ، وإن وجدت بعض الحفر التى كان يمكن تفاديها لو كانت القيادة هادئة ، كنا نمر بقرية صغيرة اسمها جرى ، وهى فى منطقة الجمليين ، حينما وقعت حادثة نتيجة القيادة المتهورة ، ظاهرها العذاب ، وباطنها الرحمة . سمعنا صوت آلة للسيارة يعلو بشكل واضح أثر مرورنا على حفرة عميقة

كنا فى ساحة وسط البلدة ، وكانت الساعة الواحدة والربع ، أى أن الشمس كانت على أشدها ، ولا ظل تقريباً حولنا إذ أن المبانى جميعا واطئة لا تعطى أى نوع من الحماية . أوقف السائق السيارة وهبط منها ليرى السبب فى الخلل .

انتهزنا الفرصة ، سيمور وأنا ، لنحرك أقدامنا ، بعد ساعتين ونصف الساعة من الجلوس ، سألت السائق إن كان يريد منا أية معونة إلا أنه قرر بعد أن قام بالفحص أننا لا نستطيع عمل أى شىء حيث أن إحدى الحمالتين اللتين ترفعان السيارة قد كسرت ، وبذلك مالت الآلة على أحد الجانبين ، وأنى شخصياً اشك جداً فى أن هذه الحمالة قد كسرت منه قبل ذلك ، وأصلحها ثم عادت وانكسرت الآن نتيجة لرعونته فى القيادة .

كالعادة تجمع بعض الصبية حولنا ليروا ما نحن فاعلون ، واقترحت على السائق أن نضع رافعة السيارة ، وهى من الصلب ، مكان الحمالة المكسورة ، فرفض ، وتوقفنا لا ندرى ماذا نفعل . هنا ظهر رجل طويل القامة فى الحلقة الخامسة من عمره ، كان من الجلى أنه ذو حيثية فى البلدة ، وعرفنا بنفسه قائلا إنه الشيخ فضل الله الجملى .

قال إن منزله قريب ، واقترح أن تذهب زوجتى إليه لتنتظر بعيداً عن

الحر حتى نرى ماذا سوف نصنع ، وحبذت الاقتراح ، وفعلا ذهبت زوجتى وبقينا نحن إلى جوار السيارة لنرى ما يمكن عمله .

حينما عاد بعد أن أوصل زوجتى قال إن هنالك ميكانيكيا قريبا نستطيع أن نستعين به ، ثم صحب السائق ، وغابا عنا بين المنازل

انتهزنا الفرصة ، سيمور وأنا ، ووقفنا نلتقط بعض الصور ، خاصة لضريح جميل قريب من الساحة قيل لنا إنه مزار الشيخ عجيب (أنظر الغلاف) . لاحظت أن بعض الأطفال يحمل خبزا مما نطلق عليه الفينو ، ومعنى هذا أن هنالك مخبزا قريبا،ومعناه أيضا أن القرية ليست صغيرة بالقدر الذى تصورته فى بادىء الأمر .

ما لبث الشيخ فضل الله أن عاد ومعه السائق يصحبهما رجلان اتضح أنهما ميكانيكيان : قام الجميع بعملية سريعة من التكنولوجيا الراقية ، فانبطح أحد الميكانيكيين على الأرض تحت السيارة ، ومعه حجر كبير، وتظاهر الجميع لرفع الآلة تحت توجيهات الأخ المنبطح على الأرض ، حتى تمكن من ضبط وضع الحجر ، ثم تركوا الموتور ليستقر عليه . دار السائق بعد ذلك الآلة فدارت كأحسن ما يمكن أن يكون دون أدنى صوت كأنها بالكاد خارجة من المصنع .

إقترح علينا الشيخ فضل الله أن نمكث فى منزله قليلا لنتناول الشاى حتى يزيد الميكانيكيين من إحكام وضع الحجر ، وقبلنا .

دخلنا إلى منزل قريب يحوطه سياج من اللبن يرتفع حوالى المترين والمنزل يحتل قطعة من أرض هائلة المساحة ، ربما تقارب نصف فدان ، أو تزيد ، يشغل البناء فيها جزءا صغيرا لا يتجاوز المائة وخمسين مترا ، وتنظيمه لطيف

إذ أن الجزء المواجه للباب مباشرة . أمامه مساحة كبيرة من الأرض الفضاء. ومن الجلى أنه مخصص لاستعمال رب البيت وأنه ربما يكون أيضاً لاجتماعه مع أصحابه وتسامرهم فى المساء ، وراء ذلك يوجد باقى المنزل ؛ وإلى الجهة الشرقية باقى المساحة جميعها خالية ليس فيها نبات أو شجر بمجرد ضياع فيما عدا جزء يسير بالقرب من السور الخارجى قريباً من المنزل حيث أحيط السور من الداخل بجدار ليكون مكاناً يستعمل لقضاء الحاجة .

لاحظت أيضاً وجود حنفية يصل إليها الماء من مواسير ممتدة تحت الأرض وحينما سألت صاحب الدار عما يمنعه من الانتفاع بتلك المساحة الضخمة من الأرض فى الزراعة ، أو غرس الأشجار سواء للفاكهة ، أو حتى الانتفاع بها لمجرد الجمال ، والظل وتخفيف حدة الحرارة ، أجاب بأن ما يمنعه هو عدم وجود مياه ؟

شربنا بعد ذلك ليموناً بارداً مثلجاً ، ثم قدم إلينا الشاى لكن ما جعلنى أشعر بأنى بين أهلى حقاً هو تصرف الشيخ فضل الله ذلك التصرف السهل البسيط ، وكلامه عن مصر بحب شديد ، وأخوة ، فهو مثلا قال إنه عرف أنى مصرى بمجرد أن رآنى ، وقرر أنه يعرف المصريين لو كانوا بين عشرات من أبناء الأمم الأخرى . وحينما طلبت التقاط بعض الصور لم يتعرض وإنما رحب بالفكرة .

كانت الساعة قد قاربت الثانية والنصف ، واستأذنا من الشيخ فضل الله فذكر لنا أن الطريق إلى السبلوجة . وكنا قد قررنا المجازفة والاستمرار فى الرحلة وعر طويل ، ويمر وسط البرارى وأنه سوف يرسل معنا واحداً من الأهالى ليدلنا عليه . ولما كان من الجلى أن السائق لم يكن يعرف الطريق فقد رحبنا بذلك ، فأرسل معنا شاباً ربما يكون فى الحلقة الثالثة ، أو أوائل

الرابعة عرفنا أن اسمه عمر محمد أحمد . ما كدنا نسير قليلا حتى عرفنا أنه من المستحيل على من لا يعرف المنطقة ألا يضل ، فلا يوجد طريق ، والأرض جميعها منبسطة ، وتتناثر بها أكوام من الحجارة والصخور السوداء الضخمة التى يبدو كأنما قد جمعها مردة يلهون ويتقاذفون بها .

استمر الطريق على هذا المنوال زهاء الساعة والسائق يسير تبعا لإرشادات الأخ عمر حتى وصلنا إلى بلدة علمنا أنها تدعى مسيكتاب فى حدود الساعة الثالثة والنصف .

قال لنا السيد عمر إن النهر والسبلوجة بالتالى لا تبعدان بأكثر من خمس دقائق ظهرت البلدة ، وبها بعض المزروعات القليلة ، والأشجار ، ثم صعد بنا السيد عمر تلا صخريا قال إنه آخر ما يمكن للسيارة أن تصل . وبالفعل كان النهر يهدر تحتنا .

ظهر النيل الجميل أمامنا ، وفى وسطه جزيرة صغيرة تسمى مسكيت ، ومررنا صعدا مع الجبل ، أو التل ، قابلنا مجموعة كبيرة من الشبان ومجموعة أخرى من النساء .

علمنا أن هناك فرحا فأخذنا بعض الصور للعريس وأترابه فى حين استمرت النساء فى السير . واصلنا تقدمنا ، وصحبنا صبى لطيف إسمه شفيق ثم ما لبثت فتاة صغيرة ربما فى التاسعة من عمرها ، اسمها مديئة ، أن تركت المرح وراح الاثنان يمطراننا بوابل من الأسئلة عن مصر . ولست اعتقد أنى فى حاجة إلى أن أصف مدى سرورى حينما رأيت قوة حب الطفلين لمصر ، بل ومدى ما يعلمانه عنها ، وما كنت أتصور أن هذه المناطق النائية يمكن أن تصل من العلم إلى هذا الحد .

استمر صعودنا الجبل حتى شارفنا قمته تقريبا ، استطعنا أن نرى

السبلوجة وهى ليست شلالا بالمعنى المعروف وإنما مجرد دوامات مائية قوية عند رأس الجزيرة يصدر عنها هدير قوى عند قمة التل أنانا رجل فى الحلقة السادسة من عمره وكنا نشاهد بعض المزروعات البسيطة ، إن تكن ناجحة أبدا من الخص ، والعجور ، والجرجير ، وكان يرفع الماء من النهر بواسطة آلة رفع تضخه فى المواسير .

وحينما علم الرجل أننا من مصر نادى على ابنه قائلا إنه أى الإبن زار مصر ثلاث مرات ، وذهب إلى القاهرة وبور سعيد ، والإسماعيلية .

سألنى الرجل عن سبب قتل المرحوم السادات ، وعن أنجاله ، وعن الرئيس الجديد حسنى مبارك وأبدى اهتماما ملحوظا بكل ما تحدثنا عنه كما وقف إلى جواره الطفلان ، وحضر نجله وطفل آخر بعد أن التقطنا بعض الصور وتحدثنا قليلا مع أشقائنا أنهينا الزيارة ، واتجهنا إلى السيارة وصحبنا الجمع حيث كانت تقف ودعونا بعد أن ألح علينا السيد عمر أن نقبل الضيافة ، واعتذرنا ولن أنسى وجه الأطفال الثلاثة وأنا أذكرهم بأن حلمنا نحن ... ل ما استطاع طبقا لظروفه وإمكانياته ، وأن على جيلهم أن يتم الوحدة الحتمية ليجعل من القطرين قطرا واحدا لا إنفصال له ودعتهم قائلا لا تنسوا ، هزوا رؤوسهم إيجابا ... ولا أحسبهم سوف ينسون .

بدأنا رحلة العودة فى الرابعة والربع مساء أمسى علينا الليل ولم نصل إلى الفندق إلا بعد الساعة السادسة والنصف

لم نكن قد تذوقنا شيئا طوال النهار ، وكانت رحلة متعبة بجميع المعايير ، ولم نر شيئا يستحق الذكر ولم تكن السبلوجة بالمنظر الذى يستحق قضاء نهار كامل ، ولكننى مع هذا لا أبدل اليوم بعشرة أيام ، أو مائة فيه أحسست إلى أى

مدى ارتباط الشعبين ، وفيه قد تذوقت بساطة الحياة ، وبساطة القلوب ، وبساطة الحب ، وعمقه .

أحسست بأني ازددت معرفة بالسودان عما لو كنت تجولت في ربوعه شمالا وجنوبا لقد بخل على القطر الشقيق ببعض الوقود ، لكنه فتح قلبه لي أنا واقعة واحدة .

١٩٨٢/١٢/١٩ .

لم أر فائدة في الاستمرار في محاولاتي الذهاب إلى جوبا وقررت أن أترك هذا لفرصة أخرى .

أما شندى فقد قرر السيد محمد النور أنه لم يجد سيارة لتقلنا إلى هناك ، واقترح بديلا عن ذلك أن نستقل سيارات الركاب العامة، وقال إن له أصدقاء سوف يستقبلوننا لدى وصولنا، وأن لديهم سيارة يمكن أن نكتريها للذهاب إلى آثار مروة ، وحينما استفسرت منه على الفنادق الموجودة في البلدة قرر عدم وجودها، وإن كان قد ذكر أن أصدقاءه على استعداد لأن يستضيفونا الليلة وعدت استفسر عن إمكان العودة في اليوم نفسه، فقرر أن سيارات الركاب تستغرق أربع ساعات ونصف ذهابا ومثلها في العودة مما يجعل الوقت ضيقا جدا للذهاب إلى مروة فضلا عن الإرهاق ، ورفضت عرضه شاكرا فلو أنني كنت بمفردي لفعلت ذلك ، لكن وجود زوجتي معي منعني، وبالرغم من أنها اقترحت أن أتركها في الخرطوم إلا أنني رفضت

طلبت من السيد الأنور أن يعد لنا سيارة تقلنا إلى خزان جبل الأولياء ، فانني وإن كنت رأيته قبل ذلك إلا أن زوجتي لم تشاهده فأجر لنا سيارته مقررا أنها ستكون تحت إمرتنا في الساعة الثالثة بعد الظهر . كان على بعد

ذلك أن أذهب إلى شركة طيران لوفتهانزا لحجز التذاكر لباكر فإن الطيران من الخرطوم إلى دار السلام لا يمكن إلا أن يكون بواسطتها ، ولا تقلع طائراتها إلا فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع .

بعد أن اتممت الحجز ذهبت إلى فندق أكسلسيور لأشكر السيد على على محاولاته مساعدتنا ، ثم حاولت أن اشترى بعض الأفلام لآلة التصوير فلم أجد فى المدينة محلا واحدا سوى حانوت يدعى مصوراتى النيل . ولما كان فيما يبدو صاحبه مسيحيا فقد كان مغلقا إذ اليوم الأحد .

وعلى هذا عدت إلى الفندق لتناول طعام الغذاء استعدادا للرحلة وتفضل السيد النور بأن دعانا إلى تناول الشاى فى منزله بعد أن ننتهى من زيارتنا لخزان جبل الأولياء ، وقبلنا شاكرين .

تناولنا طعام الغذاء ثم ركبنا السيارة متجهين إلى جبل الأولياء، وانطلقت السيارة عابرة كوبرى أم درمان ثم انطلقنا جنوبا .

كذلك قد ذكرت عن زيارتى فى سنة ١٩٨٠ أن الضياع كان هو السمة الرئيسية فى السودان ، وقلت لعل الحال قد تغير ونحن فى آخر ١٩٨٢ ، ولكن الوضع ظل كما هو ، فالأراضى الجوداء تمتد إلى ما لا نهاية محاذية للنيل . ومستوية ولا تحتاج إلا إلى بعض العمل الطفيف . ومع ذلك فليس بها زرع ، أو شجر ، أو حياة مما يوصف له أنه لم يتغير شىء بل إن مصنع الدواجن والعلف مايزال على حاله ولست احسب أن تغييرا حدث فيه . أو أن إضافة تمت حتى اللافتة التى تعلن بالخط العريض على إنشائه ما تزال موجودة كما هى .

فى الطريق شاهدنا البطيخ الكوتجو ، والبرتقال يبيعهما على القارعة رجل مسن وشاب ، ولم تكن الفاكهة الموجودة كبيرة الحجم أو العدد . استمر سيرنا

حتى وصلنا إلى الخزان فى الساعة الثانية والخمسين دقيقة ، والتقطنا بعض الصور ، كما اشتريت سمكا طازجا لأعطيه هدية إلى السيد الأنور ، وقد دفعت مبلغ أربعة جنيهات سودانية مقابل مايزيد على خمسة كيلو جرامات من السمك ، أى أن الكيلو لا يزيد على ستين قرشاً ، ولأول مرة أيضاً رأيت نوعاً من السمك لم أكن قد شاهدته إلا فى الصور إذ أنه تتدلى تحت رأسه كرة منتفخة تظل كذلك فى انتفاخها التام طالما كانت فى السمكة حياة وحينما ماتت انكمشت الكرة لتاصق بالرأس ، ولا يبدو لها أى أثر .

أثناء رحلة العودة اشتريت بطيختين من الكونجو سعر الكيلو ثلاثين قرشاً سودانياً كما اشتريت ثلاث دستات من البرتقال ، وهو يباع هنا بالدستة سعر ثلاثة جنيهات سودانية ، وطلبت من السائق أن يحتفظ بها حتى وصلنا إلى منزل السيد أنور فقدمت الجميع ، السمك والبطيخ والبرتقال كهدية ، قال السائق إن علينا أن نذهب أولا إلى الفندق حيث أن السيد أنور موجود فى الفندق وعلينا أن نمر عليه ثم نعود به إلى المنزل فلم نر بأساً من ذلك إذ أننا أيضاً كنا نريد أن نبدل ملابسنا

حينما ذهبنا إلى الفندق رأيت السيد محمد الأنور ، وقرر أنه استضاف أيضاً صديقنا الامريكى وزوجته وطفليهما وأننا سنذهب فوراً ، إستأذنا فى استبدال ملابسنا ، وفعلا تم ذلك ، وحينما هبطنا رأينا السيد محمد مستعداً ومعه البنتين قال إن الزوجين ذهبا لشراء بعض الهدايا ، وقد تركا له البنتين فكأنهما بذلك استغنيا عن جليسه لطفلتيهما وعلقا أمانتهما فى عنق السيد محمد . كان محرجاً منضرراً ، لكن لم يكن هنالك مفر .

وصلنا ، ومعنا الطفلتين إلى منزل السيد محمد ، وهو فيلا أنيقة يبدو أنها كانت فى وقت ما ملكا لأحد البريطانيين وقد أحدث فيها السيد أنور بعض التعديلات حتى تتلاءم مع الطابع الشرقى ، وتعرفنا على السيدة زوجته وهى سيدة لطيفة محترمه ، اخبرتنا بأن أحد والديها ، ولا أذكر أيهما مصرى .

رأينا أيضاً ابنته وهى طفلة ظريفة حاولت جهدها أن تلعب مع الطفلتين الأمريكيتين ولو أنها لا تعرف الانجليزية . تناولنا القهوة على الطريقة السودانية ، وشربنا عصيراً بارداً ، ومكثنا نتحدث كأمل زهاء الساعة ، ولم نرد أن نثقل عليهم أكثر من ذلك فاستأذنا فى العودة . وصحبنا السيد الأنور إلى الفندق ، ومعه البنتين الأمريكيتين .

أردت أن أدفع حسابى فى المساء لأن الطائرة كانت سوف تقوم فى السادسة والأربعين دقيقة ، ومعنى هذا أن نتواجد فى المطار فى حدود الخامسة والنصف ، أو قبل ذلك أردت أن أقوم أيضاً بتجربة فطلبت من السيد الأنور أن يصحبنى إلى مدير الحسابات فى الفندق فتفضل وفعل ، وحينما قابلت الرجل سألته قائلا إننى مصرى ، وأريد أن أسدد حسابى بالجنيهات المصرية ، فأجاب بما توقعت بأن الجنيه المصرى ليس له حساب فى السودان ؟ !

طلبت منه أن أدفع حسابى بالجنيه السودانى ، فأجاب بأنى يمكننى أن أفعل ذلك إذا أثبت أنى قد أبدلت دولارات عن الطريق الرسمى بقيمة تسمح بسداد الفاتورة . وحينما أجبته بأنى كمصرى يجب أن أعامل كالسودانيين ، قال إنه ليست لديه تعليمات بهذا ؛ ولما كنت فى الواقع لا أحمل جنيهات مصرية ، وكنت قد استبدلت فعلا ما يكفى من الدولارات بالطريق الرسمى ، لكى أدفع قيمة الحساب ، فإنى لم أعترض إنما أردت فقط أن أثبت هذه الواقعة حتى يعنى المسئولون عن التكامل بهذه النقطة .

شكرت السيد الأنور ، ودفعت حسابى ، وطلبت أن تعد لى سيارة أجرة فى الصباح المبكر . اتفقت مع السائق على أن يكون أمام الفندق فى الساعة الخامسة صباحاً وأن أجره لتوصيلنا إلى المطار عشرة جنيهات سودانية ..

٢٠/١٢/١٩٨٢

تركت السودان وفى قلبى حسرة . وفى حلقى غصة ، فقد كنت أود من كل جوارحى أن أضع أمام كل مصرى حقيقة إخوانه فى الجنوب ، ولعله يكفينى ما ذكرت من كرم السيد محمد الأنور ، والسيد على السيد والشيخ فضل الله الجملى ، وحب وبساطة الأطفال الثلاثة عند السبلوجة ، شفيق وعمر ومدينة ، ولعلى ربحت من هؤلاء أكثر مما يتصور البعض على أى الأحوال لنا عود وهذا وعد ، إن كان فى العمر بقية .

فى المطار تقابلنا مع صاحبنا الأمريكى سيمور وعائلته ، وكان قد أخبرنى أنه سوف يستقل الطائرة نفسها معنا إلى أديس أبابا فقط حيث سيمضون باقى الأجازة فى الحبشة وسألنى نصيحتى عن الأماكن التى يمكن أن يزوروها فأخبرته أن أهمها ما يسمى بالرحلة التاريخية وهى تشمل بحر دار ، وجندور ، ولاليبلا واكسوم وإن كنت لا أدرى إن كان سيسمح لهم بزيارة الأخيرة نظراً لوجود اضطرابات بها ، أو على الأقل هذا ما حدث بالنسبة لنا عند ما زرنا الحبشة فى السنة الماضية .

جمهورية تنزانيا الاتحادية

تتكون الجمهورية من اتحاد دولتين : جزيرة زنجبار ، وجمهورية تنجانيقا. وربما يكون من المستحسن أن اتكلم عن كل على حده .

(أ) تنجانيقـــا

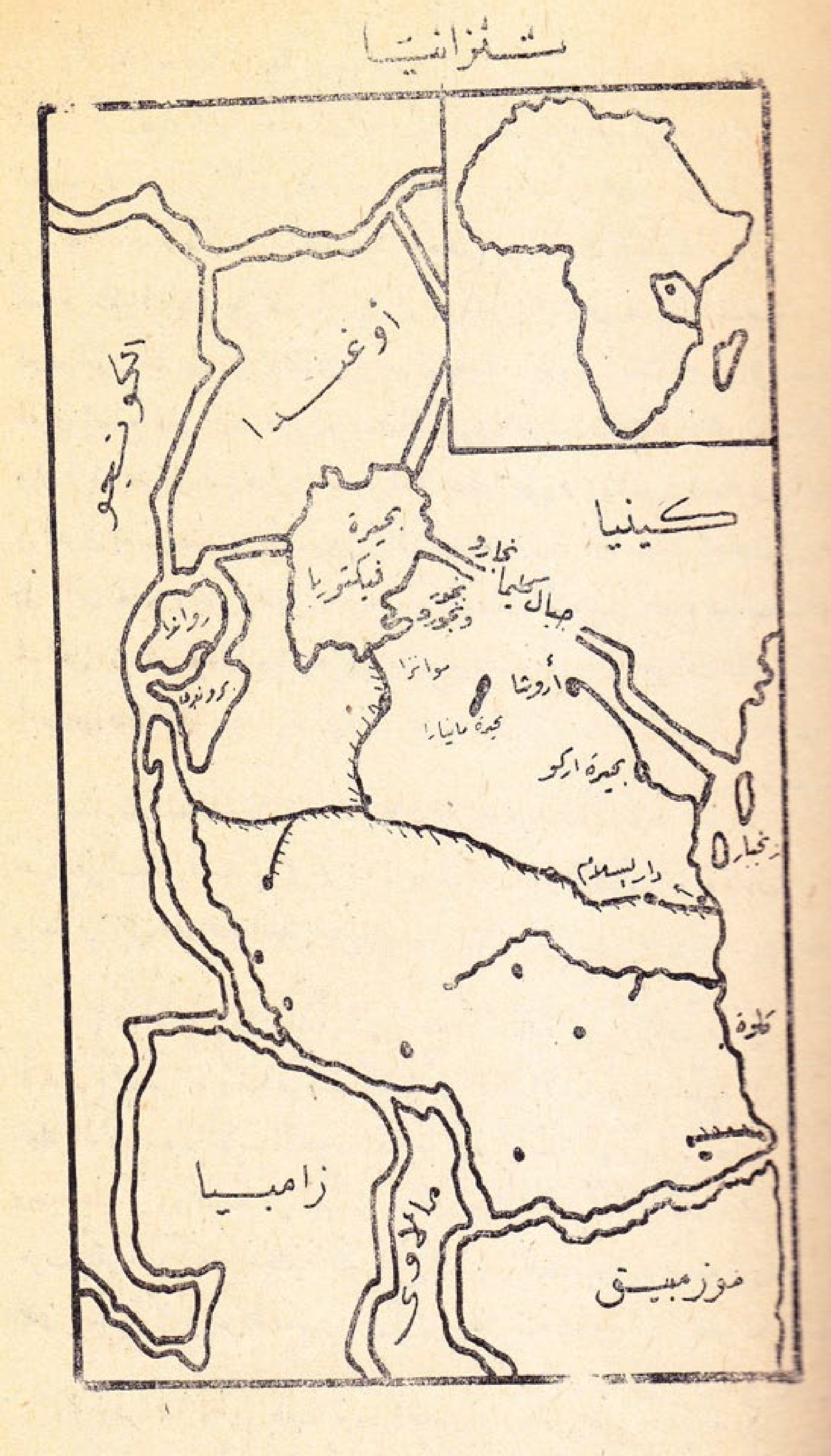
مساحتها ٣٦٢٫٦٨٨ ميلا مربعا، أو ٩٢٧٠٠ كيلومترا مربعا أى أنها أكبر أربع مرات من بريطانيا.

وعدد سكانها يزيد على أربعة عشر مليونا ، معظمهم من البانتو ، وبها أكثر من مائة وعشرين قبيلة ، ليس بينها من له الأغلبية الساحقة كالكيكويو فى كينيا مثلا وإن تكن قبيلة السوكومو تمثل ١٣ ٪ من مجموع السكان .

وليس معنى هذا أن الدولة منقسمة على نفسها فلديها رابطة قوية ربما أكثر من معظم الدول الأفريقية ألا وهى أن المعظم الساحق من الأهـــالى يتكلمون لغة واحدة هى السواحلية .

أما الأديان فهى الإسلام ، والمسيحية ، والوثنية بنسب غير معروفة تماما وإن كنت اعتقد شخصيا أن الأغلبية وثنية ؛ ثم يتفوق الإسلام خاصة على السواحل .

العملة المستعملة هى الشلن التنزانى ، والدولار يساوى تسعة شلنات ونصف تقريبا بالسعر الرسمى ، وأكثر من خمسة وخمسين بسعر السوق السوداء ، أى ما يقارب الستة أضعاف . والهنود والآسيويون كثيرون ، وهم الذين بأيديهم كل التجارة تقريبا ولعل ذلك كان من ضمن أسباب ارتفاع سعر الدولار فى السوق الحرة نظرا لشدة إقبال الهنود على شرائه .


تنزانيا
أوغندا
كينيا
الكونغو
بحيرة فيكتوريا
رواندا
بوروندي
جبال كليمانجارو
أروشا
بحيرة مانيارا
دار السلام
زنجبار
كلوة
زامبيا
مالاوي
موزمبيق

وتاريخ تنجانيقا مرتبط إلى حد كبير بتاريخ العرب ، وخاصة عرب عمان أولا ، ثم زنجبار ثانية . فقد كان العرب يفدون للتجارة تحملهم الرياح الموسمية الشمالية ، واستقر كثيرون على السواحل ، وأنشأوا محطات تجارية ثم تزاوجوا من الأهالى ، وما لبثت تلك المحطات أن أضحت مدناً ، شأن جميع الساحل الشرقى الإفريقى تقريباً . وفى أواخر القرن السادس عشر اكتشف البرتغاليون الطريق إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح ، ثم مالبثوا فى أوائل القرن السابع عشر أن طردوا العرب واستعمروا كل الساحل الشرقى لإفريقيا وإن لم يتوغلوا فى الساحل . استمر الحال هكذا حتى قويت شوكة العمانيين فى القرن الثامن عشر ، فاستردوا المدن الساحلية وطردوا منها البرتغاليين إلى رأس لجادو ، جنوبى نهر روفوما ، وكأنما باتفاق مسبق أصبح للعرب الساحل حتى تلك النقطة وللبرتغاليين ماوراء ذلك ، أو ماهو معروف الآن باسم موزمبيق .

استمرت المنطقة معتبرة من ممتلكات عمان ثم من أملاك زنجبار بعد ذلك حينما نقل السلطان سعيد مركز عرشه إليها فى سنة ١٨٣٢ إلى أن أتى الألمان واستولوا عليها بموافقة انجلترا سنة ١٨٨٥ .

حينما قامت الحرب العالمية الأولى كانت تنجانيقا مسرحاً للحرب بين الألمان وانجلترا ، ولما هزمت ألمانيا سلم القائد الألمانى بقايا جيشه إلى انجلترا . ووضعت الأمم المتحدة تنجانيقا تحت الوصاية ، وعينت انجلترا وصية عليها . وفى التاسع من ديسمبر سنة ١٩٦١ نالت استقلالها تحت قيادة حزب تانو ، أو اتحاد تنجانيقا الأفريقى الوطنى برئاسة جوليوس نيريرى الذى أصبح أول رئيس للجمهورية فى أول نوفمبر سنة ١٩٦٢ .

وفى يناير سنة ١٩٦٤ قامت ثورة زنجبار ، وانتهى نظام الحكم الملكى بها ، وفى أبريل من السنة نفسها تم الاتفاق على الاتحاد بين الدولتين

تحت اسم تنزانيا تحت رئاسة نيريرى ، وعبيد كاروما كنائب أول للرئيس ، ورشيدى كاراوا نائبا ثانيا .

٢٠ / ١٢ / ١٩٨٢ تابع —

توقفت الطائرة فى مطار الحبشة ، ولم يسمح للركاب الذين سوف يستمرون فى رحلتهم بالنزول . وودعنا صديقنا الامريكى وعائلته ، ثم أقلعنا إلى دار السلام لنصلها فى الساعة الواحدة والنصف . لم أكن قد حجزت فى أى فندق ، وحينما سألت عن الفنادق قيل لى إن أحسن اثنين هما نيو افريقيا ، وكليما نجارو . ومطار دار السلام صغير بالنسبة لحجمها إذ يزيد عدد سكانها على ثلاثمائة ألف نسمة ، وهو أيضا مطار غير نظيف ، وغير منظم ، والحقائب فيه تسلم من الخارج إلى الركاب باليد ، أى أنه لا يوجد سير متحرك توضع عليه . وكان تفتيش الجمرك سهلا غير معقد ، وانتهينا بعد ساعة من وصول الطائرة .

أكتريت سيارة أجرة ، وهى قديمة ، يرجع طرازها إلى أكثر من عشرة سنوات ، شأن جميع سيارات الأجرة تقريبا فى البلد ، والقيادة ، على الجهة اليسرى شأن جميع البلاد التى كانت تحتلها بريطانيا . أقلتنا إلى فندق نيو أفريقيا وهو يقع وسط البلدة ، لقاء مائتى شلن تنزانى . ومن النظرة الأولى تبدو البلدة واسعة ، والطرق جيدة الرصف ، كثيرة المبانى الحديثه ، وتشتد بها حركة البناء ، إلا أننا بعد أن مكثنا بها قليلا اتضح مدى الاهمال فى الصيانة .

أعطونا حجرة فى الجهة القبلية فى الطابق الثالث ، تطل على الشارع ، وكان التكييف معطلا فى حين أن الجو كان شديد الحرارة ، والرطوبة . تركت زوجتى بالحجرة لتعد الحقائب ، وذهبت إلى شركة سياحية ، تقع أمام الفندق مباشرة لأرتب زيارتنا القادمة ، وأكترى سيارة ، لكن صاحب الشركة

أنبأنى بأنه غير مستعد للاجابة على أسئلتى ، وأنه سوف يرتب لنا برنامجا للسياحة ، ويعرضه على فى الغد صباحا . تركته وذهبت إلى شركة مصر للطيران لتأكيد رحلتنا الدولية ، وهناك استقبلنى السيد مصطفى عبد الرحمن أمين ، مدير فرع الشركة وكان رقيقا إلى أقصى حد حتى أنه كلف أحد الموظفين بالتوجه معى فى صباح اليوم التالى إلى شركة طيران موزمبيق لتأكيد حجزنا التالى .

عدت بعد ذلك إلى الفندق، وأشار على موظف الاستقبال بأن أصعد إلى الطابق السادس، لأقابل السيد ملايو إن كنت أرغب فى السياحة داخل البلاد، فشكرته ذاكرا أنى قد كلفت فعلا شركة سياحية أخرى . وبهذه المناسبة أود أن أقرر أنى لاحظت أن كل أصحاب المتاجر، وشركات السياحة، بلا استثناء، من الهنود ، وذلك فيما عدا المنشآت الحكومية تناولنا عشاءنا فى الفندق، واستبدلت بعض الدولارات بالعملة المحلية من خزانة الفندق .

٢١ / ١٢

ذهبت فى الصباح إلى شركة السياحة ، وهناك قابلنى أحد أصحابها وقال إنهم لم يستكملوا بياناتهم بعد ، ورجانى أن أعود فى الساعة الثانية عشرة . ولما كنت قد تركت تذاكر سفرنا لدى شركة مصر للطيران لتأكيد الحجز إلى موزمبيق ، فقد ذهبت إلى الشركة لأرى ماذا فعلوا . لم يكن الحجز قد تم ، وحاول الموظف المختص الإتصال هاتفيا بشركة طيران موزمبيق لكنه لم يوفق ، فعرض على أن أرافقه إلى مقر الشركة، الذى لم يكن بعيدا، لإتمام تأكيد الحجز ، فوافقت وذهبنا إلى هنالك وأتممنا التأكيد .

كان ما يزال لدى متسع من الوقت قبل موعدى مع شركة السياحة، فرأيت أن أسأل شركة أخرى ، وفعلا ذهبت إلى شركة كيسلر ، وهى شركة جادة، وطلبت منهم أن أكترى سيارة لكن الموظفة المختصة قالت إن الطريق إلى

أروشا، حيث كنت أزمع الذهاب أولا ، غير مرصوف ، ومتعب ، وطويل وأشارت على باستخدام الطائرة إلى مطار كليما نجارو ، وهو أيضا مطار أروشا، ثم استخدام السيارة من أروشا، وبهذا أوفر الكثير من الوقت، والجهد ، والمال . طلبت أن تعد لى برنامجا لزيارة الحدائق المفتوحه فى تلك الجهات ، وذلك فى نجورونجورو ، وسيرانذا ، ولوبو ، وبحيرة مانيارا ، ووعدتها أن أعود لأطلع على ما فعلت فى اليوم التالى وإن وافقنى السعر ، والبرنامج ، فلا مانع عندى ، هذا إذا لم أكن قد تعاقدت مع الشركة السياحية الأخرى .

تركت شركة كيسلر وعدت إلى شركة السياحة الهندية، لكنهم لم يكونوا قد فعلوا شيئا ، فصرفت النظر عنهم ، وحينما عدت إلى الفندق أشار على كاتب الاستقبال للمرة الثانية ، بأن أقابل السيد ملايو فى الدور السادس مقررا أنه يستطيع أن يخدمنى ، فوعدته أن أفكر فى الأمر ، والواقع أنى لم أرمانعا من أن أسأله أن يقدم لى عرضا ، فان كان أحسن من كيسلر قبلته . تناولنا طعام الغداء، واسترحنا قليلا ثم أخذت سبيلى إلى الطابق السادس فاذا به تحتله شركة السياحة التنزانية ، وهى شركة حكومية . طلبت مقابلة السيد ميلايو فادخلتنى سكرتيرته ، وإذا هو أحد مديرى الشركة، وحينما أخبرته بما أريد وعدنى أن يعد لى برنامجا فى الغد فشكرته ، وعدت إلى حجرتنا . خرجنا بعد الظهر قليلا نتجول فى المدينة لكننا لم نمكث طويلا إذ أن المحلات تغلق الساعة الرابعة والنصف، وتكاد الطرقات والشوارع أن تكون خالية من المارة بعد هذا الوقت .

٢٢ / ١٢

فى الصباح ذهبنا ، زوجتى وأنا ، إلى شركة كيسلر ، وأعطتنا الموظفة المختصة العرض الذى وعدتنا به ، ولم يكن به بأس، إلا أنه كان مرتفع السعر

قليلا ، وينحصر فقط فى زيارة المناطق الشمالية من البلاد ، كما أن السفر كان يبدأ فى يوم ٢٤ صباحا بالطائرة إلى مطار كليما نجارو . وهو نفسه كما ذكرت مطار أروشا المدينة التى سوف تبدأ منها رحلتنا بالسيارة، وعدتها أن أراجع الكشف ، وأقارنه بالكشف الذى سيقدمه لنا السيد ماليو ظهرا . إتجهنا بعد هذا إلى سفارة موزمبيق لأخذ التأشيرتين على جوازى سفرنا حيث أنه لا توجد لها سفارة فى مصر .

أعطينا الجوازين إلى الموظف المختص فى السفارة، ووعدنا أن يكونا منتهين فى صباح اليوم التالى أمام سفارة موزمبين تماما ، رأيت مبنى سفارتنا فدخلت ، وقدمنا أنفسنا لموظف الاستقبال ، وقلنا إننا لا نريد شيئا ، وإنما هى مجرد زيارة مجاملة قادنا الموظف إلى حجرة الاستقبال، ثم بعد فترة حضر إلينا السيد مستشار السفارة ، ورحب بنا ثم قادنا بدوره إلى الطابق الأول حيث قابلنا السيد السفير محمود حلمى سعيد، وكان رقيقا معنا إلى أقصى الحدود ومجاملا . احتسينا معه قهوة مصنوعة على الطريقة المصرية ثم سألنا إن كنا فى احتياج إلى أية معونة . فأجبنا بالنفى شاكرين .

مكثنا حوالى نصف ساعة ، ثم تركنا السفارة إلى الفندق حيث صعدت زوجتى إلى حجرتنا ، وصعدت أنا إلى الطابق السادس . أدخلتنى السكرتيرة إلى السيد ملايو الذى قد أعد لنا نظاما للرحلة ، وحينما اطلعت عليه ، وجدت أنه يوافق رغباتنا مع تعديل طفيف ، فنحن لم نكن نستطيع الارتحال فى اليوم التالى إلى أروشا نظرا لأن علينا أن نتوجه إلى سفارة موزمبيق لاسترداد جوازى سفرنا ، وبالتالى نعدل البرنامج على أن يكون السفر فى يوم ٢٤ / ١٢ بدلا من ١٢/٢٣ . واستدعى ذلك إجراء تعديلات أخرى بسيطة .

عدت، بعد ذلك إلى كيسلر ، واعتذرت لها موظفة بأنى وجدت أن عرض السيد / ماليو أوفق بالنسبة لنا ، فقالت إنها كانت قد حجزت لنا على الطائرة التى ستقوم إلى مطار كليما نجارو بعد باكر ، وإنها ستلغى الحجز ، ولا أدرى ما الذى دفعنى أن أطلب منها عدم إلغائه حتى نتأكد من تنفيذ ماليــو للبرنامج ، وكانت لطيفة حينما أجابتنى إلى طلبى . ذهبت إلى الفندق بعد ذلك، وتناولنا طعام الغداء ، وعدنا إلى حجرتنا فاذا بالسيد ماليو يطلب مقابلتى وفعلا حضر إلى الغرفة ، وأفاد بأن كل شيء معد إن أردت تنفيذ البرنامج ، وأننا يمكننا الحضور إلى مكتبه فى صباح اليوم التالى لندفع مصاريف الرحلة وثمن التذاكر بالطائرة ، وتواعدنا على الساعة العاشرة صباحا .

١٢ / ٢٣

صعدت إلى الطابق السادس فى الموعد المحدد لكن السكرتيرة أخبرتنى أن السيد ماليو يعتذر لأن عملا طارئا إستدعى تخلفه ، وأنه سيأتى فى الساعة الثانية عشرة ، ولما كان على أن أذهب إلى سفارة موزمبيق لاستلام جوازى السفر ، فقد وافقت .

فى سفارة موزمبيق وجدت أن الموظف المختص قد نسى جوازى سفرنا فى مكتبه ، ولم يرسلها إلى القنصل لإعطائنا التأشيرة ، ولما كانوا جميعهم يتكلمون البرتغالية التى لا أعرف منها سوى بضعة كلمات، وكانوا هم لا يعرفون من اللغات الأخرى شيئا تقريبا سوى كلمات قلائل ، فإنى طلبت أن أخاطب القنصل لأشرح له ضرورة سرعة منحنا التأشيرة نظرا لاعتزامنا السفر إلى أروشا فى اليوم التالى ، وفعلا تخاطبت مع القنصل الذى وعد أن تكون التأشيرتان معدتان فى الساعة الثانية من اليوم نفسه .

كانت ما تزال هنالك ساعة تقريبا على موعدى مع السيد ماليو فقضيناها ،

زوجتى وأنا ، الوقت نجوب طرقات المدينة ، وتناولنا القهوة فى أحد المقاهى . فى الموعد المحدد ذهبنا إلى الفندق ، وقابلت السيد ماليو ، وأعطيته النقود وأعطاها بالتالى إلى أحد موظفيه ليقوم بسدادها ، وإحضار الإيصال ، وتذاكر السفر على الطائرة .

بعد حوالى الساعة عاد الموظف مقرراً أن الدفع فى أروشا ، وأنه لم يجد لنا أماكن فى الطائرة التى ستقلع غدا بعد الظهر .

هنا ذكرت للسيد ماليو أنى كنت قد حجزت مكانين لدى شركة كيسلر وأنى طلبت من الموظفة عدم الغاء الحجز حتى نتصل بها فطلب منى الذهاب واستلام التذاكر ، خاصة وأن حجز الفنادق فى أروشا وسائر الأماكن قد تم فعلا .

على ذلك ذهبت مع الموظف إلى كيسلر ، وهنالك وجدت أن الموظفة لم تلغ حجز التذكرتين ، فدفعنا ثمنها وشكرتها ثم طلبت من الموظف الذى أرسله ماليو أن يعتذر له ، مقررا أن على أن أذهب إلى سفارة موزمبيق لإحضار جوازى السفر ، وأنى سأمر عليه فى وقت لاحق ، أو فى اليوم التالى صباحا حيث أن موعد سفر الطائرة إلى أروشا بعد الظهر .

تناولنا طعام الغداء ، زوجتى وأنا ، ثم تركتهـــا لأذهب إلى سفارة موزمبيق ، وذكرت أنها سوف تتجول فى المدينة لتقوم ببعض المشتريات ثم تعود إلى الفندق ، فى الساعة الرابعة والنصف اى حين غلق المحلات ، ذهبت إلى سفارة موزمبيق وهنالك اتضح لى أن جوازى السفر لم يكونا معدين ، فتضررت جدا ، وفكرت فى الاستغاثة بسفارتنا ، إلا أن القنصل أكد لى أنهما سيكونان جاهزين فى أقل من ساعة ، ولما لم يكن لدى عمل آخر سوى

مقابلة السيد ماليو فى الفندق لإتمام آخر إجراءات رحلتنا فقد مكثت فى السفارة منتظرا حتى استلمت الجوازين فى حدود الساعة الثالثة .

ذهبت بعد ذلك إلى الفندق ، وصعدت لتوى إلى الدور السادس ، دون أن أمر على حجرتنا فى الطابق الثالث ، لمعرفتى أن زوجتى لن تكون موجودة . تقابلت مع السيد ماليو الذى أعاد لى باقى النقود ، قائلا إننى يجب أن أدفعها فى أروشا ، وذكر أنه تخاطب هاتفيا مع مدير فرع الشركة هناك واسمه السيد/ديزا ، وأنه سوف ينتظرنا فى مطار كليمانجارو ليصحبنا إلى فندق موفت ميرو . تركته فى حدود الساعة الرابعة وهبطت إلى حجرتنا فى الدور الثالث على أمل أن تكون زوجتى قد وصلت لكننى بعد أن طرقت الباب مدة لم أتلق ردا فنزلت إلى الاستقبال ، واتصلت ، بالحجرة هاتفيا عسى أن تكون موجودة ، ولم تسمع طرقاتى لسبب أو آخر ، لكن لم يرد على أحد ، وعليه ذهبت إلى القهوة الملحقة بالفندق ، وطلبت الشاى .

فى الساعة الرابعة والنصف أعدت الكرة بأن اتصلت هاتفيا بالحجرة ولم أتلق ردا . بدأ القلق يداخلنى حيث أن المحلات التجارية تغلق كما ذكرت فى الساعة الرابعة والنصف ، وتخلو الطرقات عادة من المارة بعد ذلك ، لذا سألت كاتب الاستقبال إن كانت هنالك مذكرة لى إلا أنه أجاب بالنفى . إستبد بى القلق ، وأنا أنظر إلى عقارب الساعة تتحرك مشيرة إلى الرابعة ، وأربعين دقيقة . كان هناك احتمال أن تكون زوجتى قد ابتعدت عن الفندق فى تجوالها فى المدينة ، وأنها بذلك سوف تستغرق وقتا فى العودة بعد إغلاق المحلات ، لكنى فى قرارة نفسى كنت أعلم أنها عادة لا تبعد كثيرا عن الفنادق الغريبة ، إلا حينما يكون معها مرافق ، لهذا لم أستطع الجلوس ، وداخلتنى الهواجس فخرجت من الفندق أجوس قليلا فى الطرقات المحيطة عسى أن أجدها آتية .

أضحت الساعة الخامسة ، ولا أثر لزوجتي ولم أستطع الانتظار أكثر من هذا فقررت أن أعود إلى الفندق فان لم تكن قد عادت فعلى أن أتصل بأقسام الشرطة ، والسفارة وأبدأ في البحث الجدي . دارت في مخيلتي احتمالات لاحد لها . ما يمكن أن تلاقيه سيدة وحيدة في بلد أجنبي . هل ضلت الطريق ؟ هل سرقت حقيبتها ؟ هل أصابها مكروه ؟ هذا ، وعشرات الأسئلة والاحتمالات تمر بمخيلة المرء ، وليس بينها احتمال واحد جيد .

حينما عدت إلى الفندق اتصلت ما فيا بحجرتنا ، ولا تسل عن مدى سروري وراحتي حينما ردت على زوجتي ، في لحظات تحول قلقي إلى راحة يمازجها غضب على زوجتي التي تسببت دون داع ، في اعتقادي ، فيما لاقيته .

من الاستقبال إلى المصعد ، ومن المصعد إلى حجرتنا ، وطرقت الباب ففتح . كنت على وشك أن أقذفها ببعض كلمات حادة حينما انعقد لساني دهشة لم تكن بمفردها ، وإنما كان معها سيدتان تنزانيتان . تمالكت نفسي ، ودخلت وابتدرتني كبرى الاثنين قائلة بالإنجليزية إنه لا داعي للانزعاج ، وأن الأمور على ما يرام .

وكان على بعد ذلك أن أستمع إلى قصة زوجتي . قالت إنها أخطأت اذ أرادت عبور الطريق وأمامها ، وهي معتادة على القيادة في الجهة اليمنى ، قد نسيت ذلك ، ولم تنتبه الى أن القيادة في تنزانيا إلى الجهة اليسرى ، وبالتالي التفتت في الناحية الخطأ ، وكانت النتيجة أن صدمتها سيارة ألقت بها على الارض ، ثم لم تتوقف ، وانطلقت .

شاهدتها السيدتان وهي ملقاة والدماء تنزف من رأسها فأخذتاها إلى إحدى المستشفيات العامة ، واتضح أن بمؤخرة رأسها جرحا مستطيلا احتاج الى خياطة ، واما عدا ذلك فلم يتعد مجرد الكدمات ، والسجحات في الذراع ، والساق . سألتها إن كانت تشعر بالألم في رأسها بالذات ، فأجابت بأنها آلام عادية ليس

قيا ما بخيف . ولما أستفسرت منها عما إذا كانت قد رأت السيارة التى صدمتها أجابت بالنفى، وقالت إنها تظن أن سيارة السيدتين هى التى صدمتها ، وإن لم تكن متأكدة. على أى الأحوال شكرت السيدتين على ما قامتا به ، فحتى إن كانت سيارتهما هى التى تسببت فى الحادث فعلى الأقل لم تتركا زوجتى جريحة وتفران ، وان لم تكونا هما المتسببتان فإن صنيعهما مضاعف .

تركتنا السيدتان ، وهبطت معهما إلى كاتب الاستقبال ، وسألته عما إذا كان هنالك أطباء نستطيع الاتصال بهم ، اذ أننى كنت غير مطمئن الى أعمال المستشفى العام . أجاب الكاتب بأنه لا يوجد أطباء بعد الساعة الرابعة والنصف إلا فى الاسعاف ، والمستشفى العام ، وان للفندق طبيبا لكنه لن يكون موجودا قبل الساعة التاسعة من صباح الغد . عدت إلى حجرتنا

فوجدت أن زوجتى قد تناولت مضادا حيويا كانت المستشفى قد صرفته لها ، كما أخذت من صيدليتنـــا الصغيرة حبوب الأسبرين ، واستلقت على الفراش تستريح . حمدت الله على نعمائه ، فمن الجلى أن الاصابة كانت بفضله تعـــالى غير خطيرة ، كما أنه لم يسرق منها شىء ، مع أنه كانت معها أغلب نقودنا .

١٢ / ٢٤

لم تكن زوجتى قد استراحت تماما فى نومها نظراً لأن السلك الذى خيط به الجرح كان يضايقها .

والواقع أنه استمر كذلك لبضعة أيام ، تناولنا أفطارنا ، وصحبتها معى الى طبيب الفندق الذى كشف عليها ، وطمأننا على أن الخياطة جيدة ، وأن الجرح نظيف ، وأعاد الغيار على الجرح ، ثم كتب دواءين لم يزيدا على مضاد حيوى ، ومسكن للالام ، أشتريتهما من الصيدلية المقابلة للفندق .

سألت زوجتي إن كانت تريد أن تغير برنامج الرحلة لكي تستريح لبضعة أيام في دار السلام حتى يلتئم الجرح، ويفك السلك، فأجابت بالنفي مقررة أن ما تشعر به لا يزيد على ألم خفيف لن يعوقها عن الحركة، أو يتطلب راحة خاصة، ولما كنت قد سألت الطبيب عن إمكان تحركها فأكد أن لا خطورة في ذلك مطلقاً، فإنني صحبتها إلى الحجرة، وطلبت منها عدم الحركة طوال اليوم حتى يحين موعد الطائرة.

لم نتحرك تقريبا بعد ذلك من الحجرة. أعددنا حقائبنا، ووضعت إحدى الحقائب في أمانات الفندق لحين عودتنا، وفي موعد الغداء، هبطنا إلى قاعة الطعام، ثم عدنا إلى الحجرة لتستريح زوجتي. في حدود الساعة الثالثة حضر إلينا سائق من طرف السيد ماليو، ودفعت حسابنا في الفندق، واتجهنا إلى المطار. أقلعت الطائرة في الساعة الرابعة وأربعين دقيقة وهي بوينج ٧٣٧. ووصلنا إلى مطار كليمانجارو قبل السادسة بقليل. ومطار كليمانجارو صغير، لكنه نظيف، وأكثر نظاما من مطار دار السلام، وهو أيضا مطار دولي يستقبل الطائرات الدولية.

أثناء وقوفنا في انتظار الحقائب اقترب منا شخص وذكر اسمي، ولما أجبته قال إن السيد ريزا ينتظرنا في الخارج ليقلنا إلى الفندق. بعد أن استلمنا الحقائب استقبلنا السيد / ريزا مدير فرع الشركة السياحية في أروشا وهو شاب في الحلقة الرابعة من عمره، وأخذنا إلى سيارة فولكس واجن ميكروباس — وانطلقنا في الطريق إلى أروشا. بعد حوالي خمس دقائق تفرع الطريق إلى فرعين أحدهما اتجه إلى جبل كليمانجارو، وكنا نراه على بعد، والآخر إلى جبل ميرو حيث توجد مدينة أروشا، وحيث فندق مونت ميرو الذي سننزل فيه.

والمدينة على بعد حوالي خمسة وعشرين كيلو مترا من المطار، والطريق

سيد، مسفلت، ومعظمه يمر فى وادى لا زرع فيه، ولم تبدأ المزروعات إلا قبل المدينة بحوالى خمسة كيلو مترات، أو ستة، ومعظمها للموز. وصلنا إلى الفندق بعد السادسة والنصف. وهو فندق جميل ضخم يقع خارج المدينة، ويبعد عنها بحوالى كيلومتر واحد، وبالفندق حمام للسباحة، وملحق به مساحة واسعة للجولف، وركوب الخيل، كما أنه من الناحية الاخرى يطل على جبل مير والمتسامى، وكانت حجرتنا جميلة هادئة تطل على حمام السباحة، وملعب الجولف من ورائه وبها شرفة كبيرة.

تركنا السيد ريزا بعد أن رفض أن يأخذ النقود مقابل الرحلة مقررا أنه سيعود إلينا فى الصباح التالى، بعد أن يكون قد أعد السيارة التى سوف تستقلها فى رحلتنا إلى الحدائق المفتوحة، كما ذكر أن فى ذلك مشكلة إذ أن جميع سيارات الشركة مشغولة نظراً لاننا فى موسم الاعياد، لكنه سيحاول أن يرتب لنا بشكل ما سيارة. لم تتعب الرحلة زوجتى ولله الحمد، وتناولنا عشاءنا مبكرين، وآوينا إلى الفراش.

٢٥ / ١٢

لم يحضر السيد ريزا فى الصباح المبكر كما وعد، وإنما حضر فى حدود الثانية عشرة، وذكر أنه لم يستطع أن يعد لنا سيارة، ثم قال إنه اتفق مع شركة سياحية، اسمها: «بوبى تورز»، وصاحبها هندى يدعى مستقلى يوسف خاطرى على أن يقوم هو بالرحلة بدلا من الشركة الحكومية ناشيونال تورز. لم يكن أمامى أى خيار بعد أن قطعت هذه المسافة، وأسفت إذ لم أستفد من عرض شركة كيسلر فى دار السلام. اضطررت أن أذهب مع السيد ريزا إلى اروشا، وهى بلدة صغيرة وإن كانت طرقها واسعة، وحديثة، وهناك قابلت السيد مستقلى الذى طلب مبلغا كبيراً، وبعد بعض المناقشة قبل تخفيضاً خفيفاً، ولم يكن لدى مندوحة من القبول.

تركته على أنه سوف يعد لنا السيارة اتفاقنا فى الساعة العاشرة من صباح اليوم التالى لنبدأ رحلتنا ، وقضينا بقية اليوم فى الفندق . والواقع أنى ، وإن كنت قد تضررت من التأخير ، والتلاعب ، إلا أنى من ناحية أخرى رأيت أن فى ذلك فائدة إذ أنه يعطى زوجتى فرصة أكبر للراحة ، وفعلا قضينا الوقت بين غرفتنا وردهة الفندق ، والمطعم ، ولم تشك زوجتى من أى تعب .

١٢ / ٢٦

استيقظنا مبكرين ، وأعددنا الحقائب ، ومكثنا فى حجرتنا إلى الساعة العاشرة ، وانتظرنا مكالمة من السيد / مستقلى يوسف خاطرى . وفى الساعة العاشرة وعشر دقائق ، دق جرس الهاتف وأخبرنا السيد خاطرى ، أنه يضع اللمسات الأخيرة ، وأنه سوف يتأخر حوالى أربعين دقيقة . نزلنا إلى قاعة الاستقبال فى الفندق وجلسنا ننتظر حضور السيارة كما قمت بدفع حساب الفندق ، حيث أن شركة الناشيونال تورز قد رفعت يدها من الموضوع ، وإن كنت قد استفدت من نسبة الخصم المعطاة لها ، وقد أكرمنى السيد عبد الرحمن الصراف بتطبيقها .

جلسنا ننتظر حتى تعدت الساعة الحادية عشرة والنصف ، ولما لم تحضر السيارة اتصلت بشركة السياحة فرد على السيد خاطرى قائلا إنه يعد الوقود للسيارة وطلب مهلة نصف ساعة أخرى . وسألت موظف استقبال الفندق عما إذا كانت هنالك أزمة فى الوقود إذ أنى لم ألحظها أثناء وجودى فى تنزانيا ، فأجاب بالإيجاب مقررا أن الأزمة تشتد خاصة فى أيام العطلات .

تناولنا الغداء وكان على نظام الطعام المفتوح ، ومن ضمن المعروض لحم الحمار ، الوحشى ، والتوبى ، وهو نوع من الغزال . وقرر لنا مدير شركة يوب تورز أنه لن يحضر إلا بعد الغداء ، وفى الساعة الثانية حضر السيد ريزا وقرر

أن السيارة جاهزة وأخبرت أنها تابعة لشركة ناشيونال تورز وهي شركة بنت شركة T . T . C ؟ وفي الساعة الثانية والثلث تركنا الفندق ليملأ السائق السيارة بالوقود مع أن السيد خاطرى قال إن سبب التأخير هو البترول . لكن اتضح أنه لم تكن لديه سيارة ، وأنه استأجرها من ناشيونال تورز . دخلنا جراج ناشيونال تورز ووجدت به أكثر من خمسين سيارة معظمها ، خمسة وثلاثين منها على الأقل ، جاهزة للرحيل . ملأ السائق الخزان بالوقود ، وفي الساعة الثانية والنصف قادنا إلى خارج اروشا . كانت الشمس ساطعة وإن كان هنالك بعض السحاب في السماء . والطريق مسفلت ولا بأس به ، والخضرة في كل مكان ، حتى التلال خضراء ، لكن الزراعة قليلة نادرة بل تكاد أن تنعدم ، فلم نر في الطريق سوى ضيعتين لكنيستين بجور أروشا ، أما سائر الأرض فأعشاب ، ومروج ، وأشجار ، كما رأينا بعض الخراف ، والأبقار ترعى .

في الساعة الثالثة ابتدأ الطريق يتكسر وكثرت به الحفر . مع هذه المساحات الشاسعة من الحشائش ، ومع ندرة قطعان الماشية ، وانعدام السكن تقريبا ، فإننا لم نر حيوانات متوحشة ، حتى ولا الغزلان . وفي الثالثة والربع شاهدنا بعض النعام ، والكثير من تجمعات الطيور ، ثم مرة أخرى بعض النعام ، ثم عاد اختفاء الحيوانات . وفي الساعة الرابعة وصلنا إلى قرية صغيرة عندها ملتقى وعلامة تدل على أن نجورونجورو هدفنا تقع على بعد ٩٦ كم .

أضحى الطريق بعد البلدة غير مسفلت ، وإن كان ممهدا ، إلا أنه يبدو أن الأمطار قد هطلت عليه بشدة . على بعد رأينا جبال ، نجورونجورو وهي مقصدنا حيث يوجد بها نجورونجورو كريتر ، أو باطية نجورونجورو . إبتداء الطريق في الارتفاع المستمر ، ولم نر أية حيوانات حتى مررنا ببلدة كبيرة أنسيت أسمها . وبعد ذلك رأينا بعض البابون في الطريق ولم تأبه بالسيارة ،

ولا راكبيها ، بل أنها لم تلق بالا إلى بعض الأهالى الجالسين فى جانب الطريق على بعد يسير منها . حدث الشيء نفسه بالنسبة لنعامات ثلاث كانت ترعى على بعد يسير من الطريق حينما مرت بها سيارتنا ، فلم تفر هاربة كعادة النعام ، وإنما استدارت ، وأعطتنا ظهورها ، وسارت متمهله ، ولا يفوتنى أن أذكر أنها كانت بالغة الضخامة ، وأن ألوانها جميلة ، إحداها سوداء ، واثنتان بنيتان ، وقد قال السائق إن السوداء ذكر ، والبنيتان أنثتان .

واصلنا السير ، واستمر الطريق فى الارتفاع إلى حوالى ثلاثة آلاف قدم ، وابتدأنا نشعر بالبرودة ، ويجب أن أذكر القارىء أننا فى نصف الكرة الجنوبى ، أى أننا فى منتصف الصيف ، وديسمبر هنا يقابل يوليو عندنا . تحتنا إمتدت مساحات شاسعة من الأراضى حتى الغابات ، وشاهدنا كذلك بحيرة مانيارو . توقفنا قليلا لالتقاط بعض الصور ، ثم واصلنا السير صاعدين الجبل . كنا فى حوالى الخامسة مساء ونحن على ارتفاع خمسة الاف قدم تقريبا ، وشاهدنا زوجان من الجاموس الوحشى ، وهو حيوان حتى الأسد يتردد فى مهاجمته . بعد قليل وصلنا إلى مدخل الحديقة المفتوحة ، ودفعنا أربعين شلنا عن كل شخص كرسم دخول عدا ، مائة وعشر شلنات للسيارة ، وسائقها ، وقد تحقق الموظف المختص من أننا كاجانب قد استبدلنا بعض الدولارات بالعملة المحلية . كانت الساعة قد بلغت السادسة تقريبا ، ونحن على ارتفاع ستة آلاف قدم ، واشتدت البرودة ، ولما كنا مرتدين ملابس صيفيـة ، فقد تزايد إحساسنا بالبرد .

فى الطريق شاهدنا بعض أفراد من قبائل الماساى ومعهم قطعانهم ، وهم منتشرون فى كينيا ، وتنزانيا الشمالية . دهشنا ونحن على هذا الارتفاع إذ رأينا قطيعا من الأفيال لا تبعد عن الطريق بأكثر من عشرين مترا ، إلا أنها حينما رأتنا لم تعرنا أية أهمية ، والتقطت لها بعض الصور .

فى السابعة وصلنا إلى نزل نجورونجورو على ارتفاع سبعة الاف وخمسمائة قدم ، وأعطينا الحجرة رقم ٤٧ وهى تطل مباشرة على الوادى وبه بحيرة صغيرة تحوطها الغابات ، والمراعى . كانت الحجرة تقع على الحافة عند رأس الجبل تماما ، وتطل على الوادى كما ذكرت ، وكنا نرى من النافذة العريضة الوادى وهو محصور بين سلسلة من الجبال ، ولا منفذ له مطلقا ، إلا من خلالها ، وبالوادى بحيرات صغيرة ، ومراعى شاسعة وغابات مترامية . وربما كان ما يضفى على المنظر جمالا أخاذا هى تلك السحب المتناثرة التى تقع تحت النافذة بأكثر من الفى قدم ، وكنا نراها وهى تسبح مع الهواء ، وتلقى ظلالها على الوادى بخضرته البديعة .

والفندق مبنى جميل كان الإنجليز قد بنوه وقت أن كانت تنزانيا تحت وصايتهم ، ثم استولت عليه الحكومة بعد استقلال البلاد فى سنة ١٩٦٤ ؛ ولا بأس بإدراته إذا لم يفقد نظافته ، كما أن الطعام به جيد . تناولنا العشاء فى الساعة التاسعة إلا ربعا واتجهنا إلى حجرتنا فى التاسعة والنصف لأنه كان علينا أن نستيقظ فى الصباح فى الساعة السادسة والنصف حتى نبدأ جولتنا فى الغابة ، والأحراش ، فى الثامنة والربع حيثما تنتظرنا سيارة لاندروفر .

١٢ / ٢٧

استيقظنا فى الساعة السادسة ، وفى الثامنة كنا قد حزمنا أمتعتنا ، وتناولنا أفطارنا ، وجلسنا ننتظر السائق الذى حضر فى الثامنة والربع . أخذ أمتعتنا معه ، حتى لا نضطر إلى العودة إلى الفندق وقرر أنه أيضا سوف يأخذ غذاءنا لتناوله فى الطريق إلى حديقة سيرنجتى بعد أن نقوم بجولتنا فى انجورونجورو .

رحب بنا سائق اللاندروفور التى كانت فى انتظارنا لتأخذنا فى جولتنا والسائق اسمه موانيا الفا ، وجلست زوجتى إلا جانب السائق فى حين جلست أنا وراءهما لسهولة استعمال الكاميرات ، والفيديو كاميرا ، وأيضاً لأن

إصابة زوجتى فى رأسها من أثر الحادث كانت تؤلمها مع اهتزازات السيارة. بدأنا نسير، وكان الطريق وعرا فى مبدأ الأمر ولا يكاد يسمح الا بمرور سيارة واحدة، وأحد جانبى الطريق المرتفع الجبلى فى حين أن الآخر هوة تسقط آلاف الأقدام، ولا أعتقد أنى، على كثرة ما مر بى من طرق وعرة قد شاهدت طريقاً أوعر من هذا الطريق، ولا أكثر انحناءات منه، وقد امتلأ بالحفر، والصخور التى لابد انها تسقط بصفة مستمرة أثر الأمطار الشديدة فى بعض الاحيان. فى كثير من الاحيان كان الهبوط يكاد أن يكون رأسيا فتهبط السيارة عشرين قدما فيما لا يزيد على أربعين مترا أو خمسين من الطريق. إذا أضفت الى هذا ما سبق أن ذكرته من وعورة الطريق، وعدم تعبيده، وضيقه، وكثرة انحناءاته، وان اى خطأ، أو حادث لعجلات السيارة يمكن أن يؤدى إلى أن تهوى بركابها آلاف الامتار، لعلمت أية مخاطرة، وأى تعب فى الرحلة.

بعد أكثر من نصف ساعة من هذا النصب، وصلنا إلى حافة الوادى، وكان أول ماصادفنا وعول ذات شعر طويل تحت الذقن، ومرتفعة البنية تقارب الأفراس شكلا، وهى المسماة جنو. لقينا بعد ذلك على بعد أمتار زوجان من الثيران الوحشية، وهى حيوانات ضخمة بادية الشراسة، والغباء. على بعد أشار الينا السائق/الدليل إلى سيارات لاندروفر أخرى وذكرأنها لا بد متجمعة حول الأسود.

اتجهنا إلى هنالك لنرى أسدا ضخما يرقد فى الشمس بمفرده وهو ينظر، ربما باحتقار، إلى الذين جاءوا يزعجونه فى عرينه. قريباً منه اتجهت السيارة لنرى مجموعة من زوجاته، والأشبال ربما يتجاوز عددها العشرة. التقطنا ماشئنا من الصور، ولعلنا فى بعضها لم نكن نبتعد بأكثر من عشرة أمتار عن الأسود

ولعل أحسن ما تتميز به اللاندروفر أن سطحها يمكن أن يفتح ليقف الإنسان ويلتقط ما يشاء من الصور بعد أن أخذنا كفايتنا اتجهنا إلى منطقة أخرى حيث توجد قطعان كبيرة من الوعول gnu ،والثيران الوحشية ، وغزلان طومسون،وجرانتس ، والحمر الوحشية . في الطريق اليها رأينا فيلين ضخمين ، وعلى بعد كنا نرى بحيرة صغيرة ضحلة قرر السائق أنها تمتلىء بالمياه في موسم الأمطار ، وقد غطى سطحها عشرات الآلاف من طيور الفلامنجو . شاهدنا أيضا ابن آوى يأكل من بقايا أحد الوعول ، الجنو .

التقطنا ما شئنا من الصور ، وانتقلنا إلى منطقة أخرى حيث شاهدنا عائلة أخرى من الأسود ، وأخذنا نراقبها تلعب مع بعضها ، في حين تجلس الأمهات بعيدا ، ربما تلعق إحداهن جروا صغيرا،أما رب الاسرة ، واحدى الأمهات ، ويبدو أنها الأم الرئيسية ،فقد تمددا تحت أشعة الشمس بمفردهما وإن كانت الأشبال سرعان ما انتقلت اليهما . من يرى هذا المنظر الهادىء لا يتصور مطلقا مدى القوة ،والوحشية التى تكمن فى هذه الحيوانات . ولكى يزداد المنظر سكينة وألفة ترى على بعد لا يزيد على مائة متر بعض الغزلان تلهو ، وتقفز فى أمان ، ولا عجب فى ذلك إذ أن الأسود لا تفترس إلا وهى جوعى ، على عكس الإنسان .

اتجهنا بعد ذلك إلى البحيرة الضحلة،وشاهدنا طيور الفلامنجو،النحام ،وهى التى نعرفها باسم البشاروش ،والتقطنا بعض الصور ، ثم اتجهنا إلى بحيرة أخرى عند سفح الجبل،ورأينا فى الطريق قطعانا كبيرة من الثيران الوحشية ،وبعض الأفيال تستظل بالأشجار . كانت المساحة جميعها حتى الآن مجرد حشائش ، ومراعى لا توجد بها شجرة واحدة، لكننا رأينا أننا نقترب من الغابة وكانت الأفيال أول ما شاهدنا من الحيوانات فيها ، كما رأينا كثيرا من الأوز المصرى فى المستنقعات حول الغابة .

فجأة أشار السائق إلى جهة عشبية عند الحافة أيضا قائلا إنه يرى وحيد القرن ، وفعلا رأيناه، واتجه بالسيارة نحوه وكانت أنثى هائلة الحجم تزن

قرابة طنين شهباء اللون ، أو ربما كان لونها حائلا نظرا للون الوحل الذى تحب أن تتمرغ فيه .

كان للأنثى قرنان طويلان ، ولعلها المرة الأولى التى رأيت فيها قرنين طويلين لهذا الحيوان ، إذ عادة لا يوجد سوى قرن واحد طويل ، وربما قرن آخر قصير جدا . مع الأنثى شاهدنا ابنها، ولا يعنى هذا أنه ضئيل الحجم وإنما كان يزيد وزنه على نصف طن ، كما أنه كان ذا قرن واحد ، وعلى ظهر الحيوانين كان يقف الطائر كيتو أو ايجرت ، ويقفز من مكان إلى آخر من الجسم ، وهو طائرة يلتقط الحشرات من جسد الحيوان ، وله فائدة أخرى هو أنه ينبهه إلى الخطر إذ أن نظر وحيد القرن قصير جدا ، لهذا كان تحمله عجيبا لحركات الطائر ، الذى ربما وقف على وجهه ، وأنفه .

تحولت بنا السيارة إلى مكان صخرى ، وبين الصخور لاحظنا كهفا ذا مدخل صغير وقد رقد أمامه ضبع ضخم الجسم لم يتحرك من مكانه حين رآنا وإن ظل يراقبنا بحذر . رأينا ضبعا آخرا وقد أنطلق يجرى مبتعدا نحو الغابة والأشجار .

إتجهنا إلى البحيرة تحت سفح الجبل ، ورأيت أحد الأفيال يغتسل وهو منظر لطيف ، كما رأينا الكثير من الأوز المصرى ، لكن فرس النهر ، سيد قشطة ، وهو الهدف من مجيئنا إلى البحيرة، لم يظهر ، وكل مارأيناه منه هى الرؤس فوق سطح المياه اذ كان الجو حارا . دخلنا الغابة بعد هذا وكان أول ما صادفنا هى مجموعة البابون التى هرولت مختفية بين الأشجار، والبابون، خلافا للنسانيس، لا تستعمل الأشجار إلا نادرا وحينما تكون مضطرة، أما عادة فهى تسير على الأرض .

بعد أن قضينا فترة فى الغابة شاهدنا مجموعة من النسانيس تقفز على الأشجار بحركاتها المتناهية الرشاقة ، كما رأينا مجموعة فريدة من الطيور ذات الوان

زاهية، اذكر أن أحدها جمع الأزرق الزاهى، والأبيض، والأصفر، والأحمر، والأسود بتنسيق بديع .

كانت الساعة قد بلغت الثانية عشرة وكان علينا أن نعود من طريق آخر لنصعد الجبل حيث نلتقى مع سائقنا الأصلى والسيارة . لقد ذكرت سابقا أنى لم أر فى حياتى طريقا أوعر ولا أخطر من الطريق الذى سلكناه عند الهبوط من الجبل ، ويبدو انى كنت متفائلا اذ أن طريق الصعود كان مثله ، ويزيد عليه قليلا . فالأول كان جميعه صخريا تتخلله الاحجار غير المنتظمة، اما هذا فقد كان فى بعض أجزائه طينيا، والحمد لله أنها لم تكن كثيرة إذ يمكن تصور انزلاق العجلات فى هذا الارتفاع ، وهذا الطريق الضيق المتعرج ، خاصة وأن السماء يبدو أنها كانت قد أمطرت فى الليله السابقة والطين مايزال موحلا .

أخيرا وصلنا إلى قمة الجبل حيث كان ينتظر السائق، وكانت الساعة الثانية عشر ومن ثم بدأنا رحلتنا إلى فندق سيرونيرا Seronera فى الحدائق المفتوحة المسماة سيرنجتى Serengeti . اتخذنا طريقا آخرا غير الذى أتينا منه من اروشا متجهين إلى الشمال الغربى . كانت السماء صافية حينما ابتدأنا الرحلة ، وفى الواقع انها ظلت كذلك كل الطريق فيما عدا بعض الرذاذ الخفيف ، لكنها من الواضح كانت قد أمطرت بشدة فى الجزء قبل الاخير من الرحلة لأن الطريق كان طينيا زلقا إلى حد بعيد .

لم تصادفنا حيوانات فى مبدأ الأمر سوى ابقار ؛ وماعز ، وخراف ، وحمير الماساى، كما صادفنا الكثيرين من أهل القبيلة، نساء، ورجالا، وأطفالا ، أذكر منهم ثلاث فتيات كن يرقصن على قارعة الطريق استجلابا للهبات ، ورقصهن لطيف ، فهن يرتدين حرملة زاهية الالوان ، ويرفعن رؤسهن ، ويخفضنها فى حركة رتيبة تهتز معها صدورهن التى تبدو عارية حينما يرفعن

رؤسهن ، وترتفع معها الحرملة أو الكولة ، وتختفى حينما تنخفض رؤسهن وتنخفض الكولة لتغطيها .

كان أول ماصادفنا فى الطريق بعد أن خرجنا من حدائق نجورونجورو ، الزراف ، طويل ، وضخم يبدو ماتراه فى حدائق الحيوان قصيرا هزيلا بالنسبة له . وفجأة ابتدأت الحيوانات المتناثرة تظهر ، الوعل gnu والحمر الوحشية ، والغزلان . لن يصدقنى أحـــد حينما أقول إن قطعانها وصلت إلى عشرات الآلاف ، وأن هذه الاعداد هى ما كنا نشاهدها فقط على الطريق ، وفى بعض الأحوال كنا نراها تغطى الافق تماما . اننى أقول عشرات الآلاف خشية أن أتهم بالمبالغة ، لكننى لو أنصفت لقلت مئات الآلاف ، لم تكن فى هذه المنطقة فحسب ، وإنما كانت على طول الطريق .

لقد رأيت أعدادا كبيرة من هذه الحيوانات ، خاصة فى كينيا ، لكنها بالنسبة لما رأيته حتى الآن لا يزيد على قطرة فى بحر . قطعان تتالى وراء بعضها ، مايكاد احدها ينتهى حتى يبدأ قطيع آخر . فى الساعة الواحدة والنصف أوقفنا السيارة بعيدا عن الطريق إلى جوار أحد هذه القطعان ، وتناولنا غداءنا من الصندوقين اللذين اتى بهما السائق معه من النزل فى نجورونجورو ، وحينما انتهينا استأنفنا سيرنا فى الساعة الثانية تقريبا مخترقين سهول خانق أولدفاى .

لم تنقطع قطعان الحيوانات ، وإن أمكن ربما تكون أعدادها ازدادت . والطريق غير مسفلت إلا أنه لا بأس به ، وبالمقارنة لما شاهدناه ، كان سهلا ممهدا ، عريضا ، أوعلى الأول كانت تحيط بنا السهول . فى الطريق أيضا رأينا الكثير من الطيور الضخمة ، أخص بالذكر منها الطائر السكرتير ، الذى يندر وجوده عامة ، والآلاف أخرى من الطيور الضخمة لا أذكر أنواعها للاسف ولا أعرفها ، منها نوع طويل القامة رفيع كتلك التى رأيتها فى فندق ماونت

ميرو أى جبل ميرو ، ويسمى الهيرون الرمادى ، وطعامه الأسماك ، والثعابين .

فجأة إبتدأ الطريق يوحل حتى أننا إضطررنا أكثر من مرة إلى الخروج منه والدخول فى الأحراش . أختفت ، الحيوانات ، وكذلك الطيور ، وفى الطريق شاهدنا عربتين لا تستطيعان التقدم وقد غرزتا فى الوحل ، وطلبت من السائق التوقف ، ومساعدة السائقين ، وفعل ذلك حتى أخرجهما من ورطتهما وسارا بعد ذلك أمامنا فترة ثم أوحلا ثانية .

وهنا تقدم سائقنا بسيارته حتى تعدى السيارتين ومر من المنطقةالموحله ثم توقف وعاد إليهما ليخرجهما من مأزقهما وبعد ذلك سارا خلفنا .

فى الساعه الرابعة وصلنا إلى بوابة الحدائق المفتوحة سيرنجيتى ، وبذلك انتهينا من حدائق نجورونجورو . عند البوابة دفعنا مائتين وأربعين شلنا عن ثلاث ليال ، أنا وزوجتى ، بواقع الفرد أربعين شلنا عن كل ليلة إذ أننا كنا نعتزم الإقامة ليلتين فى سيرونيرا ، وليلة ثالثة فى فندق لوبو ، على بعد حوالى ستين كيلو مترا . إرتحلنا فى الطريق إلى بغيتنا، والقيادة تزدادصعوبة من كثرة الطين حتى وصلنا إلى الفندق فى الساعة الرابعة والنصف تقريبا . والفندق نفسه مقام على تكوين صخرى ضخم أبدع المهندس فى إستعمال الصخور كديكور للزينة ، فأنت وسط حجرة الاستقبال مثلا ترى الصخور النائتة،وفى الصعود إلى الحجرات درجات صخرية ،وحيث لا تلتئم الصخور مع بعضها ، أو تتناسق يكملها ،بالأخشاب ، وأحيانا بالزجاج .

حينما وصلنا حجرتنا للاسف لم نجد مياها ، واضطررنا أن ننتظر مع مانحن عليه من تعب حتى الساعة الثامنة حتى جاءت. من حسن الحظ كان معنا الترموس وهو مليء بالمياه، فاستعملناه لغسل وجهينـــا ، واستلقينا على الفراش ونمنا .

إستيقظنا فى السابعة ، ولم نجد أن المياه قـــد وصلت فاضطررنا إلى الانتظار دون الاغتسال حتى الثامنة، ومن ثم ذهبنا إلى قاعة الطعام، وهنالك التقينا بالجماعة الذين كانوا فى السيارتين المعطلتين ، وهم سويسريون .

لم يكن الطعام جيدا ، ولا كانت الخدمة ترتق إلى مستوى ، إلا أننا كنا جائعين ومرهقين ، فتناولنا العشاء ، ثم ذهبنا من فورنا إلى حجرتنا .

٢٨ / ١٢

أمطرت السماء طوال الليل لكنها ، حينما استيقظنا فى الصباح المبكر ، كانت صافية، ولم تلبث الشمس أن بزغت حارة قوية . كانت حجرتنا فى الدور الأول فوق الأرض ، ولها نافذة كبيرة ذات إفريز خشبى ضخم يطل على المروج والأشجار ، وفزعت زوجتى ، وهى تنظر إلى النافذة ، وحينما التفت رأيت أحد القرود الضخمة من نوع البابون يقف على الإفريز ويطل علينا .

إنى أعلم أن هذه الحيوانات هادئة ، لكننى أعلم ايضا أنها غادرة ، وإذا أثيرت تكون شديدة الخطر ، خاصة من أنيابها ، وأظافرها الطويلة وحينما سرت إلى النافذة سار القرد على الإفريز إلى الحجرات الأخرى . ففتحت النافذة ، ثم تناولت قطعة من الجبن النسله ، وأشرت إلى القرد الذى يبدو أنه أفزعه القاطنون فى الحجرة التى كان يقف أمامها ، فقفز برشاقة عجيبة إلى الأرض . لكنه لم يهرب ، وإنما وقف ينظر إلى كأنما يتعجب . ووقفت مادا اليه ذراعى بقطعة الجبن ، وبقى فى مكانه لا يتحرك فتركناها له على افريز الشباك . لم يتحرك إلا حينما خرجت ، ومددت اليه يدى بالجبن مرة ثانية ثم وضعتها على الافريز ، ودخلت وأغلقت النافذة ، عنــدئذ فقط قفز من الارض ليجلس أمامنا يفتح الجبن ، ويقطع الورق عليها ثم يأكل فى هدوء ، ونحن نرقبه ، حينما انتهى نظر إلى ، وقفز إلى الأرض ، أخرجت قطعة ثانية ، وفعلت كما فعلت سابقا ثم دخلت ، وأغلقت النافذة ، وقفز من

الأرض . لعـله استحسن الجبن إلى درجة أنه لم يكن له صبر على تمزيق الورق المفضض حولها ، ودفعها إلى فمه ، مرة واحدة ، وأخذ يلوكها ثم قفز إلى الأرض مبتعدا .

تناولنا إفطارنا فى حدود الساعة الثامنة ، ثم ذكرت للسائق أننا سوف نستريح فى الصباح، وان نخرج لزيارة الحدائق المفتوحة إلا بعد تناول طعام الغذاء فى الواحدة والنصف وأنه حر فى هذه الأثناء . قضينا الصباح فى قاعة استقبال الفندق وكتبت بعض ما فاتنى من المذكرات ، ورأيت الكثير من حيوان القندس ، وهو حيوان فى حجم الأرنب بنى اللون ويقارب الفار إلى حد كبير ، لكنه لا يخاف الناس ، ولا يهرب إذا اقتربوا . تعرفت أيضا على النادل وكان مسلما إسمه حسن ، وأخذ يستفسر منى عن مصر وأحوالها فأجبته .

فى الساعة الواحدة والنصف تناولنا طعام الغداء ، وكان من لحم التوبى ، وهو كما ذكرت نوع كبير من الغزلان ، وانتهينا فى الثانية ، ثم تناولنا القهوة فى قاعة الاستقبال ، حيث التقينا بالسائق ، وكان يشرب البيرة ، وهى للأسف شراب عامة الشعب يشربونها بكثرة وفى جميع الأوقات ، حتى أنه حينما تكلم عن الغلاء لم يذكر سعر الخبز ، واللحم ، وإنما أشار إلى أن ثمن البيرة عشرين شلنا ، وأن الحكومة لا تفعل شيئا — لتخفيض سعره .

فى الثانية والنصف تحركنا من الفندق ، وكان أول ما صادفنا هو حيوان التوبى ، لكن على قدر ما كانت المروج فى اليوم الفائت مليئة بالحيوانات ، على قدر ندرتها هذا اليوم . رأينا أيضا لأول مرة غزال الأجمه ، وهو غزال يشابه إلى حد بعيد التوبى ، ضخم الجثة يبتعد عن الطرق المأهوله ، ويتوارى فى الأجمات فلا تكاد العين أن تراه .

رأينا كذلك عائلة من غزال الماء ، وهو غزال صغير الحجم يقارب

غزال تومسون ، ويقضى كل وقتـــه حول البرك ، والمستنقعات والبحيرات .

سارت السيارة داخــــل الأحراش دون أن نصادف سوى بعض الفاكوشيرى ، وهى الخنازير البرية ورأينا صقرا أبيض ضخما به بعض النقط الرمادية ، ودجاج غنيا ، والكثير من الطيور كان أحدها أزرق اللون جميلا حتى أننا توقفنا بالسيارة على بعد أمتار منه ، والتقطت له بعض الصور ، وسألت السائق ، موبتا الفا عن اسمه قال ليلا جاروش كليلا ، ولا أدرى مقدار صحة هذا .

شاهدنا كذلك بعض النسانيس ، واثر ذلك سارت بنا السيارة بين الأحراش دون أن نصادف حيوانا آخر سوى فرس النهر إذ رأينا واحدا منه فى بركة صغيرة .

بعد حوالى الساعة رأينا مجموعات من الصخور متفرقة وهى تشابه إلى حد كبير مدينة كاملة لهذا أسمتها زوجتى مدينة الصخور ، ومن الظريف أننى فى نهايتها رأيت مجموعة صغيرة نسبية منهـا تنفرد بعيدا عن سائر المدينة ، وكأنما هى مقبرة الصخور . درنا بمدينة الصخور ، ولم نشاهد من الحيوانات سوى زوج من الديجى ديجى ، وهو أصغر أنواع الغزال إذ لا يزيد ارتفاعه عن الأرض على ثلاثين سنتيمترا .

أثناء عودتنا إلى الفندق رأينا ثلاث نعامات ، ذكرا أسودا ، واثنتين بنيتين ، ثم رأينا مجموعة من الثعالب الحمراء اللون ، مشربة بالبنى ، وكذلك مجموعة من الثيران الوحشية على بعد . فى الساعة الخامسة والنصف وصلنا الفندق .

٢٩ / ١٢

استيقظنا فى الساعة السادسه على صوت ضبع . وصوت الضبع أقرب إلى

عويل النساء، وبذلك لا يكون محببا إلى النفس أن تستيقظ عليه . لم نر صديقنا البابون، وإنما رددت الأصداء ، أصوات ضباع أخرى تتجاوب . كان لهذا معنى واحدا . لقد قتل أسد فريسته في مكان قريب . انتهينا من وجبة الصباح وبدأنا رحلتنا إلى نزل لوبو في الساعة التاسعة .

كان النزل يقع على بعد لا يزيد عن سبعين كيلو مترا من سيرونيرا ، والمسافة كلها داخل الحدائق المفتوحة ، وعلى ذلك عزمنا على أن نقضيها كنزهة ، خاصة وأن الشمس كانت ساطعة ، والجو بديع .

لم تكن الرحلة تبشر بالكثير خاصة لما سبق أن صادفنا من تجربة البارحة ، فقد قطعنا مسافة طويلة حوالى الثلث ساعة ، ولم نر أثناءها شيئا تقريبا، ثم بدأ الخير ينهال، قطرات في مبدأ الأمر، توبى، وأمبالا ، وفاكوشيرى أفراد ضئيلة العدد فى بدء الأمر ، ثم بعض قطعان بعيدة متفرقة، ثم شاهدنا أحد الضباع ، وتذكرت الصباح لم نكن بعيدين عن الفندق ، الذى تركناه منذ نصف ساعة تقريبا ، إذ كان الطريق دائريا ، وتذكرت ما سمعناه فى الصباح فاحدقنا النظر فى الحشائش . فجأة رأيت رأس أسد تبدو من الحشائش ، وكان من الممكن جدا أن نستمر فى سيرنا دون أن نلاحظه مع أنه لم يكن يبعد أكثر من عشرين مترا من الطريق . وأشار السائق إلى ناحية أخرى ، أسد ثان ، وثالث ولبؤه ، وأخرى ، ومن وسط الحشائش ظهرت أشبال فى سن الفتوة ، وإن لم تكن قد اكتمل نموها . إلى جانب الأسد ظهر رأس لبؤه ، ثم أخرى ، واكتملت العائلة .

كان الجميع مستريحون بعد أن امتلأت بطونهم دون شك من وجبة المساء التى تصايح عليها الضباع .

تحرك أحد الأشبال وعاد الآخرون إلى الاختفاء . تابعنا الشبل فى حركاته ، فبدا كقط يطارد فأرا ، يجرى تارة بين الحشائش ، ويتصلب فى وقفته أخرى . ومرة ثالثة يزحف حتى لا يكاد أن يبين .

أخرجت النظارة المكبرة ، ورحت أتابع حركاته ، وساعدنى السائق موميئا بأن تراجع بالسيارة إلى الخلف. كان جليا أن الشبل يقصد فريسة ، وإن كنا لم نرها . درت بالمنظار فى أرجاء الأحراش والغابة ، وأخيرا رأيت الفريسة . أحد حيوانات التوبى ، منفردا يرعى . تنقل نظرى بين الفريسة اللاهية فى الطعام ، والصائد الصغير .

لكن يبدو أن الفريسة لم تكن لاهية ، وإنما كانت تعلم أن صائدها ما يزال صغيرا ، ولعل هذه تجربته الاولى فى الصيد بمفرده . فجأة حينما اقترب الصائد أطلقت الفريسة لسيقانها العنان، وراحت ترتقى مرتفعا، عدا الشبل قليلا ، ثم أدرك عقم المحاولة فتوقف خائب الأمل فى حين اختفى التوبى وراء المرتفع. عدنا بالسيارة الى حيث كانت باقى الأســـود ولم تكن قد تحركت ، وظهرت لنا القصة .

لقد اصطادت الأسود فريستها ، ربما فى المساء ، وطعمت منها وتنادت الضباع على بعضها لتتم ما تركته الأسود. ورقدت الأسود فى الحشائش مسترخية فى الشمس، ورأى الشبل فريسة أخرى فتركته الأم ليبدأ فى التعلم، وإن لم تكن الجماعة فى حاجة حقيقية إلى طعام . لم يستطع الشبل المتخم أن يجارى التوبى فعاد بخفى حنين .

تركنا الأسود لرقادها، واتجهنا وجهتنا لم نكد نقطع ضعة كيلومترات حتى رأينا أربعة ضباع تقبع فى ظل شجرتين . تلت ذلك مسافة لم نر فيها أثرا لحيوان ، ثم شاهدنا على البعد ستة من النعام ، ذكرين أسودين، وأربعة أناث بنية اللون ، ثم زرافة منفرده كان لونها بنيا خالصا وهى أول زرافة أراها بهذا اللون ، لذلك اعتنيت أن التقط لها بعض الصور .

مررنا مسافة أخرى لا نرى سوى بعض الغزلان ، أو التوبى المتفرقة، أفرادا ثم امتلأ الوادى بقطعان من الاثنين ، ومن الإيلا والامبالا ، مئات. فى احدى البرك الكثيرة رأينا زوجا من أفراس النهر .

ما أود أن أؤكد عليه هنا أننا قطعنا مئات الأميال ، وشاهدنا مئات غيرها على جانبي الطرق ، وكلها ، سواء داخل الحدائق المفتوحة أو خارجها ملأى بالحيوانات ، كما لا توجد قطعة أرض واحدة سواء في السهول ، أو الوديان، أو الجبال لا تكسوها الخضرة ، أما المروج ، والحشائش والساغانا أو الغابات ، والأشجار ، وحتى أكوام الحجارة والصخور المتناثرة ، وهي صخور صماء تجد الحشائش ، بل والأشجار تنبت بينها ، بحيث لا يوجد شيء إلا وكسته الخضرة ، ومع ذلك فالزراعة قليلة نادرة .

تابعنا سيرنا لنرى عقبانا هائلة الحجم ، لم أر أكبر منها ربما تصل المسافة بين منتهى الجناحين إلى ثلاثة ، أو أربعة أمتار ، يبدو أنها كانت تنهش في رمة مختفية بين الأعشاب إذ لم نرها ، ما أن اقتربنا حتى تفرقت العقبان ، وطارت تحلق في السماء ، تحوم حول المكان ، ومنها ما حط على شجر قريب . بعد قليل جاء دور الأفيال ، عشرات منها على كلا جانبي الطريق ، ولأول مرة ظهر الخوف على السائق حينما رآها على بعد : قلت له إن الأفيال لا تهاجم أحداً إلا إذا آذاها . أو كانت خائفة ، وقرر أننا قريبون من الحدود الكينية ، وأن لصوص العاج يخترقون الحدود ويهاجمون الأفيال ، ويقتلونها لهذا فإنها في هذه المنطقة شرسة ، وخطرة تخاف السيارات . ودهشت حينما رأيت فعلا أننا ما كدنا نقترب حتى ساد الهرج بين الأفيال ، وهربت في اتجاهات مختلطة ، لست أدرى إذا كان يمكن لمن لم يراها أن يتصور عشرات الأفيال ، وتقديري لها أنها في كلا الجانبين تتعدى المائة ، وهي تجرى في ذعر . مئات الأطنان من اللحم تتحرك على غير هدى، مذعورة خائفة ، وسيارتك تسير وسطها . لقد كان السائق على حق في خوفه ، بل إنني داخلني الخوف ، وأنا ألتفت يمنة ويسرة ، خشية أن يجرى أحدها ، أو بعضها يريد أن يعبر الطريق . ولم تتوقف رأس السائق عن الالتفات في كل اتجاه ، ولا توقفت عيناه عن الدوران . أطلق لسيارته

الفنان ، ولم ينتظر حتى لالتقاط بعض الصور فمنظر مثل هذا العدد من الأفيال الهائلة الحجم لا يراه المرء كثيرا . بعد أن تعدينا منطقة الخطر نظرت وراءنا ورأيت أن الأفيال قد توقفت عن العدو ، وإن كانت عيونها ما زال متجهة نحونا خشية أن نعود .

إن الخوف مرض شديد العدوى ، وكأنما أراد القدر أن يتلاعب بنا فلم تكد تمضى عشرة دقائق حتى شاهدنا على البعد قطيعاً آخرا من الأفيال ، وان بدا أقل عددا من سابقه ، ربما لا يتجاوز الثلاثين . لكن ثلاثين فيلا مرتعباً تكفى جداً لأن تحطم عدة سيارات أكبر من سيارتنا الفولكس ميني باص . وابتدأ السائق يهدىء السرعة كلما اقتربنا ، ويلتفت يمنه ويساره ، وكان القطيع كله تقريباً على الجانب الأيمن للطريق ونحن نسير ، كما هى قواعد المرور فى تنزانيا ، على الجانب الأيسر . من جهته شاهدنا فيلا واحدا هائل الحجم يقف بين الأشجار ، وداخل السائق الخوف خشية أن يكون هذا الفيل هو قائد القطيع ، وأن القطيع سوف يعبر الطريق إليه فى أية لحظة ، أو العكس ، أعنى أن يعبر القائد الطريق إلى القطيع . رأيت فى حركات رأسه ، وعينيه الخوف يرتسم ، وللمرة الثانية انتقلت العدوى إلى لكننى رأيت أن أهدىء من روعه حتى إذا صادفتنا متاعب يكون أكثر استعدادا للتصرف فيها .

قلت له إنه فاتنا أن نلتقط صوراً للقطيع الأول ، وأرجو ألا تفوتنا الفرصة مرة ثانية ، ونظر إلى كمن لا يصدق . بدأ يعيد أقواله الأولى ، إلا أنى قاطعته بأن ذكرت أننا اقتربنا جدا من القطيع وأنه يبدو غير مذعور كالأول . وكان هذا حقا . مع هذا لم يتوقف السائق عندما طلبت منه ، أعنى جوار القطيع ، وإنما توقف بعد أن تعدى القطيع بفترة قصيرة ، مكنتنى من التقاط بعض الصور ، انتهيت من التقاط الصور ، واعتدلت فى جلستى لأرى السائق يشير إلى جانب الطريق الذى وقفنا عنده ، أعنى الأيسر . من

بين الأشجار رزت ثلاثة أفيال لم نكن قد لاحظنا وجودها ، لم تفعل شيئا وإنما وقفت ترقبنا ، وأطلق السائق لسيارته العنان حتى أنى التقطت صورة لا أدرى إن كانت سوف تفلح أم لا .

لم يحدث شيء بعد هذا ، ولا نحن صادفنا حيوانات تذكر ، ربما بعض الثيران الوحشية ، والغزلان ، والنسانيس ولا شيء آخر كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة والربع حينما بدأنا نصعد مرتفعا من الصخور الضخمة ، وسرنا فى طريق ضيق متعرج . على إحدى الصخور شاهد نا نوعا من الغزلان لم أره من قبل ذلك ، وحينما سألت عنه قال لى السائق إنهم يطلقون عليه اسم كريب سبرنجر ، كما رأينا قطيعاً صغيرا من الأفيال . أخيراً وصلنا إلى نزل لوبو ، أو لوبو لودج .

لو أعطيت هذا النزل حقه لما كتبت أقل من أربع صفحات من الوصف ، لكننى أخشى أن يمل القارىء ، وسوف أذكر فقط سماته الرئيسية . ان له مطارا صغيرا قريبا ، والنزل نفسه مبنى كما ذكرت على مجموعة من الصخور يصل ارتفاعها إلى حوالى المائتى متر ، ولم يترك المهندس جزءاً إلا واستغله دون أن يغيره ، حتى أن نتوءاً فى الصخور جعل منه مكاناً للقفز إلى حمام السباحة ، والحمام نفسه عبارة عن تجويف أصلا فى الصخور أجرى به بعض تعديلات حتى يمكن ملئه وتفريغه عند الحاجة . داخل قاعتى الاستقبال ، والطعام تجده قد استغل تجاويف للصخور ليجعل منها جلسات خاصة ، وارتفاعات الصخور ليكون منها طبقة أعلى من أخرى . حتى الأشجار لم ينتزعها من مكانها ، وإنما أحاطها بصندوق ضخم من الزجاج ، والخشب ، وتركها بعد ذلك تخترق السقف ، فإذا ما أمطرت هبطت الأمطار على الأحجار الأصلية وتسربت من الشقوق دون أن تمس قاعة الطعام بضرر . ولأن المهندس ترك الطبيعة على ماهى عليه ، واستغل ماشاء منها لمصلحته ، فإنك ترى عشرات القنادس تقفز بين الأحجار ، وتخرج من الشقوق ، وتتسلق الأشجار ،

وتأكل من الحشائش . كانت هنالك هوة سحيقة بين مجموعات الصخور بنى عليها المهندس قناطر من الأخشاب، والأحجار . كانت من نتيجة هذا الارتفاع أن الجو جميل حقاً ، مع أننا فى فصل الصيف ، فلا هو بالغ حرارة دار السلام ، ولا برودة نجورونجورو . بالإضافة إلى هذا فإن الهدوء يخيم عليه حتى لا تسمع لاغية ، ومع هذا فمما يؤسف له أننا لم نجد به زائراً واحداً حينما وصلنا ، وفى المساء حضرت جماعة من الألمان فى أربعة سيارات ولا يزيد عددهم على العشرين شخصاً . هذه جنـــة ، ليست مفقودة ، وإنما مهجورة مجهولة .

لم تكن زوجتى قد نزعت الغرز التى فى رأسها من أثر الحادث حتى الآن ، وكانت تتضرر منها جداً، كما أن موعد حلها كان من يومين ، أى يوم ١٢/٢٧ لهذا سألت الفتاة فى الاستقبال إن كان يوجد فى النزل طبيب ، فذكرت أنه توجد ممرضة، وذهبت معها زوجتى لترى إن كانت مؤهلة لنزع السلك، وفعلا قامت بنزعه بمهارة بفضل الله .

١٢/٢٠

كانت الممرضة قد وعدت أن تأتى مبكرة لتغيير ضمادة الجرح التى فى رأس زوجتى ، ولم أتوقع أن تفى بوعدها رغماً من أننى وعدتها بعشرين شلناً ، ولكننا حينما انتهينا من ترتيب حوائجنا، واتخذنا طريقنا إلى صالة الطعام قابلنا أحد الأنزال ، وقال إن الممرضة حضرت ، وإنها تنتظر فى العيادة ، وفعلا ذهبنا ،وغيرت زوجتى الضمادات ووجدت أن الجرح نظيف بفضل الله ، وقالت لزوجتى أنها يمكنها أن تنزع الضمادات بعد يومين ، وبالتالى أن تغسل رأسها وكان هذا خبراً سعيداً .

انتهينا من الإفطار فى الساعة السابعة والأربعين دقيقة ، وأمرنا بإنزال الحقائب ، ورأينا الكثير من البابون فى النزل ، كذلك القنادس ، وابتدأنا رحلتنا إلى نجورنجورو فى الساعة الثامنـــة ، وقد أخذنا معنا ثلاثة علب

كرتونية للغذاء . أردت اليوم أن أغير من طريقة كتابتي ، بأن أنقل صورة حرفية لما نراه فأثبت أثناء سير السيارة كل ما أشاهده لحظة مشاهدته ، إلا أنى وجدت أن هذه الطريقة متعبة جداً لرداءة الطريق ، واهتزاز السيارة ، فضلا عن أن القارىء قد يمل التكرار ، سأعطيك صورة مما كتبت ، فإنى أعتقد أنها من جهة أخرى قد تعطى انطباعا صحيحاً عما يصادفك أثناء الطريق غزلان طومسون ، فاكو شيرى : (خنزير برى) ثيران وحشية ؛ جنو ، توبى غزلان ، ثيران ، ثلاث ضباع كل هذا فى عشرة دقائق ، والسيارة تسير ، نعام ، وابن أوى ، الأرض معظمها جبلية .

توبى ، وجنو ، قطيع ضخم من الثيران الجبلية ، توبى غزال جرانتس . خمسة وعشرين دقيقة ، غزال طومسون ، ثم مجموعة من الجنو ، والتوبى ، طومسون . نصف ساعة ، رأيت طائراً لم أر مثله قبل ذلك ، قال السائق إن اسمه كورى باستارد وهو قريب الشبه بالديك العادى ، وأكبر حجماً من الغرنوق يكاد ارتفاعه أن يصل إلى متر ونصف ، رأينا ابن آوى ؛ الساعة الثامنة وأربعين دقيقة ، رأيت غزلاناً وتوبى ، ثم غزلاناً ثم زرافات ثلاثة ، الجو جميل ولا أثر للسحب ، إنه ليس حاراً ، توبى ، وزراف بنى اللون ؛ وجاموس وحشى ، وإيلا ، وغزال طومسون ، ثم ابن أوى ، اثنان جريا أمام السيارة جاموس وحشى ؛ الساعة التاسعة وعشر دقائق ، وأخذ الطريق يرتفع بصفة مستمرة ، وقد وصلنا إلى فندق سنيورنيرا ثم محطة بنزين فى الساعة التاسعة من لوبو إلى محطة البنزين خمسة وسبعون كيلو مترا ومن المحطة إلى نجورونجورو مائة وخمسون واثنان كيلو متراً ، ومنها إلى بحيرة مانيارا مائة وتسعة وسبعون (دائماً من المحطة) إلى أروشا تسعة وعشرة وثلاثمائة كيلو متراً .

تركنا محطة الوقود الساعة التاسعة وخمس وأربعين دقيقة . فى الساعة العاشرة والثلث رأينا آلافاً من الحمر الوحشية تغطى الأرض تماما ؛ واستمرت كذلك ، والسيارة تسير أكثر من ربع ساعة ولا شك عندى أنها تعدت

المليون حيواناً ، ثم بدأت أعدادها تتناقص، وظهر الجنو فى الساعة الحادية عشرة وثلث وتعدت بدورها مئات الآلاف .

رأيت نسراً بنفسجى اللون ؛ وقبل ذلك عشرات العقبان تنهش فى جيفة.
أنت ترى أن هذه طريقة لا تصلح مطلقاً لكتابة الرحلة فمثلا لماذا تتجمع هذه الأعداد الضخمة من الحيوانات ، خاصة الحمر الوحشية ، فى هذه الأماكن دون غيرها ؛ هل هى هجرة جماعية ، وما سببها ؟ ومن أين ؟ وإلى أين ؟ لعلك لاحظت أنى أثناء ذكرى للحيوانات التى رأيتها فى رحلتنا لم أذكر الحمر الوحشية مطلقاً ، لم أرها ؛ ثم فجأة ؛ أصبحت الأرض مغطاة تماماً بها إلى الأفق ... لماذا ؟ كيف لم نر حيواناً مفترساً واحداً ، الأسود، والفهود ، مع وجود هذه الكمية الهائلة من اللحم الحى ؟ لماذا أيضاً تجمع الجنو مع أننا رأينا الكثير منها قبل ذلك ؛ أثناء سيرنا بل وبعد ذلك ؟ ماهو الطائر الذى يقول السائق إن اسمه كورى باستارد ؟ هل حقيقة أنى رأيت نسراً بنفسجى اللون؟ لقد شككت فيما رأيت، والأسف لم ألتقط له صورة، لكن زوجتى أيدت أن ما رأيته كان حقاً ، وبذلك على أن أعود إلى الكتب لعله نوع نادر ؛ أو لعل له إسماً آخر .

يعيب مثل هذا النوع من التسطير السابق أنه خلا من الشخصية ، فهو مجرد سرد للوقائع دون الاهتمام بالشعور الشخصى للمشاهد، وإحساسه ؛ هل كانت الرحلة متعبة أم مريحة ؟ كيف حال الطريق هل هو معبد ، ماذا كان إحساسنا أمام هذا العدد الهائل من الحيوانات ؟ هل اعترض طريقنا بعضها أم أنها تجنبت الطريق ؟ أم هذا كله مالم نره ؛ فنحن مثلا طوال الطريق لم نر أية أرض جرداء ، فهى إما مرعى ، أو غابات وحتى الصخور تنبت الأشجار والنباتات خلالها كما ذكرت ؛ ومع ذلك فلم نر أيضاً أية زراعة عدا رقعة صغيرة خارج أورشا نفسها ولا تمتد لأكثر من كيلومترات قلائل لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، أما طوال الطريق ، وقد قطعنا أكثر

من ألف وأربعمائة كيلو متراً فلم يصادف زراعة ؛ إلا بعض القطع الصغيرة المتناثرة التي لا تتجاوز فيها الواحدة الفدان ؛ وأكبر رقعة رأها ربما تصل إلى عشرة أفدنة محروثة ؛ وهي الوحيدة التي بهذا الحجم .

لم نر أيضاً مدناً سوى اروشا ، ولم نر اشارة فى الطريق إلى مدن فيما عدا واحدة ، ولم نر سوى ثلاثة قرى ... لا يتجاوز ما فى أكبرها عشرين أو ثلاثين كوخاً ، أسقفها بالصفيح ، ولا أتصور أن تعداد أيها يتجاوز بضعة مئات ، بل إن احداها لا تزيد على مجرد محطة صغيرة . نعم رأينا بعض أكواخ الماساى متناثرة لكنها ، إلى ندرتها ، لا يبدو عليها أنها أماكن استيطان دائم لأننا رأينا أمثالها ، وقد هجر إذ أن الماساى يقطنون الأماكن المرتفعة فى كينيا ، وتنزانيا وهم قوم رحل ينتجعون الأرض حيثما يوجد الكلأ ولا يخضعون لقانون ؛ أو يعرفون حدوداً دولية ، طوال القامة نحاف الأبدان يرتدون القروط الكبيرة يعلقونها ، ليس فى شحمات آذانهم ، وإنما فى أعلاها فترى القرط يتدلى حتى يصل إلى ما بعد الشحمه ، ويمسكون حراباً طويلة يتكئون عليها فى سيرهم ، وفى وقفتهم والثرى فيهم يرتدى ثياباً زاهية متعددة الألوان ، أما سوادهم فيرتدى أسمالا ، ويكاد أطفالهم أن يكونوا عراة لا تستر أبدانهم سوى خرق لا تغطى عوراتهم ، أما فتياتهم ونساؤهم فيحلقن رؤوسهن شأن الرجال ، ويرتدين الأقراط ، تماماً كالرجال ، ويأتزرن بقطعة واحدة من القماش تلتف بإحكام حول أجسادهن .

لنعد الآن إلى رحلتنا مرة ثانية . دخل بنا السائق المروج ، وسط آلاف ومئات أنواع الغزال ، وكان هدفنا هو خانق أولدفاى وهو مشهور جداً يعرفه كل من له أى اهتمام بعلم السلالات . اكتشفه عالم ألمانى أثناء بحثه عن أنواع الفراشات فى سنة ١٩١٢ ، ولكنه لم يتعرف على أهميته وحينما عاد إلى ألمانيا تقابل مع العالم الألمانى هانزج الذى ذهب إليـــه ، واكتشف بضعة عظام لحيوانات ما قبل التاريخ ، وإن كان قد أخفق بدوره على التعرف على الأدوات الحجرية الأولى التى كان يستعملها الإنسان الأول ، فأشرك معه

دكتور ليكى وزوجته التى لا تزال تعمل حتى الآن ، وإن كان زوجها قد توفى فى سنة ١٩٧٨ .

إن أولدفاى يأخذ اسمه من اسم نبات عشبى ، أطلق عليه الماساى هذه الكلمة . وفيه ترى كأنما قد استعرضت الطبيعة التطور البشرى فى معرض ، من خمس طبقات . الأولى يصل سمكها من خمس وثلاثين قدما إلى خمسين قدما ، والثانية من ستين إلى سبعين قدما ، والثالثة من خمسة وثلاثين إلى أربعين قدما ، والرابعة من خمسين إلى ستين قدما ، والخامسة من خمسة وثلاثين إلى ستين قدما وبالكشف بالكربون ١٤ المشع اتضح أن الأولى تعود إلى خمسة ملايين سنة مضت ، والثانية إلى حوالى ١٫٦ مليون سنة ، والثالثة إلى ٧٠٠٫٠٠٠ سنة .

والخانق طوله خمسة وعشرون ميلا ثم يتصل بآخر إلى جانبه بطول اثنى عشر ميلا ليكون حرف L . وعمقه ثلاثمائة قدم ، وكانت به بحيرة طولها ١٢ ميلا تكونت بين الطبقتين الأولى ؛ والثانية لكنها اختفت الآن وتكون الخانق منذ مليونى عام بظهور جبال نجورونجورو وليما جروت ، وجبال أولمونى وكذلك أولدلانجاى ، والأخيرة تعنى بالمساى جبال الرب ، وهو جبل ما يزال حتى الآن فى طور التكوين ، أى أنه يرتفع بصفة مستمرة . كما يوجد بالخانق آثار لافا ، وهى حمم بركانية يبدو أنها تعود إلى حوالى ١٫٩ مليون سنة . هنا يقول علماء السلالات كان أصل الإنسان ، وهنا أيضاً ظهر تطوره فى كل مراحل التطور ، منذ أن تدرج من سلالة ليموروات . وهو ما يطلق عليه انثروبولوس منذ حوالى ٣٫٥ مليون سنة ، والواقع أن السيدة ليكى ، ما تزال تعمل على كشف خانق آخر قريب يدعى لايتولى لا يبعد عن الدفاى بأكثر من أربعة أو خمسة كيلومترات ، وقد اكتشفت فيه مثل هذا الإنسان الذى ذكرته ، وهو يسير على يديه وقدميه .

تورنا الخانق ، ورأينا بعض المآسى فأردت أن ألتقط بعض الصور ولم إلا أنهم طلبوا أربعين شلناً مقابل ذلك، أى حوالى أربعة دولارات بالسعر الرسمى ، فرفضت وتركنا الخانق فى حـــدود الساعة الثانية عشرة والربع . وصعدنا الطريق الجبلى الوعر الذى سبق أن وصفته فى رحلتنا الاولى إلى نجورونجورو ومن فضل الله لم تمطر السماء وإلا كان من المستحيل الصعود . أثناء السير فى الأحراش كان الســائق مسرعا فسمعنا صوتاً فى مؤخرة السيارة اتضح أن إحدى حالات الشاسيه الخلفية قد كسرت ، وعلى هذا اضطر إلى السير ببطء ، واستمرت تصدر أصواتاً مزعجة ضاعفت من تعب الرحلة ، واهتزازاتها .

بدأ الجو فى البرودة كلما ازددنا فى الارتفاع إذ أن الفندق كما ذكرت على ارتفاع سبعة آلاف وخمسمائة قدم ، وحينما وصلنا فى حدود الساعة الواحدة والنصف كان التعب قد نال منا كل منال .

لك أن تتصور بعد ذلك كيف حالنا حينما أخبرنا كاتب الاستقبال أنه لا توجد لنا أماكن للاقامة حيث أن الايام أعياد والنزل لا توجد به غرفة خالية . وحينما تكلم معه السائق مقرراً أن الشركة سبق وحجزت لنا قال إن هذا صحيح ، لكنه فى الليلة السابقة أى ١٢/٢٩ وليس ليلة ١٢/٣٠ وهى الحالية ، ولم تكن هناك فائدة من المناقشة فطلبت من السائق أن يطلعنى على فاتورة حجز غرفة لنا فى فندق بحيرة مانيارا وحينما فعل اتضح أنها للنوم فقررت وجوب التوجه إلى هنالك فوراً ، وإلا أظلمت علينا الدنيا ، وفاتتنا الحجرة أيضاً .

قرر السائق أنه لا بد من إصلاح العطل فى السيارة وأن هناك ورشة قريبة فطلبت منه التوجه إليها وفعلا توجه بعد أن أنزلنا فى فندق قديم قريب ، وجلسنا نأكل فى حجرة الاستقبال ، غذاءنا من الصندوقين ، وتناولنا الشاى ، والقهوة .

لم يغب السائق فلم تكد تمضى ساعة ، أى حوالى الثالثة إلا وكان قد حضر ، وابتدأنا رحلتنا ثانية . غير أن القدر كان مازال فى جعبته الكثير . ذلك أن السائق قرر أنهم لم يعطوه ما يكفى من الوقود فلم يزد ما سمحوا له به على عشرين لترا ، وفى الطريق أوقف بعض السيارات يسأل سائقيها عن مكان يستطيع منه أن يتزود منه بالوقود ، وأخيرا أخبره أحدهم عن محطة قريبة فتوجه إليها ، وكانت تبعد أكثر من ثلاثين كيلو مترا .

تزودنا بالوقود ، ولم يدر محرك السيارة واتضح أن بالكهرباء عطل فلم يتم احتراق الوقود ، واستغرق فى إصلاحها ما يقرب من ساعتين . كانت الساعة الخامسة وعشرة دقائق حينما تحركنا من المحطة ، واتجهنا إلى فندق بحيرة ماليارا . وصلناها بعد السادسة ، وكنا فى حالة شديدة من الاعياء واتجهت إلى كاتب الاستقبال ، وقبل أن يرى مذكرة الحجز اعطيته عشرين شلنا بحجة حجز غرفة تطل على منظر جميل ، والواقع أنى كنت فى شك أولا من الحجز ثم أنه كانت هنالك ليلة رأس السنة ، وهذه لم يكن فيها حجز لأى مكان مطلقا فى حين أن الحجز فى اروشا فى فندق مونت ميروكان فى اليوم الأول من السنة أى ليلة اليوم الثانى .

قضى الله بفضله وكرمه لنا أن نستريح فقد حجز لنا كاتب الاستقبال الحجرة لليلتين ، فضلا عن أنه أعطانا الحجرة رقم ٩٧ وهى حجرة تطل على ساحة الفندق ، وحمام السباحة ، ومن ورائها الغابة ، والبحيرة ، والمنظر فيها أخاذ فعلا . ألقينا امتعتنا بعد أن واعدنا السائق على الغد فى الساعة العاشرة ... حتى يكمل عناء اليوم لم يكن فى الحمام مياه ولم تأت إلا فى الثامنة مساء ، وتناولنا عشاءنا فى التاسعة ثم نمنا فى العاشرة .

١٢ / ٣١

استيقظنا كعادتنا فى السادسة صباحا وإن كنا قد نمنا نوما عميقا . فى الثامنة والنصف كنا قد تناولنا افطارنا وجلسنا فى بهو الفندق ، وفى العاشرة إلا ربعا حضر السائق وابتدأنا رحلتنا إلى حدائق مانيارا المفتوحة . دفعنا ثمانين شلنا ودخلنا الحديقة ، وهى غابات جميلة ، والمفروض أن بهـــا أفيالا ، وأسودا ، وفهـــودا ، وافراس النهر إلى جانب سائر الحيوانات .

لم نكد نبتعد مائة متر من المدخل حتى شاهدنا ثلاثة أفيال كبيرة ، وفيلا صغيرا يبدو أنه لم يمض على ولادته بضعة أشهر . إقتربنا منها حتى صارت المسافة لا تتجاوز خمسة أمتار ، وربما أقل ، والتقطت بعض الصور وهى تنظر إلينا فى دعة ، وسكون ، مع أن وجود الرضيع مع أمه يكون دائما مدعاة لقلقها . استمر سيرنا بعد ذلك لنشاهد أفيالا متعددة بعضها قريب ، والآخر فى المرتفعات ثم ذهبنا إلى نهر يجرى داخل الغابة وفيه وجدنا منظرا طريفا إذ أنه كان هنالك لا اقل من ثلاثين من أفراس النهر متجمعة ، حتى إنها كانت ملتصقة ببعضها ، ومنها ما كان يضع رأسه على جسد الآخر وهو نائم تماما بل ويغط .

بعد حوالى مائة متر أخرى كانت هنالك مجموعة مشابهة للاولى كما رأينا مئات البط المصرى ، وشتى أنواع الطيور . تركنا النهر واتجهنا إلى السافانا لنرى أنواعا من الثيران الوحشية ، والتوبى ، والجنو وعشرات من أنواع الغزلان المختلفة فى فسحة من الغابة ، رأينا مجموعة ضخمة من البابون منتشرة تملأ الأرض تماما ، وهى تقفز ، وتلعب ، وتتقاتل ، وتصرخ وكانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها مثل هذا التجمع الذى لا بد أنه تعدى المئات وربما تصل إلى الألف أو أكثر .

تركناها وهى لاهية لا تعبأ بوجودنا ، ودخلنا الغابة لنرى زرافة سوداء ، ولم أر غيرها فى مثل لونها ، خاصة وأن عجزها كان أسودا دون أية نقط ، أو خطوط بيضاء ، وإن كانت رقبتها وعنقها بها المربعات كسائر الزراف . سدت طريق السيارة أيضا زرافة هائلة الحجم ، وبالرغم من اقترابنا منها حتى لم يبق بيننا وبينها أكثر من عشرة أمتار فإنها لم تتحرك فاضطر السائق ان يوقف السيارة ، والتقطت ماشئت من الصور . بعد ثلاث أو أربع دقائق تهادت بعيدا عن الطريق ومررنا .

بعد فترة أخرى ظللنا أثناءها نبحث عن أسود الأشجار ، وهى نوع من الأسود تحب تسلق الأشجار الضخمة لينام على فروعها المتينة ، ومنها أيضا من يرقب فرائسه ، إلا أننا لم نعثر لها على اثر ، ولا عثرنا على الفهود الواقع ان الأخيرة حيوانات ليلية تحب أن تصيد فرائسها ليلا ثم تختفى نهارا فى عرائنها بحثا عن الحيوانات . صادفنا مجموعة أخرى من البابون عند جدول يجرى بين الصخور ، ورأيت بعضها يشرب مع معلوماتى أن القرود عموما لا تشرب مكتفية بعصارة الفواكه التى تأكلها .

رأينا أيضا أثناء تجوالنا نوعا من النسانيس أزرق اللون ، أو هو اسود حتى يميل لون شعره إلى الزرقة ، ويسميه الأهالى النسناس الأزرق ، وهو نوع نادر الوجود ، وقليلا ما يرى إذ يختفى بسرعة عجيبة حينما تقترب منه سيارة ، أو انسان أخذنا السائق كاميا مدويه بعد ذلك إلى فرجه وسط اشجار باسقه فى الغابة ، وجدت أن بها مقاعد خشبية فسألته عما إذا كان يمكن لنا النزول من السيارة ، ومع علمى بأنه ممنوع إلا انه اجاب بأنه غير ممنوع فى هذه المنطقة ، ولم افهم السبب إلا انى انتهزت الفرصة وهبطت من السيارة لالتقاط بعض صور الأشجار الباسقة ، والتلال المحيطة بنا .

أثناء التقاطى الصور رأيت على بعد مائتى متر فى مرتفع احد الأفيال

يلتقط طعامه ، ثم مالبثت أن لاحظت انه لم يكن بمفردة ، وإنما معه أكثر من عشرة أفيال أخرى . كنت قد بعدت عن السيارة بحوالى ثلاثين مترا ، وإن كنت لم أبتعد عن المنطقة المسموح فيها بالنزول ، لكن زوجى كانت قريبة من السيارة فطلبت منها أن تركب ، وناديت على السائق كاهيما . فى هذه الاثناء ، كان أحد الأفيال قد بدأ يهبط التل ، ومن الغريب أنه كان مسرعا خفيف الحركة ، ورأيت ان ازداد اقترابا من السيارة ، خوفا من الطوارىء . حضر السائق ، ورأى أن الفيل ، لا يبعد عنا بأكثر من مائة متر فطلب منى أن استقل السيارة د وأسرع هو إليها وأدار المحرك ، وما أن صعدت حتى أطلق لها العنان مقررا ان هذا الفيل كان يقصدنا ، بل وأن بعض الأفيال يطارد السيارات ، وإن كنت لم أر شيئا من ذلك كما أن هذا لا يتأتى مع وقوفنا السابق إلى جوار الأفيال الثلاثه والرضيع .

لم نشاهد بعد هذا أى شىء يستحق الذكر سوى مجموعة من الطيور من بينها عقبان كثيرة ، لهذا قررنا ترك الحديقة المفتوحة ، والعوده إلى الفندق فوصلنا فى الساعة الواحدة والربع تقريبا ، وأخطرنا السائق أننا سوف نستريح مساء ثم نتجه إلى أروشا فى الساعة التـــاسعة من صباح اليوم التالى .

تناولنا غداءنا ثم استرحنا ، وجلست أكتب مذكراتى ، وفى المساء، بعد تناول العشاء ، تركنا أخواننا الاوروبيين وهم يبدأون فى الاحتفال السنوى برأس السنة الميلادية ، وصعدنا إلى حجرتنا لنجلس فى الشرفة نستمع إلى صخب النزلاء ، ونتمتع بالمنظر أمامنا إذ أن القمر كان ساطعاً كما ان الجو كان بديعا أو على حد تعبير زوجتى لم يكن هنالك جو ، فلا برد ، ولا حر ، ولا رطوبة ، ولا رياح ، ولا سكون .

٢ / ١ / ١٩٨٣

فى الثامنة والنصف كنا قد تناولنا إفطارنا ، وكانت حقائبنا معده فى ردهة الفندق . وجاء كاهيها السائق فى الساعة التاسعة ، وابتدأنا رحلتنا إلى أروشا . بعد بضعة كيلو مترات تعطلت السيارات بسبب الكهرباء لكن السائق أصلحها فى حوالى ربع ساعة ، ثم استأنفنا سيرنا . توقف فى قرية صغيرة ، وهى إحدى قرى ثلاث رأيناها طوال رحلتنا ، وقدمت إليه فتاه بعض الموز ، من الواضح أنه كان قد حضر إلى القرية فى اليوم الماضى وطلب إعداد الموز له ، بل أنه لم يدفع ثمنه إذ أنه أخذه وانطلق بالسيارة . بعد حوالى نصف ساعه عطبت إحدى العجلات واضطر إلى استبدالها ، وحينما سألته إن كانت هنالك محطة قريبة نستطيع فيها إصلاح الإطار الفاسد أجاب بالنفى .

انطلقنا ، وشاهدنا فى الطريق بعض الزراف ، كما شاهدت أيضا قطعة الأرض المحروثة التى تقارب العشره أفدنه والسابق الإشارة إليها ، وهى أكبر قطعة أرض مستغلة فى كل المساحة التى مررنا بها فيما عدا الأراضى الملاصقة لأروشا . رأينا كذلك الكثير من النعام ، والطيور المختلفة ، ولم يحدث شىء حتى وصلنا إلى أروشا فى الساعة الثانية عشرة والنصف ، وطلبت من السائق أن يتوقف عند أحد المحال لأشترى فيلما لآلة التصوير ، ولو أن الوقت متأخر والمدينة كانت مغلقة نظرا لأن اليوم هو رأس السنة وهو يوم عطلة رسمى إلا أن أحد التجار الهنود كان يعمل ، فاشتريت منه فيلما بما يقابل ثلاثين دولار ، ولهذا اقتصرت على فيلم واحد .

ومدينة أروشا ذاتها مدينة صغيرة لا تعلو مبانيها على طابق واحد غير الأرضى إلا فى النادر ، وشوارعها ، وإن كانت مسفلتة ، إلا ان حالتها سيئة ، وهى عموما أقل كثيرا من أية مدينة متوسطه من مدننا فى الأرياف

وتقطنها أقل مساحة ، وسكانا من دار السلام التى لا تزيد بدورها عن عاصمة محافظة متوسطة لدينا . وليس فى مدينة اروشا ما يستحق الذكر ، بل إنى حتى لم أعتنى بالتقاط صور لها .

تركنا المدينة إلى فندق مونت ميرو الذى يقع خارجها على بعد حوالى كيلومترين ، وهناك أنزل السائق حقائبنا وقرر أن بونى صاحب شركة السياحة ، سوف يحضر لنا لأن معه تذاكر الطائرة التى سوف نستقلها إلى دار السلام فى الغد ان شاء الله .

لم يحضر بونى ولا السيد ريزا مدير فرع شركة ناشيونال تورز ، وحاولت أن اتصل بالاخير دون جدوى ، ثم حاولت الاتصال بالسيد مستقلى وهو بونى ، وأفلحت فى ذلك وقرر أنه سوف يحضر خلال عشرة دقائق ، وفعلا بعد ربع ساعة ، أعطانى تذكر الطائرة بعد أن أكد الحجز عليها لباكر ان شاء الله فى الساعة الثانية عشر وخمس دقائق وثلاثين دقيقة ، على أن نكون فى المطار قبل ساعة تنصل بونى من دفع أجر الفندق عن اليوم مع ان اتفاقنا كان يشمله فكأنى بذلك دفعت اثنين وثلاثين ألف شلن عن سبعة أيام وستة ليالى ، بدلا من أسبوعين ، كما كان اتفاق الأول مع السيد ميلايو مدير شركة ناشيونال تورز ولم أر بدا من أن أتغاضى عن ذلك.

تناولنا غذاءنا وعشاءنا . فى الفندق ولم نبرحه ، وكانت حجرتنا تطل على جبل ميرو العظيم ، وقد التقطت له عدة صور والسحب تحت قمته . بقيت نقطة أخيرة يجب أن أذكرها هى أنه طوال الرحلة الماضية ، وقد استغرقت سبعة أيام وستة ، ليالى لم أر السائق يستعمل نفير السيارة إلا مرة واحدة ، عندما استمر مده طويلة يسير وراء إحدى السيارات التى كانت تغلق عليها الطريق بصفة مستمرة ، حتى أنه خيل إلى ان سائقها كان

يتعمد ذلك ، وحينما تحدثناه إتضح إنه رجل أبيض ، كذلك لم اسمع أحداً يستعمل النفير طول هذه المدة ، أو على الأقل لم الحظ ان أحـــداً يستعمله .

١٢

اتضح لنا البارحة أننا نسينا في السيارة العربة الصغيرة التي عليها الحقائب والتي نستعملها في المطارات ، فتحدثنا هاتفيا مع اخي السيد خاطري ، وأخطرته بذلك ، ووعد بالبحث عنها واحضارها لكنه لم يفعل ، كما لم يرسل خاطري السيارة التي وعدنا بإرسالها في الساعة العاشرة صباحا لتقلنا إلى مطار كليمنجارو ، وعلى هذا إكترينا سيارة أجرة في حدود الساعة العاشرة وأربعين دقيقة حيث أن المسافة تزيد على سبعة وعشرين كيلو مترا والموعد المحدد لوجودنا في المطار هو الحادية عشر والنصف نظرا لأن الطائرة سوف تقلع في الثانية عشرة والنصف .

وصلنا المطار في الساعة الحادية عشرة وعشرة دقائق ، وعندما اخذت مني الموظفة المختصة التذاكر اتضح ان اسمنا غير مدرج في كشوف المسافرين واحتججت قائلا إن خاطري قد اخذ الموافقة منذ اسبوع ، وانها كانت مكتوبة في التذكرتين لكن الموظفة ، واسمها مديحة ، قالت إن ذلك الشخص إعتاد ان يكتب ما شاء عن التذاكر بالنسبة لعملائه . وفي اليوم السابق فعل ذلك مع ثمانية من السياح ، واعتذرت قائلة إنها ستبذل جهدها لتجد لنا اماكن إن لم تكن الطائرة جميعها محجوزة طلبت منها ان تحجز لنا في الدرجة الأولى إن كانت بها اماكن لكنها اخطرتني بأن الطائره ليس بها سوى الدرجة السياحيه . توجهت بشكواي إلى رئيسها وهو رجل طيب يدعى مصطفى لكنني لم احصل على نتيجة سوى الوعد بأن يكون اسمنا في

فى أول قائمة الانتظار ، وأن علينا الاحتمال والصبر لحين وصول الطائرة عسى أن يجعل الله لنا مخرجا .

كان الموقف فى منتهى السوء لأن الطائرة التالية التى سترحل إلى دار السلام كانت سوف تقوم فى السابعة إلا خمس دقائق ، ومعنى هذا الانتظار أكثر من سبع ساعات أخرى والمطار ، وإن كان نظيفاً وحديث البناء ، وبه مقصف ، إلا أنه قطعاً ليست به وسائل الراحة التى يمكن أن نقضى فيها هذه المدة الطويلة . وثمة نقطة أخرى أنه حتى لو مكثنا هذه المدة فليس ثمة ما يقطع بأن نجد مكاناً فى الطائرة التالية ، ومعنى هذا احتمال مبيتنا فى المطار . حاولت الاتصال بخاطرى هاتفيا إلا أن السيدة التى ردت على قررت أنه غير موجود وأنها ستخطره بمجرد حضوره ، وغنى عن القول إنه لم يحضر ، ولم يقدم أية معونة .

لم يكن أمامنا سوى الانتظار ، ومضت الدقائق بطيئة ، وتأخر وصول الطائرة إلى الساعة الثانية عشرة وخمس وأربعين ، وأعلن أنها سترحل فى الواحدة وحينما سألت عما إذا كان يوجد بها أماكن خالية أجابتنى الآنسة مديحه بالنفى . وقعت إذا الواقعة ، ولم يكن هنالك مفر من الانتظار حتى الطائرة التى سوف تقلع فى الساعة السابعة . سلمت أمرى إلى الله وحاولت على الأقل أن أتأكد من السيد مصطفى عما إذا كنا حقا سنستقلها فوعدنى بذلك. طلبت منه تأكيد الوعد فأكده والواقع أن الرجل قد قدر الظروف بحيث أخجلنا كرمه . صعدنا إلى المقصف بعد أن تركنا حقائبنا مع حمال الشركة ،واسمه جمعه ، وهو أيضا شخص ظريف معوان، وطلبنا غذاء فاتضح أنه لا يوجد سوى طبق واحد ، وهو لحم بقرى وبعض البطاطس والبازلاء وأنه لا يوجد خبز . حضر الطعام تذوقت منه قليلا ، وعافته نفسى وكذلك

فعلت زوجتى ورفضنا تكملته . وأحضر النذل قطعة من الآماناس ، لكل منا فأكلناها .

إن وصف التعب الذى يلاقيه المرء من مجرد الانتظار عسير ولا يقدره حق قدره إلا من عاناه . وحينما يضاف إلى الانتظار القلق من احتمال عدم وجود أماكن شاغرة فى الطائرة التالية ، رغما عن وعد السيد مصطفى ، فان التعب ينقلب إلى ارهاق . مهما كان المقعد مريحا فلن تستريح فيه ، إن حاولت القراءة فلن تستطيع التركيز ، وإن أردت الحديث فستجده مملا بل وان يكون سوى عن الموقف الذى أنت فيه ، ولعل هذا بدوره يزيد من قلقك . وإن تركت المقعد لتسير بعض الوقت ستكون خطواتك غير ثابتة وعصبية ، ودون هدف . لن تتحول عيناك عن الساعة إلا لتعود إليها ، وسيحسب ذهنك الوقت المتبقى فى كل مرة تنظر فيها إليها . لو أنك ستستقل الطائرة التالية ، إذا رفعت عنك نصف المعاناة . لكن كيف تطمئن إلى كلمة شخص ، مهما كانت حسن نواياه ، فانه شخصيا لا يعلم اذا كانت هنالك أماكن خالية إلا بعد أن يرد إليه الكشف من الطائرة بعد اقلاعها من مطار القيام . تحاول قضاء الوقت فتطلب من نذل المقهى شرابا باردا . ثم بعد أن تتناوله ، وينقضى بعض الوقت ؛ تعود تطلب شرابا ساخنا ، قهوة أو شاى . تترك مكانك ، وتستأذن من زوجتك قائلا : إنك ستنزل إلى الدور الأرضى لترى ما إذا كان سيستهويك شراء سلعة من المتاجر . وحينما تهبط تبتدع عيوبا لكل ماترى من سلع . وتعود اليها ومعك علبة واحدة من البسكويت . تنتقل من المائدة التى تجلس عليها . والمقهى خال ، أو يكاد ، إلى أخرى لأن الجو حار والنافذة الغربية أكثر هواء ثم تعود لتنتقل مرة ثالثة لأن الشمس اقتربت من مائدتك . تتكىء برأسك على يديك . وتغلق عينيك لتنام . وتراودك

الأفكار فى الاحتمالات السيئة فتعتدل فى جلستك . فى كلال ، وتطلب إلى زوجتك أن تريح نفسها بأن تغلق عينيها لتنام . تعيد النظر فى ساعتك ، وتخبرها أنه لم يبق سوى خمس ساعات مثلا . وتبتهل إلى الله أن تصحح لك زوجتك خطأ حسابيا .

وحينما لا تفعل تتجه نظرك إلى الساعة لتتأكد بنفسك من أن زوجتك لم تخطىء حينما لم تخطئك وأخيرا وليس آخرا كما يقولون ، إذا كنت من المدخنين فانك تنتهز الفرصة لتشبع نهمك إلى التدخين فتظل تنفث السيجارة اثر أخرى . وكأنما تمثل فيها احتراق أعصابك . وعلى أى الأحوال فانه لاشك أن الانتظار والقلق عاملان قويان فى احتراق الأعصاب .

أثناء تواجدنا حضر ثلاثة من الماساى بعباءاتهم الحمراء وقوامهم الطويل وأجسادهم النحيلة والأقراط تتدلى من أعلى آذانهم . كان وجودهم وسط مظاهر المدنية غريبا . ويبدو أكثر غرابة وهم يقفون على البار يطلبون مشروبات خفيفة . ثم كان أعجب حينما جلسوا الى احدى الموائد ، وطلبوا الغذاء ولما انتهوا منه تركوا مجلسهم وارتحلوا .

أخيرا حلت الساعة الخامسة وتركنا ، زوجتى وأنا ، المقهى ونزلنا إلى الدور الأرضى لنرى ماسوف يكون عليه حظنا . بدأ المسافرون يفدون . كانت اللافتة تشير إلى أن هنالك طائرتين الى دار السلام ولا يوجد غيرهما . احداهما موعد قيامها فى السابعة ، والأخرى فى التاسعة . وأخذنا نحصى الوافدين ، وأملنا يتضاءل كلما ازداد عددهم . رصوا حقائبهم ولا أثر لحقائبنا . ثم لما حلت الساعة السادسة رأيت جمعه ، حفظه الله يحمل حقائبنا . وببساطة واضحة أعاد ترتيب الحقائب ، ووضع حقائبنا فى أول الصف . وقفز قلبينا فرحا . ذهبت ، وأعطتنى الموظفة جواز صعود الطائرة ،

وزن الحقائب ، وانتهت بذلك جميع الإجراءات فشكرتها ، وشكرت السيد / مصطفى ، وكذلك طبعاً جمعه .

ومن الطريف أن جمعه لم يكن يعرف معنى اسمه ، وكان ينطقه جوما ، وكنت أثناء فترة الانتظار المملة أقطع الوقت بالحديث معه ، صحح لى النطق وقال ، جوما « مع تعطيشه الجيم ، وتفخيم الألف ، وقضيت بعض الوقت أناقشه ، أن صحة اسمه كما أنطقه ، وأنه يعنى يوم الجمعة ، ولم يقتنع حتى شبهت له النطق بكلمة « عمر » ، وهنا فقط أحس أنى ربما يكون لى بعض الحق .

مررنا بالتفتيش ، والجمرك ، ودخلنا القاعة الداخلية للمطار انتظاراً للرحيل . ومضى الوقت سريعاً حتى كادت الساعة تصل إلى السابعة ، ولم ينادوا على ركاب الطائرة ، وبذلك بدا القلق يساورنا مرة ثانية . ترى ألم يفرغ القدر من ألاعيبه معنا ؟ لا ...

لم يكن قد انتهى فقد كان فى جعبته بعضها . سمعنا النداء على ركاب الطائرة ، ففرحنا ، وقام الركاب يتسابقون إلى باب الخروج لكن قلوبنا كادت أن تتوقف حينما سمعنا أننا جميعا مطلوبون للتوجه إلى مكتب الشركة لأن الرحلة ألغيت !! . هكذا ببساطة .

... ألغيت . نظر الركاب إلى بعضهم ببلاهة يتساءلون فى حين جلست دون كلمة إلى جانب زوجتى التى راحت تمطرنى بالأسئلة وكأنى أعلم ما لا تعلم . كان معنى هذا قطعاً أن جميع الركاب ، وكذلك من سيأتى بعدهم ، سوف يتزاحمون على الطائرة الأخيرة ، التى ان تتحرك قبل ساعتين ، أى فى التاسعة ، ومعنى هذا بالتالى أن منا من سيقضى ليلته فى المطار ، والله أعلم ماذا بعد ذلك .

على أن الله كان رؤوفاً بحالنا فما لبث المذياع أن أعلن أنه لاداعى للتوجه إلى مكتب الشركة حيث أن هناك طائرة سوف تقوم فى الثامنة أى بعد ساعة. كنا جالسين، زوجتى وأنا، إلى جانب باب الخروج، ووقفت أمامنا سيدة أمريكية فى العقد الرابع من عمرها، وتبادلنا الحديث أولا عن الموقف الذى وجدنا أنفسنا فيه، واحتمالاته ثم تدرج إلى الأحاديث الشخصية. قدمنا لها أنفسنا، وقدمت نفسها باسم Jenny Johanson وقالت إنها، وزوجها، يعملان كمدرسين فى مدرسة بلوساكا، وأن عقدهما لمدة أربع سنوات قضيا منها إثنين ونصف. واستمر حديثنا بعد ذلك فى الطائرة لأن الطائرة قامت فى موعدها الجديد، كما أنها هى وزوجها جلسا أمامنا. عرفتنا بزوجها وقالا إن المدرسين الأجانب فى أفريقيا يتبادلون الشقق فى أجازاتهم؛ وبذلك يزورون بلاداً عديدة دون أن يدفعوا شيئاً فى الإقامة. وتشعب الحديث وعرفا إننى أزمع الذهاب إلى زنجبار، ثم إلى موزمبيق لأقضى أسبوعين فى الأخيرة. قالا أنهما لم يذهبا إلى موزمبيق، ولكنهما لم يسمعا عنها شيئاً كبلد سياحى؛ ولا يعتقدان أنها تستحق أن يقضى فيها هذه المدة الطويلة. ولكنهما ذهبا إلى زيمبابوى، وأن هرارى، وهى العاصمة، وكان إسمها القديم سالسبورى، بلد لطيفة؛ يمكن منها زيارة شلالات فكتوريا كان هذا فصل الخطاب لأنى كنت أود أن أزور الشلالات بأى ثمن إذ أن معلوماتى عنها، سواء ماقرأته، أو ماسمعته؛ أنها تفوق شلالات نياجرا، وحينما سألت الصاحبين الجديدين اقرا بذلك.

كان من الجلى أنهما يريدان زيارة القاهـــرة، وأن ادعوهما الإقامة فى فى منزلى، خاصة وأنهما ذكرا أنهما يقيمان فى لوساكا؛ وأنهما سيعودان فى الخامس من الشهر الحالى، وأنهما يسرهما جداً أن يستقبلانا فى منزلهما، ويستضيفانا مدة مكوثنا! اعتذرت لضيق وقتى، ولكننى دعوتهما لقضاء بعض الوقت فى القاهرة، وفعلا فرحا ووعدا بالحضور.

وصلت الطائرة أخيراً إلى دار السلام، وكانت الساعة التاسعة والنصف واستلمنا حقائبنا وودعنا صاحبينا الجديدين، وأكترينا سيارة لتقلنا إلى فندق كلمينجارو، في الفندق وجدنا أن غرفتنا كانت محجوزة. وأرسلنا الحقائب إليها، وقررنا أن نغتسل ثم نتناول شيئاً من الطعام في الكافتريا التي تظل مفتوحة وتقدم عشاء حتى الثانية عشرة مساء. وهنا كانت آخر ألاعيب القدر في ذلك اليوم إذ لم يكن في الفندق مياه ...!!

هبطنا إلى الاستقبال، وسألنا الموظف معتقدين أن الأمر لن يتعدى دقائق؛ أو حتى ساعة؛ أو اثنتين إلا أنه أجاب أن العطل من البلدية، ولا يدري متى يتم الإصلاح؟ تناولنا العشاء، وحينما صعدنا لم يكن هناك مياه، وكانت لدينا بقية مياه من زمزميتنا، استعملناها بحذر وسلمنا أمرنا إلى الله ونمنا.

١/٣

هذا يوم ملىء بالنشاط؛ والحركة؛ قضيناه في دار السلام. بدأت بأن ذهبت مبكرا إلى كيرسلي، وهو فيما أعتقد أحسن مكتب سياحة في تنزانيا، وطلبت منهم أن يحجزوا لنا على الطائرة التي سترحل الى زنجبار في اليوم التالى ١/٤ في الساعة الخامسة والربع مساء على أن تكون العودة في يوم ١/٦ أي بعد الثامنة صباحاً، كما طلبت أن يحجزوا غرفة في أحد الفنادق المحترمة. تركتهم ليقوموا بالحجز على أن أعود اليوم في الساعة الثالثة مساء لأتأكد من إتمام الحجزين.

ذهبت بعد ذلك إلى شركة طيران موزمبيق لتأكيد حجز أماكن لنا على طائرتهم التي ستقلع من دار السلام في يوم ١/٨ الى مابوتو، عاصمة موزمبيق. حينما انتهيت من هذين كان على أن أذهب إلى سفارة موزمبيق لتعديل تأشيرة الدخول لتكون متعددة بحيث يمكنني أن أذهب الى

موزمبيق ؛ وامكث بها بضعة أيام، ثم منها الى هرارى ، عاصمه زيمبابوى وامكث بها أيضاً بضعه ،أيام ثم أعود الى ما بوتو عاصمة موزمبيق ومن ثم الى دار السلام لأستقل الطائرة الى القاهرة .

فملا قدمت الطلب إلى السفارة ، وطلبوا مني العودة فى الساعة الثانية والنصف لاستلام جوازى السفر ، بهما التأشيرتان المطلوبتان . سألت عن سفارة زيمبابوى ، وقالوا إنه لا توجد لها سفارة فى تنزانيا ، ولكن ربما يكون لها فى موزمبيق . ذهبت بعد ذلك إلى مكتب شركة مصر للطيران فى محاولة للسؤال عن مواعيد الطائرات من مابوتو إلى هرارى ، والعكس ، ووجدت أنه يمكن السفر من ما بوتو إلى هرارى كل يوم خميس ، وسبت كا إن العودة كذلك . كان هذا يناسبنى تماما حيث أستطيع الذهاب والعودة لأستقل الطائرة، إلى دار السلام ومنها الى القاهرة إن شاء الله. لكن أثار أحد الإخـوه نقطة جعلتنى أعيد حساباتى . لماذا لا أسافر من مابوتو الى هرارى، ثم من الأخيره راسا الى دار السلام ؟ ما الحكمة فى العوده الى ما بوتو ؟

أضاف الى هذا سببا آخرا . صحيح أن الطائرة من مابوتو الى دار السلام تصل فى الساعه التاسعة عشرة،وصحيح أن طائرة شركة مصر للطيران تقوم فى الساعة الواحده ، من صباح اليوم التالى ، أى بعد خمس ساعات ، لكن ليس هنالك ما يمنع من حدوث تأخير فى الرحلة ، أو حتى الغائها ، فأجد نفسى مضطرا الى البقاء أسبوعا كاملا . ولماكانت تجربتى مع الطيران ما تزال قريبة عالقة بالذهن فقد وافقت على تغيير خططنا .

تركت تذكرتينا مع السيد رجانى ، وهو هندى يعمل فى شركة مصر الطيران ،الذى وعد بأن تكون معدة حين عودتنا من زيمبابوى فى يوم الخميس القادم الموافق ٦ / ١ ، وعلى أن يؤكد مواعيد الطيران ، وأسعاره فى الغد

قبل سفرنا . شكرته ، كما شكرت السيد مصطفى عبد الرحمن أمين المدير الاقليمى للشركة فى تنزانيا الذى لاقيت منه أكثر مما أطمع من معونة . مررت بعد ذلك على السيد ما ليو مدير شركة ناشيونال تورز ولم أجده ، فتركت له رسالة . وكان الوقت قد حان للغذاء . فعدت الى الفندق ، وكانت المياه لغبطتنا قد وصلت .

لم نكد نتناول طعامنا و نستريح قليلا حتى عدت الى سفارة موزمبيق واستلمت جوازى السفر بعد تعديل تأشيرتى الدخول ،ومن هنالك توجهت الى شركة كيرسلى ،واستلمت تذكرتى الطائرة الى زنجبار فى الغد فى الساعة الخامسة والربع ،كما أستلمت أيضا الحجز فى فندق بواوانى ، ومن ثم عدت الى الفندق ، حيث قضينا باقى الوقت وتناولنا العشاء .

٤ / ١ بدأت يومى بأن ذهبت الى السيد ماليو ، الا أننى وجدت أن المصعد معطل ، وبما أن مكتبه فى الدور السادس ، وبما أنه لم تكن لديه كياسة الاتصال فقد صرفت النظر عنه . من هناك ذهبت الى مكتب شركة مصر للطيران حيث قابلت السيد أحمد شوقى المدير المالى لأول مرة ، إذ أنه كان مسافرا ، كما قابلت السيد مصطفى المدير الإقليمى ، والسيد رجائى الذى كان قد أعد تعديلات لبرنامج رحلتى من مقتضاه أن يصبح يوم ١/٨ هو يوم السفر الى موزمبيق .

ثم يوم ١٢ / ١ السفر الى هرارى عاصمة زيمبابوى من ما بوتو بموزمبيق .

ويوم ٢١/ ٤ السفر من هرارى الى دار السلام .

ثم يوم ١/٢٣ من دار السلام الى القاهرة ان شاء الله .

قبلت الوضع ، ووعدنى أن تكون التذاكر معدة ، ومحجوزة فى يوم الخميس عند عودتنا من زنجبار ، فشكرته على حسن صنيعه . ولم يكتف السيد رجائى بهذا بل انه صحبنى الى مكتب الهجرة ليسأ لهم عما اذا كانت هنالك مضايقات فى تكرار عـــودتى الى البلاد بعد الخروج منها فأجابوه بالنفى .

كان لدى طبقا لبرنامجى يومان فى دار السلام لا أدرى كيف أقضيهما ففكرت فى الذهاب الى الجنوب حيث توجد حديقتان مفتوحتان هما ميكومى ، وسيرنجتى ، وحينما سألت قيل لى أن الأخير مغلقه مؤقتا لان الأمطار أفسدت الطرق ، وأغلقتها تماما ، أما بالنسبة لميكومى فقد طلبوا منى أن أدفع ما يقارب ٣٦٠ دولارا عن الشخص فرفضت حيث أنى وجدت أن ميزانيتنا لا تحتمل هذا ، خاصة بعد تعديل خطتنا . ذهبت الى شركة سياحية تدعى تاكيم ، وسألتهم عما إذا كانوا يستطيعون تأجير سيارة ليوم الجمعه للذهاب الى باجامويو ، التى كانت العاصمة القديمة للبلاد، وأكبر سوق للرقيق فى القارة فأجابوا بالايجاب،وقالوا إن على تأكيدالحجز يوم الخميس بعد عودتى من زنجبار .

عدنا ، زوجتى وأنا ، الى الفندق بعد جولة قصيرة فى السوق لننتقى بعض الهدايا ، وأخبرت موظف الاستقبال فى الفندق بأننا نريد سيارة تستقلها الى المطار فى الساعة الثالثة والثلث ، ثم تناولنا طعام الغداء فى مطعم وهو يقع فى أعلى المبنى ، ويطل مباشرة على الميناء ، والمنظر جميل حيث أن المرء يستطيع أن يرى ، وهو جالس ، المحيط الهندى ، ثم الشاطىء الافريقى وقد كسته الخضره بحيث تتصل المياه بها ، ثم شبه قناه وسط هذه الخضره تؤدى الى ميناءين ، الخارجى منهما متسع ، والداخلى أقل اتساعا ،

وفى كل جزء من الأرض حول الميناءين توجد الخضرة . الواقع أن منظر البواخر الضخمة وهى تقف كأنما هى محاصره بين خليجين داخليين ، ولا منفذ لها الى البحر أخاذ .

انتهينا من طعامنا ، واخذنا حقائبنا تاركين حقيبتين فى الفندق لم نر داعيا لأخذهما حيث أن اقامتنا فى زنجبار لن تزيد على يوم وليلتين ، ومن ثم توجهنا الى المطار . أقلعت بنا الطائرة فى تمام الساعة الخامسة والثلث لنصل الى مطار زنجبار فى الخامسة وخمسين دقيقه .

جزيرة زنجبار

يقول صاحب جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ان الكلمة أصلها عربى وأنها محرفة ، وكانت بر الزنج ويقال لها بالسواحيلية القوجاء ، ومعنى القو بالعربية المنسف ، و-اه امتلأ .

وهى تقع فى المحيط الهندى على بعد ست درجات جنوبى خط الاستواء وعلى بعد حوالى الاربعين كيلو مترا شرقى دار السلام ، وبها أربع قرى بالأضافه إلى العاصمة زنجبار . مكوكوتونى إلى الشمال ، وتشواكا إلى الشرق ، و اكواندوتشى ، وكيزمكازى إلى الجنوب .

ويقول صاحب جهينة الأخبار إن طولها من أوسع نقطة منها ٥٢٤ ميلا ، وعرضها من أوسع نقطه منها ٢٤ ، ميلا وأن مسطحها ٦٤٠٠ ميلا مربعا ، وسكانها حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ نسمه ، وكان خمسهم من العرب ، وحوالى ٢٠٫٠٠٠ من الهنود ، ولكن بعد الثورة هاجر الهنود ، ولم يبق من العرب سوى النصف .

وتقول الكتب الجغرافية إن مسطحها ثلاثة الآف كيلو مترا مرابعا ، وأن عدد السكان ثلاثمائة واربعين الفا ٣٤٠٫٠٠٠ .

ولم يكن تاريخ زنجبار يختلف عن سائر الساحل الشرقى لافريقيا فقد كان دائما خاضعا للعرب ، ويؤمة التجار الهنود ، ثم حينما جاء البرتغاليون غزوا الجزيرة ، وأخيرا فى الثلث الاول من القرن الثامن عشر طردهم منها العمانيون .

لكن تاريخ الجزيرة اختلف عن الساحل حينما نقل السلطان سعيد بن سلطان ، حاكم عمان ، مقر سلطنته اليها وذلك فى سنة ١٨٣٢ وبذلك انتقل اليها كثير من العرب ، وأضحت الجزيرة فى مركز ممتاز اذ كان يخضع لها كل الساحل الشرقى الأفريقى حتى موزمبيق التى ظلت خاضعة للبرتغاليين .

ازدادت أهمية الجزيرة حينما أدخل إليها السلطان سعيد زراعة القرنفل ، ولم تلبث إلا قليلا حتى أضحت وهى جزيرة بمبا إلى شمالها تصدران ٩٠ ٪ من احتياجات العالم ؛ وشجع السلطان الاكتشافات العربية داخل القارة الافريقية ؛ فتوغل التجار ، وضموا الأراضى باسم السلطان حتى قيل إنه إذا نفخ زامر فى زنجبار ؛ رقص الناس على أنغامه عند البحيرات .

مات السيد سعيد فى أكتوبر سنة ١٨٥٦ فانقسمت أملاكه الى جزءين ، سلطنة عمان ؛ وآلت الى اكبر أولاده ثوينى ؛ وزنجبار وأفريقيا الشرقية ؛ وآلت الى السيد ماجد . والواقع أن تقسيم المملكة كان حيلة بريطانية بقصد اضعافها اذا ادعت بريطانيا أن السلطان سعيد قد أرسل لها خطابا يوصى بهذا ؛ وهو مالم يحدث .

كان من نتيجة هذا الانقسام أن اضحى سلاطين زنجبار فى الواقع مجرد دميات تحركها بريطانيا بواسطة قناصلها ، وطبقا لمصالحها . استولت بريطانيا على كينيا ، وجزء كبير من الصومال ، وأعطت جزءاً آخراً الى فرنسا ؛ وايطاليا ثم وافقت الألمان حينما اقتطعوا لأنفسهم تنجانيقا ؛ وفى النهاية لم يبق لسلطان زنجبار سوى الجزيرة نفسها ، والجزيرة الخضراء ؛ بمبا وحتى فى هاتين لم يكن فى استطاعة أى من السلاطين الحركة الا بأمر القنصل البريطانى ولعله يكفى الآن لأى زائر للمدينة أن يرى القنصلية الى جوار قصر السلطان ، والاولى تتفوق بهاء وجمالا ، ليتصور مدى السلطة التى كان يتمتع بها القنصل البريطانى .

انتهت هذه الصداقة بين بريطانيا وسلاطين زنجبار أخيرا بفرض الحماية البريطانية عليها فى أول يوليو سنة ١٩١٣ ، وبذلك انتقلت العلاقات من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات !!

وفى سنة ١٩٦٣ أعلنت بريطانيا منح زنجبار الحكم الذاتى ، وفى يناير ٦٤ أطيح بآخر السلاطين ، وأعلنت الجمهورية وفى ابريل من السنة نفسها أعلن اتحادها مع جمهورية تنجانيقا تحت اسم جمهورية تنزانيا الاتحادية .

١٩٨٣/١/٤

سبق أن وصفت مطار دار السلام ، وقلت إنه لا يليق بمدينة كبيرة والواقع أن هذا تأكد فى رحلتنا الحالية فقد تصادف أن طائرة أخرى ستقلع فى الموعد نفسه إلى مطار كليما نجارو ، وامتلأت الصالة الصغيرة بركاب الطائرتين ، فماذا لو كان هناك ركاب طائرة ثالثة ، أو أكثر ؟ على أى الأحوال اقلعت طائرتنا فى موعدها تقريباً كما ذكرت ، ووصلت إلى مطار زنجبار بعد نصف ساعة . والمطار لا يزيد على مبنى صغير مدخله لا يتناسب مع أهمية الجزيرة ، ولا يعطى فكرة مشرفة عنها ، خاصة وأن وسائل الإعلام التنزانية لا تكاد أن تذكر شيئاً عنها ، لهذا فهى غير معروفة من الناحية السياحية ، حتى أن مؤسسة السياحة التنزانية مثلا بنت فندقا سياحيا فى جزيرة مافيا ، وعرضوا على الذهاب إليها مرتين بشتى الوسائل لكننى كنت قد قرأت الكثير عن الساحل الشرقى لافريقيا برمته واستطيع الحكم على ما يرى ، وما لا يرى ، لهذا أعددت لرحلتى إلى زنجبار بنفسى ، دون معونة من مؤسسة السياحة التنزانية .

ومع هذا فقد خدعت ، إن سكوت وسائل الإعلام جعلنى أعتقد أنه يكفى لزيارة الجزيرة ، يوم ولهذا فضلت أن أقضى ليلة الخامس من الشهر ،

وليلة السادس بحيث يكون يوم الخامس لى كاملا أقضيه فيها ، ولو تبعت نصيحة السياحة ، وما رتبوه لى لذهبت فى الرابع وعدت فى الخامس ، وما رأيت حتى القليل الذى رأيته . والواقع انى خدعت باقتصارى على يوم كامل لمشاهدة الجزيرة ، وهى تستحق أن يقضى المرء فيها أسبوعا .

حينما دخلنا المطار كان علينا أن نبرز بطاقة الحجر الصحى لإثبات أننا تطعمنا ضد الكوليرا ، وهو إجراء غير عادى حيث أن هذا الاجراء إنما يتم اثناء دخولنا تنزانيا . على أن المرء ربما يتغاضى عن هذا حيث أن زنجبار جزيرة قائمة بذاتها ، وتأتيها السفن من شتى انحاء العالم، وربما وصلت إليها الطائرة رأسا وهنالك مبرر إذا لإجراءات صحيحة خاصة . لكن الشىء الغريب أنه كان على الاجانب إبراز جوازات سفرهم ، وإثبات اسمائهم فى كشف معد لذلك ، مع تاريخ الدخول ، ورقم الجواز ، وتاريخ السفر ، والعنوان الرئيسى ، ثم يقوم موظف الجوازات باعطاء تأشيرة الدخول بختم الجواز ، تماما كأنك تدخل بلدا ثانية فيما عدا أنك هنا لا تحتاج إلى تأشيرة دخول القنصلية .

لهاتين الملاحظتين سبب سيتضح فيما سنرويه من وقائع .

كانت أول مفاجأة سارة هو أن الطريق من المطار إلى المدينة يزيد عرضه على أربعين مترا ، وفى منتصفه جزيرة تفصل الذهاب عن الإياب ، المفاجأة التالية هى تلك الخضرة العجيبة التى تضارع ، أو تزيد على خضرة أوغندا ، والتى حفت جانبى الطريق . آلاف أشجار النارجيل (جوز الهند) الرشيقة ، تتطاول برقة متعانقة أحيانا ، ومتفرقة أخرى ، وأشجار الموز ، وشتى الأنواع أخرى ، سواء المنزرعة ، أو التى انبتتها الطبيعة، تتكاثر ، وتتواكب حتى أن المرء لا يرى فعلا الأرض ذاتها.

انطلقت بنا السيارة ، والسائق بهذه المناسبة فاتح اللون عربي السمات ، يرتدي جلبابا أيضاً وطاقية ظريفة ، أقول انطلقت ، والخضرة حولنا تدهلنا حتى دخلنا أطراف المدينة .

كان فندق بواواني بدوره مفاجأة . فهو يقع خارج المدينة بحوالي كيلو مترين ، ويطل مباشرة على المحيط ، وهو قصر عربي بكل ما في هذه الكلمة من معنى ؛ حتى أنني سألت عن تاريخه ظانا منى أنه كان ملكا لأحد السلاطين العمانيين ، لكنهم أجابوني بالنفي . الباب الخارجي ضخم بني على الطراز العربي حتى أنه قد كتبت في أعلاه الآية الكريمة « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً » باللغة العربية طبعاً ، وأرضه جميعها مفروشة بالسجاجيد ، حتى الدرج وعند المدخل صندوق كبير مطعم بالنحاس المشغول ، وقاعة الجلوس بها أبواب ذات مشربيات وبها صندوق آخر مشغول أيضاً بالنحاس وهكذا .

استقبلنا كاتب الاستقبال ، وخصص لنا الحجرة رقم ٢٣ ، وهي تقع في الطابق الرابع ، وحينما خرجنا من المصعد رأينا ردهة طويلة تقسم الطابق إلى جانبين وعرضها يزيد على خمسة أمتار ودخلنا الحجرة لنرى أنها مقسمة إلى قسمين أحدهما به فراشان وثيران ، والآخر حجرة استقبال تحتوى على خزانة ملابس ومقعدين ، وطاولة ، ونمريحة ، ومرآة ضخمة ، وجهاز تلفاز على طاولة خاصة .

وقد غطيت أرض الحجرتين بالموكيت . أما الحمام فكان واسعاً ونظيفاً ، حوى كل أسباب الراحة العصرية . بالإضافة إلى هذا وضع ترموس كبير به ماء مثلج وكان النادل هو الذي يملأه بمجرد أن يفرغ . والواقع أن الخدمة في هذا الفندق أحسن ما رأيت ، كما أنني اكتشفت فيما بعد أن الطعام أيضاً جيد

جداً . وبالرغم أننا فى تنزانيا عموما أكلنا جيداً ، إلا أن الطعام هنا يفوق سائر الفنادق بصفة قاطعة ، كما وكيفا . مع كل هذه الميزات ، ومع أننا أثناء إقامتنا لم تنقطع المياه الباردة أو الساخنة ، كما حدث فى كليمانجارو ، وسائر الفنادق فى تنزانيا ، ولا تعطل جهاز التكييف كما حدث فى نيو أفريكا ، أو أفريقيا الجديدة ، فإن سعر الإقامة ، والمأ كل واحد ، فيما عدا أن سعر الإقامة فى الفنادق الأخرى يشمل وجبة الإفطار ، وهو لا يشملها فى فندق بواوانى .

ومع أن الحجرة كما قلت تطل على المحيط مباشرة بحيث لا يبعد عنها بأكثر من خمسين مترا ، إلا أننا لم نسمع أصوات الأمواج ، ورأينا منظراً لعله لا يوجد فى بقاع أخرى كثيرة فى العالم حيث كانت الأشجار ، وأنا أعنى هنا أشجار كثيفة تشابه فى شكلها أشجار الموالح ، ولم أتحقق منها إذ كانت بعيدة ، كانت تمتد حتى تنبت وســـط المياه المالحة ، ومع هذا فإن خضرتها لم تتأثر مطلقاً ، ولا إصفرار فيها ، بل أننا لاحظنا بعض الشجيرات الصغيرة التى بدأت نموها فى نهاية الغابة وسط المياه ... لقد رأيت غابات النخيل على شاطىء العريش الجميل ، وهى تكاد تلامس مياه البحر ، كما رأيت بعض النخيل عند كسفريت ، فى البحيرات المرة ينبت داخل المياه المالحة فعلا ، لكن النخيل شجر قوى ، ولا يدخل مثل هذه المسافة فى البحر ، فقد امتدت الغابة لأكثر من مائتى متر داخل المحيط ، وما رأيته فى مصر كان إما على الشاطىء أو داخل المياه لأمتار قليلة فحسب . أمام نافذة الحجرة أيضاً كان تمثال رجل عرفت أنه كاروم أول رئيس لجمهورية زنجبار .

على أى الأحوال فقد تناولنا عشاءنا ، ونمنا مبكرين نسبياً توقعاً ليوم طويل فى الغد . نمنا نوما هادئاً عميقاً لا يزعجه صوت ، ولا يقلقه حس .

١/٥

على غير عادتنا تأخرنا فى نومنا ، ولم نفقه من ضروريات الصباح

إلا فى التاسعة . هبطت إلى الاستقبال أطلب أن أكترى سيارة تطوف بنا فى المدينة وضواحيها ، فاستدعى لى موظف الاستقبال سائقا اتضح أنه من أصل عمانى ، وأن اسمه خلفان بن محمد . وبهذه المناسبة لاحظت أن معظم السائقين فى زنجبار من أصل عمانى ، ولست أدرى هل العكس صحيح ، أم لا ، هل معظم العمانيون يعملون على سيارات أجرة ؟ اتضح أيضا أن السيد خلفان ، وهو فى منتصف الحلقة الثالثة من عمره ، يتكلم العربية ولهذا سررنا جداً ونحن نبادله الحديث . والواقع أن هذا الشاب كانت معلوماته واسعة جدا عن الجزيرة وسكانها ، وزراعتها ، كما لم يبخل علينا بشىء منها .

كان أول ذهابنا إلى مكتب شركة طيران تنزانيا لنؤكد حجز تذاكر العودة فى اليوم التالى . ثم بدأنا مطافنا فى المتحف القومى ، وهو متحف صغير ، لا يوجد به ما يستحق الذكر ، وقد جمعوا فيه أنواع الحيوانات ، والزواحف ، والأسماك ، والأصداف الموجودة فى الجزيرة ، كما وجدنا به بعض قطع قليلة جدا من آثار سلاطنة عمان ، مقعـــد الولادة ، وبعض خرق من ملابسهم القديمة ، لهذا لم تستمر زيارتنا له مدة طويلة ، وأثناء خروجنا وجدنا سلحفاه فى الحديقة هائلة الحجم ، وكانت قد أدخلت رأسها فى صدفتها الضخمة .

انتقلنا بعد ذلك إلى سوق المدينة ، وهو إن كان صغيرا إلا أنه يحتوى على الكثير من أنواع الخضر والفاكهة ، والأسماك ، والدجاج ، وقد استرعت انتباهنا خاصة الفاكهة ، إذ أن الموز مثلا لم أر أضخم منه ، وقطعا يزيد وزن الثلاثة أصابع منه على كيلو جرام ، ولكن هذا النوع ليس حلو المذاق ، وهم يشوونه ، أو يصنعون منه نوعا من الدقيق . إلى جانب هذا توجد المانجو وإن لم تكن ثمارها فى مثل حسن مذاق مالدينا ، وليست هى كذلك متعددة الأصناف ، وإنما يوجد منها صنفان أحدهما متوسط الحجم يشابه الفونس الكبيرة عندنا ، والأخرى فى نصف هذا الحجم . ويوجد الأناناس وهو حلو المذاق جدا ، والباباى وهو مثل العجور يأكلونه بالسكر والليمون ، ويكون

طيب المذاق يوجد كذلك البرتقال واليوسفي. والأول كبير الحجم، والثاني صغير. ولا داعي طبعاً لأن أذكر النارجيل، أو جوز الهند فهو كثير إلى درجة أن المرء يشاهده بالآلاف دفعة واحدة ثم توجد بعض أنواع لا نعرفها منها ما لونه أبيض شاهق يقارب البصل شكلا وليس هو ويطلقون عليه تفاح، ولم نحاول أن نتذوقه وإن كان خلفان ذكر أنه حلو المذاق.

بعد أن أتممنا جولتنا في سوق الخضر توجهنا إلى سوق العبيد، أو ما كان سوق العبيد، وهو لا يبعد كثيرا عن سوق الخضر، والسوق عبارة عن ميدان، يبدو أنه كان واسعاً، ومستديرا تظلله شجرة هائلة الحجم ويطل على جوانبه بعض المنازل القديمة التي يبدو أن التجار كانوا يحتفظون فيها بالرقيق فقد بنيت في سور الساحة الآن كنيسة إقتطعت جزءا كبيرا منها. وكانت زنجبار من أكبر أسواق الرقيق تستورده من القارة الافريقية، وتصدره إلى البلاد العربية، وفارس بل والهند مستعملة في ذلك المراكب الشراعية المسماه دهوى التي تستغل الرياح الموسمية في ترحالها، ذهابا وإيابا، واستمر الحال كذلك مع بعض التعديلات في قوانين تجارة الرق حتى ألغى تماما سنة ١٨٦٣ تحت ضغط الانجليز الذين استغلوا الإنسانية في تمزيق أوصال مملكة عمان، وقسموها إلى عمان وزنجبار، لتشمل الأخيرة الجزيرة والساحل الشرقي الأفريقي من الصومال إلى موزمبيق، ثم قطعوا أوصال الأخيرة، بدافع الإنسانية طبعاً، واستولوا على أكبر جزء من ممتلكاتها في كينيا، والصومال وأجبروا السلطان على أن يتنازل للالمان عن تنجانيقا، وبذلك لم يبق له سوى الجزيرة الصغيرة، وحتى هذه لم يكن له فيها حول ولا قوة.

من سوق العبيد انتقلنا إلى داخل المدينة لنرى قصر السلطان سعيد، وهو قصر أبيض كبير يطل على المحيط، وأمامه حديقة ظريفة، بها فسقيتان كبيرتان

وقال لنا خلفان إن الحكومة منعت التقاط الصور للقصر ، ولا أدرى لماذا إذ أنه ليس منطقة استراتيجية إلا أن يكون ذلك من ضمن وسائل محو أى أثر للعرب والإسلام فى شرق افريقيا . إلى جوار القصر مباشرة قصر آخر وإن كان أقل من الأول حجما إلا أنه يفوقه جمالا ، وهم يطلقون عليه قصر العجائب ، وكان مقر القنصل البريطانى ومن البدهى أن عظمة البناء إنما جاءت متعمدة من إنجلترا حتى يتضاءل إلى جوار مبناها قصر السلطان . إلى جوار القنصلية أيضاً توجد ثكنات الجنود وهو مبنى قديم محاط بسور ضخم ومن الطريف أنه من المسموح التقاط الصور .

صحبنا دليلنا الرقيق إلى مدخل المدينة القديمة ، وهى التى كان يقطن بها العرب، ومازالون وطرازها عربى مطلق من الأبواب الضخمة المزينة بالنحاس إلى المصاطب أمام المنازل ذات المشربيات والشوارع الضيقة نسبياً ، من هناك توجهنا إلى السوق العام ، وأعنى سوق البضائع، وهو ما يشابه إلى حد كبير سوق القرية لدينا وإن كانت كميات المعروضات والحركة أقل كثيرا . وقد لاحظت أن الجزء الأول من السوق تقف فيه للبيع سيدات هنديات ، وبعد حوالى عشرين أو ثلاثين حانوتا تحول أصحاب الحوانيت إلى أصحاب الجزيرة سواء من العرب ،أو سائر الأهالى. وحينما سألت دليلنا خلفان عن سبب ذلك قال إن الهنود قد هجروا الجزيرة ولم يبق منهم إلا القلائل، وهى حقيقة لاحظتها فعلا .

من سوق البضائع اتجهنا إلى الطريق الساحلى شرق الجزيرة ، كرة أخرى. ومما يؤسف له أنه قد فاتنى أن أطلب من مرافقنا أن يقوم بجولة حرة فى المدينة فكل ما رأيته لا يوحى إلا بالفقر ولم أر سوى بعض المنازل القديمة. والعمارات السكنية التى بنتها الحكومة ، ولا شىء سوى هذا . أعنى أنى لم أر منازل، أو عمارات لمتوسطى الحال ،أو ميسورها ولم أر قصورا ،أو أى دليل

على رفاهية بعض السكان ، ولا أدرى هل أغفلها السائق كما نسيتها ، أو أنها لا توجد أصالة .

أثناء سيرنا توقف خلفان أمام أحد المبانى القديمة ذات الثلاث طوابق ويطل على المحيط مقررا ان هذا المنزل بناه السلطان لغلادستون .

عرج بنا خلفان فى منعطف فى الطريق فوجدنا أنفسنا فى حديقة واسعة لاحد الفنادق أنسيت اسمه وهو الفندق الثانى فى الجزيرة ، ويطل بدوره على المحيط . اوقف السيارة فى احد اركان الحديقة ، ورأينا مبنى قديما لا يزيد على سورين متقابلين لا يبعد احدهما عن الآخر بأكثر من ثلاثة امتار . صعدنا درجا ضيقا الذى يمرا بين السورين، وقد تدلت من احدهما حلقات حديدية مثبتة بالجدار الضخم . كان طول السور لا يزيد على عشرين مترا وبه خمس من هذه الحلقات اى بين كل منها اربعة امتار تقريبا . وقد قررنا لنا خلفان ان هذا المبنى كان يستعمل لاستقبال العبيد ، او ترحيلهم ، وكانوا يقيدون بالسلاسل فى هذه الحلقات إنتظارا لشحنهم فى السفن .

تركنا المكان متجهين شرقا ، وتمهل السائق قليلا أمام مبنى أقرب إلى الدار الكبيرة منه إلى قصر ، وله حديقة واسعة،وقرر إنه مملك لاحد الأثرياء من دار السلام ، وأنه اشتراه حديثا . استأنفنا سيرنا ثم عرج بنا مرة ثانية فى إتجاه البحر ، وتوقف عند أول طريق يبدو انه خاص إذ تحف به أشجار ضخمة ،ويوجد جنديان فى أوله ، إستأذن منهما السائق ، ثم انطلق فى الطريق حتى وصلنا إلى ساحة تحوطها الاشجار ، وبوسطها فسقية ماتزال بها المياه وإن كانت مهملة . أمامها رأينا آثار قصر قديم قد احترق ، وتهدم ، وإن بقيت به بعض الاعمدة ، والجدران ، وماتزال آثار النيران واضحة بها ، وقرر لنا خلفان أن هذا كان قصر برغش وهو أحد سلاطين زنجبار ، وقد قذفه الأسطول الانجليزى بالمدافع حينما حاول أن يستقل برأيه ويستبعد التحكم البريطانى .

تركنا المدينة ، وسرنا بين الغابات والأشجار ، وإنما استعمل هنا تعبير الغابات ، لأن شجرة النارجيل تتناثر بالآلاف ، كما أنه لا يوجد جزء واحد من الأرض لا تنبت به الأشجار المختلفة ، منها ماهو ذو نفع كما سنذكر ، ومنها مالا ينفع منه سوى الاخشاب التربة حمراء ، رطبة ، وهى خصبة إلى حد لم أر مثله إلا فى اوغندا ، وربما فاقت هذه تلك رأينا فى الطريق اكواخا متباعدة أمام الكثير منها أكوام ثمار جوز الهند ، وقد تركوها فى الشمس لتجف ثم تشتريها منهم الحكومة .

سألت السائق أثناء الطريق عن القبائل التى توجد فى الجزيرة ، والمدن فقال إنه لا توجد سوى مدينة زنجبار ، ومدينة أخرى صغيرة اسمها كلوجى أما عن القبائل فأجاب بأنه يوجد السواحليون ، والنياموايزى ، ويجوجو ، وماكونديه ، والواقع ان معلوماته هنا صحيحة إلا أن السواحليين ليسوا قبيلة بالمعنى المفهوم ، وإنما هم نتاج التزاوج بين العرب القدامى وأهالى البلاد ، وربما اعتبرهم السائق قبيلة على أساس أنهم أضحوا جنسا قائما بذاته .

وحينما سألته عما إذا كان العمانيون العرب يختلطون بالأهالى ، ويتزاوجون منهم . نفى ذلك ، بل وقرر أن عددهم يتضاءل بصفة مستمرة حتى ان منهم كثيرين قد هاجروا فعلا . سألته عن الأديان فذكر أن نصف الأهالى من المسلمين ، وأن ربعهم من المسيحيين ، والربع الباقى وثنيين .

إنطلقنا بين الاشجار ، والنباتات ، وتوغلنا فيها ، وكان قد مسنا بعض العطش ، فطلب منا السائق الانتظار قليلا . وتصادف أثناء الطريق أن لقينا رجلا فى الحلقة الخامسة من عمره يركب دراجة ، وقد حمل أمامه كمية من ثمار كبيرة برتقالية اللون ، كما حمل خلفه بعض ثمار النارجيل الخضراء .

استوقف السائق الرجل وتخاطب معه بالسواحيلية فأخرج الرجل سكينا وتناول إحدى الثمار البرتقالية ، وهى تشبه إلى حد كبير مانسميه عندنا القاوون ، وضرب فيها بالسكينين فإذا بداخلها مياه صافية . سألت خلفان عن ماهية الثمرة فنظر إلى دهشا ، وقال إنها النارجيل أى جوز الهند ، ولكن قبل أن تجف ، او تجفف ، وجاء دورى فى الدهشة فعلى كثرة ما رأيت لم الحظ ذلك .

شربنا ، زوجتى وأنا ، ماء قراحا بارد فيه بعض حلاوة حتى امتلأنا من ثمرة واحدة ، وشرب خلفان عصير ثمرة أخرى ، وألقى الرجل بالثمرتين على جانب الطريق ، فلم يعد لهما فائدة ، ولا يمكن تجفيفها بعد ذلك ، ودفعنا ثمنا للثمرتين ستة شلنات ، أو مايوازى ستين قرشاً عندنا بالسعر الرسمى ، أو عشرة قروش بسعر السوق السوداء . سرنا بعد أن ارتوينا قليلا فى الطريق المرصوف ، ثم دخلنا بين المزارع فى طريق غير مرصوف حتى وصلنا إلى ساحة أوقف خلفان فيها السيارة ، وطلب منا النزول قائلا إن علينا أن نسير قليلا لنرى ما أسماه بالكهف .

كانت الشمس قوية ، والحرارة والرطوبة ، شديدين لكننا فى الواقع لم نبتعد بأكثر من ثلاثين متراً حتى رأينا درجا من الصخر ينحدر إلى باطن الأرض ، وقد وضعت على جانبه مواسير حديدية يمكن استعمالها لتسهيل عملية الهبوط والصعود . نزلنا ، السائق ، وأنا . بينما امتنعت زوجتى بعد نزول حوالى عشرة درجات كانت الدرجات تزيد على الأربعين ، ولما لم تكن فتحة الكهف كبيرة فإن الظلام سرعان مابدأ يكتنفنا حتى إذا وصلنا إلى القاع كنا بالكاد نرى موطىء أقدامنا كما أنى رأيت الكهف ممتداً تحت الأرض فى ظلام تام . سرت على أرض زلقة ، واشتدت الرطوبة حتى أنى كنت

أنصبب عرقا ، وبعد عشرين مترا لم أعد أرى شيئاً . سألت السائق إلى أين يؤدى هذا ، أجاب بأن هنالك نبع عين مياه صافية باردة ، ولا يعلم ما وراءها ، فلم أر داعيا للاستمرار حيث أنه لم تكن معنا مصابيح كهربائية ، أو حتى مجرد نيران عادية ، وعلى هذا عدنا أدراجنا دون أن نخوض أكثر من ذلك .

لم نكد نسير دقائق قليلة فى الطريق غير المسفلت حتى توقف بنا خلفان مرة أخرى ، وأشار إلى شجرة باسقة لعلها أطول من أية شجرة كافور بالغة عندنا . قال لنا إن هذه شجرة الصوف ، وكنت قد قرأت عنها كثيرا الا أنى لم أشاهدها ، وهى شجرة باسقة كما ذكرت ، ويتدلى من أغصانها الصوف ، كما يتدلى عندنا القطن إلا أنه أغزر وأنعم ، والأهالى يستعملونه و غزل ملابسهم الشتوية . وبهذه المناسبة فانى أن أذكر أن موسم الأمطار يبدأ فى زنجبار فى الشهر القادم أى فبراير ، والأمطار غزيرة جداً . أما مبانى الأهالى فى الأرياف إن صح التعبير ، فليست هناك إلا مزروعات قليلة واعتماد الأهالى على ما تجود به الطبيعة ، فهى عبارة عن أكواخ مستطيلة منحدرة السقف تبنى بأفرع الأشجار ، والطين ، وسعف نخيل جوز الهند .

تركنا المكان ، وعدنا فى الطريق المرصوف بعد أن أخبرنا خلفان أن امتداد الطريق لا يؤدى إلا إلى المحيط . قال لنا إن الحكومة هى مالكة الأرض جميعها ، وأنها تعطى لمن يريد ثلاث ديكات ، ولم أعرف تماما مساحة الديكة ، ليجنى محصولها ، وأن من النادر أن يقوم أحد بزرع جزء من أرضه ففيها عادة يوجد النارجيل ، والمانجو ، والموز وفى هذا ما يكفيه لمعيشته ، وربما زرع بعض الكاسافا فى مساحة لا تزيد على قيراطين ، ومنها يأخذ حاجته من الدقيق ، ويكفى بعد هذا أن تكون لديه بضعة دجاجات لا تحتاج إلى رعاية أو عناية لتمنحه البيض واللحم . اما الأبقار والثيران فقد لاحظنا ندرتها ، بمعنى أوضح أن هذه حياة أشخاص لا يريدون العمل ، وقد أعطتهم الطبيعة الكثير فقنعوا منها بالقليل .

أثناء سيرنا توقف السائق عند بعض الحشائش الأرضية ، أو ما ظنناه حشائش ، وقد تنبهنا بعد ذلك إلى أن النبات له شكل خاص يتميز به عن الحشائش العادية . اقتطع بضعة أوراق فالنبات يكون صحبة مستديرة من الأوراق الرفيعة الطويلة ، وأعطاها لنا ، وحينما شممناها وجدنا أنها ذكية الرائحة ، وقال إن الأهالى يستعملونها بدلا من الشاى الأخضر وبهذه المناسبة قد يكون من المفيد هنا أن نذكر أن نبات الكاسافا شائع فى جميع بلاد أفريقيا وهو يشابه الكتان ، وإن يكن لا زهر له ، والأهالى لا ينتفعون بسيقانه ، كما أنه لا ثمار له ، وإنما يزرعونه من أجل جذوره ، يستخرجونها من الأرض ، ويجففونها على أسلاك فى الشمس ، والهواء ثم يعيدون تجفيفها بطرحها على الأرض معرضة للشمس فيصير لونها شاهق البياض ، وبعد ذلك يطحنونها ويستعملونها كمسحوق بديلا عن الدقيق فى صنع الخبز . والنبات يمكث فى الأرض ثلاثة أشهر وأربعة .

اتخذنا سبيلا آخرا ، ولا نزال فى شرق الجزيرة ، وشاهدنا الأناناس وهو ليس شجرا ، وإنما هو نبات يزرع فى الأرض ، وأوراقه شبيهة بسعف النخل ، وإن كانت أقصر ، وهو نبات أرضى لا يتجاوز ارتفاعه نصف متر إلى ثلاثة أرباع المتر ، دائرى الشكل ومن وسطه تبزغ ثمرة واحدة من الأناناس . أرانا دليلنا الرفيق أيضاً شجرة عالية لم تكن تمتد فروعها إلى مسافة بعيدة ، وقال عنها إن الأهالى يسمونها شجرة البندق . أشار خلفان إلى أحد الصبية الموجودين ، وكلمه ، فهز الصبى رأسه موافقا وابتدأ يتسلق الشجرة فى خفة وسرعة ، ثم مالبث أن ألقى إلينا من ارتفاع يزيد على عشرة أمتار بثمرة لونها أخضر فاتح شبيهة بالبندق ، وإن يكن حجمها أربعة أو خمسة أضعاف حجمه . أخرج السائق مطواته وشق الثمرة نصفين ، ومن الداخل ظهرت نواه أعطانا إياها ، فاذا بها ذكية الرائحة جدا ، وقال إنها

تستعمل فى الحمام، فتوضع فى المياه الساخنة قبل الاستحمام لتعطى المغتسل رائحة طيبة. هبط الصبى فأعطيناه شلنا، وأردنا أن نأخذ معنا ثمرة أخرى فتطوع صبى آخر، وفى هذه المرة صعد إلى ارتفاع يزيد على خمسة عشرة مترا وألقى إلينا بالثمرة، فاحتفظنا بها وأعطيناه شلنا بعد هبوطه.

قاد السائق السيارة فترة بعد ذلك، ثم توقفنا عند أرض كثيرة الأشجار وسار بنا إلى إحداها وشاهدنا أحد النباتات المتسلقة شأن اللبلاب، وإن تكن أوراقه أعرض كثيرا. كان النبات قد تسلق على إحدى الأشجار ومد خلفان يده فقطف ثمارة، فاذا بها حبيبات خضراء صغيرة جدا، قد تعلقت متراصة على جانى غصن رفيع وقد اسودت ثلاثة أو أربعة منها فى الطرف الأعلى وعرفناها للتو، فهى ثمار الفلفل الاسود، وتترك لتجف على الغصن ثم تجمع إلى جوارها رأينا أشجار الكاكاو.

إلى مكان قريب تحركت سيارتنا ثم توقفت ونزلنا، وأشار خلفان إلى إحدى الأشجار التى تشابه إلى حد بعيد شجرة الجوافه، وإن تكن أوراقها أصغر حجما. لم يكن بالشجرة ثماره أو أى شىء يوحى بفائدتها إلا أن الشاب أخرج مطواته واقتطع جزءا صغيرا من لحائها وأعطانا إياه. وما أن شممنا حتى عرفنا من فورنا. هى القرفة. أرانا الشاب أشياء أخرى نعرفها لكننا لم نعرف مصدرها. رب جلت قدرته، ينوع من مصادر نعمته.

استمر سيرنا بعد هذا مدة لكى نصل إلى مايسمونها الشوائب، وهى مزارع القرنفل. النبات الذى أدخله إلى الجزيرة السيد سعيد سلطان عمان، وهى شجرة كبيرة نسبيا كشجرة البرتقال، ويزرع شتلا فى الأرض ثم ينقل ليبدأ فى الاثمار بعد سنتين أو ثلاث، وليستمر مثمرا مدة مماثلة، وزنجبار تصدر ٩٠ ٪ من احتياجات العالم منه.

عدنا إلى الفندق بعد ذلك من طريق آخر مررنا فيه باستاد، وسوق خضر، وفاكهة آخر، ثم وصلنا فى الساعة الثانية، وتركنا صاحبنا الصغير خلفان بعد أن وعدنا بالحضور فى الساعة السادسة والربع من صباح اليوم التالى ليقلنا إلى المطار. تناولنا طعام الغذاء وصعدنا إلى حجرتنا لنجد مفاجأة تنتظرنا.

قلت إنى رأيت المحيط على بعد لا يزيد على خمسين مترا لكننى عندما نظرت من النافذة لاحظت أن المياه تبعد بأكثر من ربع كيلو متر، وأن الزوارق والقوارب، وبعض السفن الشراعية، قد استقرت على اليابسة، كما أن أشجار البرتقال كانت الأرض حولها جافة لا أثر للمياه فيها. كان من الواضح أن هذا من فعل المد والجزر لهذا مكثت إلى المغرب، لأرى مياه المحيط تزحف رويداً رويدا لتسترد المساحات التى انحرفت عنها، ولم تلبث أن اكتمل زحفها لتصل إلى ما كانت عليه عندما نظرت من النافذة البارحة، وأضحت الأشجار وسط المياه مرة أخرى كما طفت المراكب الشراعية، والقوارب، والزوارق.

كان من المؤسف أن علينا أن نترك الجزيرة فى الصباح المبكر حسب موعد الطائرة لأننا لم نر منها سوى الجزء الشرقى فحسب، وبقيت الجهات الأخرى، وفيها الغابات بحيواناتها، وزواحفها الخاصة، والجبال بغزلانها الصغيرة الحجم، وما لا أدرى من الأشياء الأخرى، والواقع كما قلت إنى رغم تصورى أنى أعرف ما يجب أن يرى فى الجزيرة قد خدعت، وهى تستحق أن يقضى المرء فيها دون ملال اسبوعا كاملا.

كنت أخشى، نظرا لصغر سن السائق، ألا يفى بوعده، لهذا إنتهزت الفرصة فى العشاء، وأخبرت الاستقبال أن يوقظنا فى الساعة الخامسة صباحا، كما

أخطرت الموظف بالاتفاق الذى تم مع خلفان ، وبخشيتى ألا يحضر نظرا للموعد المبكر ، لكن الموظف قال إنه مادام قد وعد فسوف يحضر . وأنه على استعداد لاستدعاء سيارة أخرى ، فى حالة تخلفه . على هذا الأساس طلبت إعداد إفطارنا فى الساعة الخامسة وخمسة وأربعين دقيقـــة ، ثم صعدت إلى حجرتنا .

١/٦

أيقظنا موظف الاستقبال فى الموعد المحدد ، لكن الافطار لم يعد لنا ، وحتى نزولنا لم يكن قد حضر ، وعلى هذا فإننا غادرنا الفندق دون أن نأكل سوى بعض البسكويت ، الذى نحمله دائما معنا . فى السادسة والربع تماما حضر خلفان ، وساعدنا فى حمل الحقائب حيث أنه لم يكن قد حضر أحد من العمال ، ومن ثم إنطلقنا إلى المطار لنصله فى السابعة إلا ربعا ، وهنالك ودعناه ، راجين إلى اللقاء .

فى المطار عاملونا تماما كما لو كنا فى بلد آخر أعنى كما لو كان لاعلاقة لزنجبار بتنزانيا ، أو ربما الأصح أن أقول تنجانيقا . ختموا جوازى السفر ، وفتشوا الحقائب ، تماما كما لو كنا نرتحل من بلد إلى بلد آخر ، وهم هنا فى زنجبار لا يبدو أنهم يحبون التنزانيين ، أو ربما الأصح أن أقول التنجانيقيين ، ولا أحسب أن الاتحاد بهذا الوضع سوف يستمر طويلا . فى الثامنة أقلعت الطائرة ، وفى الثامنة والنصف وصلت إلى مطار تنزانيا ، وهنا لم تفتش الحقائب ، ولم تختم جوازات السفر !!! هناك نوع من المعاملة وهنا آخر ؟!

دخلنا فندق كليما نجارو فى التاسعة ، وقال لنا موظف الاستقبال إن الحجرة سوف تكون معدة بعد حوالى الساعة ، ولما كنا لم نتناول طعام الإفطار فقد ذهبنا إلى قاعة الطعام وتناولناه . ثم جلسنا قليلا فى بهو الفندق ، أخطرونا

بعد فترة قصيرة أن الغرفة معدة . كانت خطتى أن نبقى يومى الخميس والجمعة، فى دار السلام ثم نرحل بإذن الله يوم السبت إلى موزمبيق، وكنت قد أكدت حجز الطائرة إلى الأخيرة لهذا كان لدى يومان استطيع فيهما أن أقوم برحلة. ذهبت إلى مكتب السيارات فى الفندق وسألتهم عن تكلفة الذهاب إلى بوجامايو والعودة فى اليوم نفسه، فطلبوا مبلغا لا يتناسب مع الرحلة؛ وبلدة بوجامايو هذه كانت فى الزمن الغابر عاصمة البلاد، كما كانت أكبر ميناء لسولا الرقيق على الشاطىء الشرقى للقارة، وهى تبعد حوالى الثمانين كيلو مترا من دار السلام. وهى الآن لا تزيد على قرية صغيرة تضاءلت أهميتها سواء التاريخية، أو الاقتصادية إلى ما يشبه العدم ،لذلك لم يكن يهمنى كثيرا أن أراها .

بعد أن رتبنا حقائبنا نزلنا ، وخرجنا فذهبت زوجتى لتشترى بعض الهدايا ؛ خاصة الخشب المنحوت ، والعاج ، فهما صناعتان رائجتان فى البلاد، فى حين ذهبت أنا إلى شركة مصر للطيران للتأكيد على تعديل الحجز هناك . قابلت السيد رجائى الذى كان قائما بالتعديل ، فأخبرنى أنه تم حجز الأماكن فى الرحلات إلا من ميوتو إلى هرارى فإنه لم يتلق ردا على التلكس الذى أرسله ، واستمهلنى إلى الغد أثناء . جلوسى حضر السيد / مصطفى مدير الفرع وأكرمنى بفنجان من القهوة المصرية ، والواقع أن الأخوة كانوا كلهم يقدمون كل معاونة بصدق وأخوة .

حضر أيضا أخ مصرى آخر ، انسيت اسمه ، وهو يعمل فى فرع لشركة مصر للتصدير والاستيراد ، وبعد فترة تركت الأخوان لعملهم ، وذهبت إلى زوجتى حيث كنا قد تواعدنا على اللقاء فى مقهى شاى قريب ، ولما التقيت بها أكملنا مشترياتنا . فى المساء لم نخرج من الحجرة سوى للعشاء.

١ / ٧

ذهبت إلى شركة مصر للطيران حيث قابلت السيد / رجائى ، وأخبرنى أنه

سوف يتم قطعا الحجز فى اليوم نفسه ، وأنه سيتصل بى فى الفندق فى الساعة الثانية والنصف . شكرته كما شكرت السيدين مصطفى ، وشوقى ، وقضينا ، زوجتى وأنا ، باقى اليوم لتسوق الهدايا لأولادنا ؛ ولم يتصل بى السيد / رجائى فأجلت رؤيته إلى الغد ، وهو اليوم الذى سوف نرتحل فيه من دار السلام إلى موزمبيق ومن الضرورى أن أجد حلا لحجز التذاكر فى الخطوة التالية ، أى من مابوتو عاصمة موزمبيق إلى هرارى عاصمة زيمبابوى .

٨ / ١

فى الصباح جلنا جولة سريعة فى دار السلام لنستكمل شراء بعض الهدايا التذكارية ، وحاولت أن أجد أفلاما ضوئية للتصوير ، وبالرغم من أننى دخلت أكثر من محل إلا أنهم جميعا لم يكن لديهم ، وهو نقص غريب فى بلد تعتمد بدرجة كبيرة على السياحة . أسفت أننى لم اشتر سوى فلما واحدا من أروشا فلم أتصور إمكان وجود هذا النقص . بعد أن صحبت زوجتى إلى الفندق ، فلم أعد آمن عليها بعد حادثة السيارة ، رجعت ثانية إلى شركة مصر للطيران وهناك لم أجد السيد رجائى ، وتقابلت مع السيدين مصطفى مدير الفرع ، وشوقى المدير المالى ، وأخيرا علمت أن رجائى ترك تذاكرنا مع أحد زملائه فى المكتب وأنه لم يؤكد الحجز من مابوتو إلى هرارى . انتهزت فرصة وجودى فى الشركة وسألت عن عدد الجالية المصرية فعلمت أنهم مابين أربعين وخمسين شخصاً ، بما فى ذلك أعضاء السفارة وهم عشرة تقريباً ؛ ومنهم أثنان من شركة مصر للطيران ، وأثنان آخران فى شركة مصر للتصدير والاستيراد ، والباقون أفراد البعثة الإسلامية ، والحربية ، ولا يوجد أى نشاط لأى شخص من القطاع الخاص كما لا يفد أى سائحين مصريين .

عدت إلى الفندق ؛ وتناولنا طعام الغداء ؛ ودفعت الحساب ثم إنتظرنا إلى الساعة الخامسة والنصف ، واكتريبنا سيارة أجرة أقلتنا الى المطار ،

بعد أن انتهينا من إجراءات السفر ، دخلنا القاعة الداخلية للمطار انتظارا للاعلان عن موعد قيام طائرتنا التى كان محددا لها أصلا الساعة الثامنة . أثناء وجودنا رأيت رجلا فى منتصف العقد الرابع تقريبا يتجه إلى باب الخروج، ولاحظت أنه يحمل فى يده جواز سفر مصرى فسألته إن كان مصريا فالتفت إلى مبتسما ، مرحبا ، وأجاب بالايجاب ، وعرفنى بنفسه قائلا إنه السيد إبراهيم عبد المعطى ، وأنه يعمل فى سفارتنا بتنزانيا ثم سألنى إن كنت المحامى الذى يقوم بالسياحة فأجبته بالإيجاب . تحادثنا قليلا ، ولما علم انى متوجه إلى مابوتو قال إن السيد محى الدين بسيونى ، سفيرنا فى موزمبيق ، موجود بالمطار ، وأنه مسافر على الطائرة نفسها ، وانه ينتظر فى قاعة كبار الزوار ، ودعانا إلى أن نزاره لنتعرف عليه، فشكرته على حسن صنيعه ،ورافقناه

فى قاعة كبار الزوار قدمنا إلى سيادة السفير، وجلسنا نقطع الوقت بالحديث معه فوجدته رجلا دمثا ، واسع الاطلاع ، كثير الترحال . طال الحديث حتى أنى لم أشعر بالوقت ، وبأن الطائرة تأخرت عن موعدها قرابة ساعة . قبل أن نقوم للصعود إلى الطائرة تفضل السيد إبراهيم مشكورا ، وسألنا عن موعد عودتنا إلى دار السلام ؛ وحينما أخبرته وعدنا أن يكون فى انتظارنا رغما عن اعتراضى، وطلبى ألا يجشم نفسه مشقة الحضور ؛ ولست أعتقد أن كرما يمكن أن يفوق مثل هذا فقد جعلنا نشعر ، ونحن لم نتعرف عليه إلا ساعة أو بعضها؛ كأنما نحن صحبة منذ سنوات . وصل معنا إلى درج الطائرة وودعنا .

البرتغاليون الذين كانوا يمتلكون آلاف الأفدنة ، ويسخرون الشعب للعمل بلا أجر ، أو بأجر اسمى ، كما أنهم كانت لهم اليد الطولى فى تجارة الرقيق .

فى سنة ١٩٦٢ تكونت جبهة تحرير موزمبيق، فريلمو ، برياسة الدكتور ادوارد وموندلين ، وقامت بتدريب الأهالى على أعمال القتال فى الجزائر ، ثم بدأت أعمال القوات المسلحة ضد القوات البرتغالية . شنت أول هجماتها العسكرية فى سبتمبر سنة ١٩٦٤ ؛ وكانت هذه مفاجأة كاملة للمستعمرين الذين كانوا قد وطنوا أنفسهم على البقاء فى البلاد ، واعتبارها جزءا من البرتغال ، خاصة وأن احتلالهم لها دام حوالى الخمسمائة عام .

استمرت أعمال المقاومة حتى الثالث من فبراير سنة ١٩٦٩ حينما قتل الدكتور موندلين . ويدعى البرتغاليون أن لا علاقة لهم بمقتله ، لكن أعمال المقاومة استمرت حتى أجبرت البرتغال على التخلى عن استعمارها ومنح البلاد استقلالها وذلك فى يونيو سنة ١٩٧٥ . بعد الاستقلال خير البرتغاليون بين البقاء فى البلاد ، والتجنس بالجنسية الموزمبيقية ، أو الرحيل عنها ، وقد فضل الكثيرون البقاء . هنالك أيضا جالية ضخمة من الآسيويين ربما يزيد عددها على خمسين ألفا ، وفى أيديهم كما هى العادة كل تجارة البلاد .

٨ / ١ تابع

أبى السيد السفير الا أن يتفضل فيشرفنا بصحبته ، وجلسنا فى مقاعد متجاورة نستكمل ما بدأناه من حديث فى قاعة كبار الزوار ، واكتشفنا أن لنا هوايات واحدة ، وشغف مشترك بالقراءة والسياحة . هبطت الطائرة فى مطار بييرا حيث توقفنا لمدة ربع ساعة تقريبا ثم استأنفنا الطيران لنصل الى مطار مابوتو قبل الساعة الحادية عشرة مساء بقليل . حينما نزلنا سلم الطائرة اتضح أن أعضاء السفارة ينتظرون وصول السيد السفير فقدمنا لهم وهم جميعا

موزمبيق

تقع على المحيط الهندى فى أقصى القارة تقريبا بين خطى عرض ١٠، ٢٥ جنوب خط الاستواء. يحدها غربا المحيط الهندى، وشرقا زيمبابوى، وجنوبا سوازيلاند، وجمهورية جنوب أفريقيا؛ وشمالا تنزانيا؛ وملاوى، وزامبيا مساحتها ٢٩٧٫٧٩١ ميلا مربعا، ٧٨٣٠٠٠ كم وتعدادها أكثر من سبعة ملايين شخص، وعاصمتها مابوتو، التى كان اسمها قبل الاستقلال لورنسو ماركيز. وهى ميناء هام تستخدمه جمهورية جنوب أفريقيا لقاء أربعين مليونا من الجنيهات سنويا. يصل تعدادها إلى مائتى ألف طبقا لاحصاء سنة ١٩٦٦. تليها فى الأهمية بيرا، ويصل تعدادها إلى مائة ألف نسمة وهى الميناء الهام الثانى للبلاد، وان كان يقع الآن فى المنطقة التى يسيطر عليها الثوار شمالا.

واللغة الرسمية للبلاد هى البرتغالية، لكن السواحلية ايضا يتكلمها الكثيرون من الأهالى، وكذلك الانجليزية إلى حد ما خاصة فى مابوتو، وبيرا. وبالاضافة إلى ذلك توجد أكثر من خمسة وعشرين لغة من اللغات القبلية التى يرجع أصلها إلى البانتو. والجو متقلب إلا أنه عموما ينقسم إلى فصلين، فصل حار مطير يبدأ من أكتوبر إلى مارس، وآخر جاف وأقل حرارة من ابريل إلى سبتمبر. والأمطار فى الواقع غير منتظمة، خاصة فى المنطقة الجنوبية اذ قد يتوالى موسمان بلا أمطار، وأحيانا ثلاثة.

وتاريخها بسيط إذ كان العرب يحتلون بعض المواقع الساحلية حتى مطلع القرن السادس عشر حينما اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح، ومنذ ذلك التاريخ حتى تمام استقلال البلاد فى سنة ١٩٧٥ ظلت تحت الاحتلال البرتغالى دون انقطاع رغم قيام الأهالى، ومعظمهم من البانتو، بأكثر من محاولة لطردهم. وربما يكون من أهم ما يذكر هم البرازيروس وهم الإقطاعيون

اخوان كرام ، وصحبونا الى المطار حيث قام السيد / عاشور ،أحد اخواننا فى السفارة متفضلا بانهاء اجراءات الجمرك، وجلسنا نحن فى انتظار وصول الحقائب. أثناء الانتظار أراد السيد / السفير أن يضيف الى كرمه مكرمة اخرى فطلب منا أن نصحبه إلى منزله لنكون فى ضيافته ، فرفضت شاكرا مقررا أننا فى سياحة ، وقد يكون من الأوفق أن نتصرف على حريتنا دون اثقال منـا على كرمه .

تناقش أخواننا أعضاء السفارة ، فى الفندق الذى يستحسن أن نذهب اليه وأخذوا فى المفاضلة بين فندق كاردوزا ، وفندق بولانا واستقر الرأى على الأول ، فان لم توجد أماكن ففى الثانى ، مع هذا فإن السيد / السفير بلغ من كرمه أن استخلص منى وعدا أننا ان لم نجد فى أحد الفندقين حجرة ، أو لم ترق لى الإقامة فى أيهما ، أن نذهب الى منزله ، وأرسل معنا السيد / عزت سعد يصحبه السيد / عاشور فى حين تبعنا السيد / خيرى فى سيارته ، وطلب من الجميع بأن يسهروا على احتياجاتنا حتى يطمئنوا الى استقرارنا . أثناء انتظارنا الحقائب ، تفضلت السيدة / ليلى روفائيل مستشار السفارة بأن دعتنا الى تناول طعام الغداء فى بيتها فى اليوم التالى .

عند فندق كاردوزا ذهب معنا السيد عاشور الى كاتب الاستقبال ، قيل له أولا عدم وجود حجرات خالية ، إلا أنه بذل مجهودا ضخما اقتنع به الكاتب فى النهاية ، واعطانا حجرة لا بأس بها ثم تركنا اخواننا من السفارة ، اذ كانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحا .

٩ / ١

كان مطار مابوتو صغيرا شأنه شأن جميع المطارات الأخرى ، لكن ما رأيناه منه كان حديثا ، ونظيفا كما أننا لاحظنا من المطار الى الفندق ، ومن نافذة

حجرتنا هذا الصباح ، أنه يرجح أن تكون المدينة جميلة. والواقع أننا بعد أن تناولنا طعام الإفطار ، وانتظرنا فى بهو الفندق اتضح لنا أن الفندق لطيف جداً ، وأن به حمام سباحة ، وأنه يقع على ربوة عالية تطل على الميناء .
عرفنا فيما بعد أن المدينة تقع فى شبه قوس دائرى ، يحيط بها المحيط الهندى من جميع الجوانب إلا واحداً ، وبذلك تكون كشبه جزيرة ، وأهلها يتكلمون للبرتغالية فقد استمر الاحتلال البرتغالى لها قرابة خمسمائة عام كما ذكرت وقليل منهم من يتكلم الانكليزية ، ويكاد أن ينعدم من يتكلم أية لغة أخرى .

فى حدود الساعة الحادية عشرة صباحا ، حضر السيد عزت سعيد وصحبنا فى سيارته فى جولة حرة فى المدينة . أول ما يلاحظ المرء أن شوارعها جميعا عريضة بحيث لا يقل عرض أضيقها على عشرين مترا ، ومنها ما يصل إلى مئتين . القيادة فيها على الجانب الأيسر وشأنها شأن تنزانيا وكينيا ، ولم أر تقريبا أى عساكر مرور ، فالجميع يحترمون قواعده تلقائيا ، ولا تكاد أن تسمع صوت النفير .

حدثنا السيد عزت عن أحوال البلاد ، فعلمنا أن الشيوعية متغلغلة فيها وأن الجزء الشمالى منها وقع فى قبضة الثوار الذين لا يحبون النظام ، وأنه بالتبعية ، ونظراً لأن هذا الجزء هو الذى فيه البترول ومزارع الأذرة ، وهى غذاء الشعب الرئيسى ، فإن هنالك نقصا فى المأكولات . وعرفنا أن حكومة جنوب افريقيا تدفع للحكومة اربعين مليونا من الدولارات لاستعمال الميناء ، وهو وضع غريب لما هو معروف عن جمهورية جنوب أفريقيا من شدة التعصب ضد السود عموما . ليس هذا فحسب بل إنها هى التى تمد المدينة بالكهرباء ، ومعنى هذا ببساطة أن حياتها كاملة فى يدها .

لكن بعيداً عن السياسة فإن المدينة جميلة بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، ومعظم مبانيها فيلات أنيقة جدا ، كما أن عماراتها ظريفة وحديثة . لكننى لاحظت أن حركة البناء متوقفة تماما حيث أنه مثلا يوجد مبنى كبير يطل مباشرة على المحيط ، علمت فيما بعد أن البرتغاليين كانوا قد بدأوا فى إنشائه ليكون فندقا من الدرجة الاولى ، مع أنه لايحتاج إلا إلى التشطيبات النهائية فان العمل فيه متوقف . لاحظت الشيء نفسه بالنسبة لبعض مبانى أخرى ، فى قلب المدينة . وعموما لم أر أى نوع من أنواع إلتعمير .

وبالرغم من أنى شاهدت الكثير من المحلات التجارية ، وإن تكن مغلقة نظراً لعطلة الأحد فان السيد عزت قرر أن البضائع نادرة ، وإن وجدت فهى من نوع ردىء جداً لاتصلح للاستعمال المحترم ، وأن أعضاء السفارة يضطرون إلى جلب احتياجاتهم من سوازيلاند ، وهى تقع فى دائرة اختصاصهم ، كما تقع أيضا ليسوتو . يوجد أيضا بعض دور الخيالة لكن لا توجد مسارح والتليفزيون لا يقدم برامج . وحتى برامج سوازيلاند ، وجنوب أفريقيا فانه يلزم لهما هوائى قوى جدا وغالبا لا يستطيعون التقاط إرسالهما .

والعملة المتعامل بها هى المثقال ، والدولار بالسعر الرسمى يساوى سبعة وثلاثين مثقالا ونصف تقريبا ، وهو بسعر السوق السوداء يساوى سبعمائة مثقال !!! لا ليس هنالك خطأ مطبعى أو خطأ فى الكتابة ، أكررها ثانية سبعمائة مثقال أى أكثر من عشرين ضعف السعر الرسمى ، ترى هل تقدر معنى هذا ؟ — أقرب الموضوع إلى الذهن . إنى كنت أتناول طعام الغذاء فى الفندق ، وهو يتكون من شوربة ، وسمك ، والأرز ، وطبق من اللحم ، وسلاطه

وخبزا ، ونوع من الحلوى ، ثم القهوة أو الشاى وكانت كميات الطعام كافية تماما لأن تملأ بطن أى نهم ، كما كانت الصناعة متوسطة بل تميل إلى الجودة. كم سعر الوجبة ؟ مائتان وخمسون مثقالا ، أى ما يقابل بالسعر الرسمى ستة دولارات ونصف تقريبا ، وهو سعر رخيص بأى معيار فى العالم ، لكنه بسعر السوق السوداء لا يزيد على ثلث دولار أى ثلاثين أو خمسة وثلاثين قرشا !!! قس على هذا كل شيء . الحجرة سعرها تسعمائة مثقال أى دولار وثلث ، وهى لشخصين بالحمام ، بدله الأطفال بأقل من دولار ، وفستان للسيدات بستة دولارات .

على أى الأحوال فاننا بعد جولتنا فى المدينة ذهبنا إلى منزل الآنسة ليلى مستشار السفارة وهو منزل لطيف وأنيق ، وهنالك تقابلنا مع السيد السفير والسيدين خيرى وعاشور ، وبعض الزملاء أعضاء الجالية البرتغالية ، وتناولنا طعاماً شهياً حتى أننا تجاوزنا بعد ذلك عن طعام العشاء واكتفينا فى الفندق بتناول بعض سندوتشات الجبن . تمتعنا بالصحبة ، وأخذ السيد عزت جوازى السفر والتذاكر ليؤكد متفضلا على الحجز فى الطائرة إلى هرارى عاصمة زيمبابوى ، وليستخرج لنا تأشيرة دخول البلاد حيث أن لزيمبابوى سفارة فى موزمبيق . بعد أن انتهينا من تناول الغذاء استأذنا من الجميع وشكرنا صاحبة الدار ، وصحبنا السيدان خيرى وعاشور فى سيارة الأول فى جولة ثانية فى المدينة ، ثم وصلنا إلى الفندق الساعة السادسة والنصف مساء ، وبالتالى لم نستطع أن نفعل شيئا آخر فمكثنا فى الفندق .

١/١٠

مر علينا السيد / عزت فى الساعة الثامنة والنصف صباحا ، وذهبنا إلى مكتب السياحة الحكومى . فى المكتب حاولت أن أتفاهم عن الرحلات التى

أستطيع القيام بها، عرضوا على بعض رحلات لا قيمة لها، وبما يوسف له أنها جميعا عبارة عن شواطىء أو رحلات إلى جزر قريبة، وهذه لا تعنى شيئا بالنسبة لى حيث لا يوجد فى هذه الجزر سوى الشواطىء فحسب، وفندق لا يقدم طعاما أى أن على المرء أن يأتى بطعامه معه.

حينما سألتهم عن اسم أية شركة سياحية قالوا إنه لا يوجد فى البلد شركة واحدة. وحينما طلبت اسم شركة أستطيع أن أستأجر منها سيارة تنقلنا فى رحلاتنا، إذا كنا سنقوم بأية رحلة، أجابوا أيضا بعدم وجود شركات بهذا الشكل، بل إنهم قالوا إنه لا يوجد أكثر من عشرة سيارات أجرة فى المدينة كلها، وانهما ملك لأفراد، حتى إنه لا يمكن الاعتماد عليها. سألتهم عن خريطة سياحية، أو نشرات سياحية لموزمبيق فهز الرجل رأسه آسفا، والواقع أن المسكين كان خجولا، وهو يقرر عدم وجود أى شىء عنده، واعتذر إذ لم يستطع تقديم أية معونة، أو مساعدة. ومن الطريف أنى رأيت فى المكتب بعض النشرات السياحية على إحدى الموائد كما هو متبع فى مكاتب السياحة، وحينما قرأتها وجدتها جميعا عن باريس، ولندن وبعض المدن والبلاد الخارجية، ولا شىء عن موزمبيق!!

واضح أنى لم أحظ بشىء. وبدا لى أننا سنكون سجناء فى مابوتو مدة بقائنا فى موزمبيق. والواقع أن الأمر كاد أن يكون كذلك لولا أن قيض الله لنا السيد السفير وإخواننا أعضاء السفارة الذين لم يألوا جهدا فى معاونتنا، والترفيه عنا حتى أن السيد السفير كان قد أزمع أن يذهب فى رحلة عمل إلى سوازيلاند وهى تقع ضمن دائرة اختصاص السفارة، فى يوم الثلاثاء. فأجلها إلى يوم الاربعاء، ثم عرض علينا أن نصحبه مقررا أنه يوجد مكان لنا فى السيارة، وأنه يسره صحبتنا، وقبلنا شاكرين لولا أن الظروف جاءت مغايرة لما اشتهينا.

صحبنا السيد عزت إلى السفارة لنرى ما حدث بالنسبة لجوازى سفرنا ، وتذاكر الطائرة فقيل لنا إن الأماكن فى الطائرة قد تم حجزها ليوم الخميس ، كما طلبنا ، وتأكد الحجز ، أما عن جوازى السفر فلم يكن قد تم بعد إرسالها إلى سفارة زيمبابوى لأخذ تأشيرتى الدخول إلى البلاد ، وعلى هذا كان علينا الانتظار إلى اليوم التالى . أردنا أن نستأذن من السيد السفير لكى نجول فى المدينة قليلا فقال إنه يضع سيارته الخاصة تحت إمرتنا ، وألح علينا فى ذلك ذاكرا أن لديه سيارة السفارة ، لكننا رفضنا شاكرين ، وذكرت لسيادته أننا رأينا المدينة ، وأن الوسيلة الوحيدة للتعرف عليها هو السير على الأقدام. واعترض سيادته محتجا بحرارة الجو ، وكان الجو فعلا حارا شديد الرطوبة ، إلا أنى ذكرت أن الطرقات تظللها الأشجار . وهنا تذكر السيد / عزت أن اليوم هو الاثنين والمحلات تغلق صباحا إلى الثالثة حيث أنها تفتح طوال يوم السبت ، وهذه عادة غريبة تكاد تقتصر على موزمبيق . أخيرا تنازل السيد السفير عن رأيه ، واستأذنا فقبل أن ننصرف . وقال السيد عزت إننا مدعوان لديه لتناول طعام العشاء ، وأنه سيمر علينا فى الفندق فى الساعة السابعة والنصف ، وقبلنا شاكرين .

تركنا السفارة حوالى الساعة العاشرة والنصف صباحا وتجولنا فى الطرقات فوجدناها كلها جيدة الرصف ، حتى الجانبية ، أو الفرعية منها ، كان معظمها الساحق واسع جدا ، تظلله الأشجار . أما المحلات التجارية فهى كثيرة ، خاصة فى وسط المدينة ، والمعروضات فيها كثيرة ، وحسنة العرض ، توحى بالذوق السليم ، وهى من هذه الناحية تفوق كثيرا دار السلام ، أو الخرطوم. لاحظنا أيضا أن أسعار المعروضات رخيصة إلى حد لا يصدقه العقل ، وقد سبق أن ذكرت بعضها ، وإن كنا لم نجد محلات لبيع الأحذية ، والجلود عامة إلا القليل النادر وكانت جميع المتاجر مغلقـــة كما ذكر لنا السيد / عزت وعلى

هذا أتممنا جولتنـــا ، وعدنا إلى الفندق سائرين فوصلنا فى حدود الساعة الواحدة .

تناولنا طعام الغداء ، وكان لابأس به ثم صعدنا الى حجرتنا لنقيل قليلا ونستريح . وما أن حلت السابعة مساء حتى كنا قد ارتدينا ملابسنا ، ونزلنا لنحتسى القهوة فى بهو الفندق انتظارا لحضور السيد عزت . وفى الساعة الثامنة الا ربعا حضر وتفضل بأن صحبنا بسيارته الى منزله ، وهو منزل أنيق يتكون من طابقين ، وله حديقة خلفية منسقة ، وبها شجرة ليمون ، وشجرة مانجو ، وثالثة للجوافة ، والأخيرة هى الاولى من نوعها التى رأيتها فى كل رحلاتى خارج القطر فى شرق ووسط أفريقيا عموما ، وكانت هنالك أيضا شجرة عنـــب .

بعد قليل من وصولنا حضرت الآنسة ليلى مستشارة السفارة ، ثم حضر السيد السفير ، وتناولنا طعاما شهيا جدا سواء فى صناعته ، أو أنواعه وبما أن الجو كان قد تحسن ، وخفت درجة الحرارة والرطوبة فقد تناولنا الطعام فى الحديقة ، وبعد ذلك انتقلنا الى داخل المنزل لتناول القهوة ، ووجدنا أنه أنيق أيضا من الداخل أناقته من الخارج . امضينا بعض الوقت فى الحديث ، وعلمت من الآنسة ليلى ان سفارة زيمبابوى لم ترد حتى ذلك التاريخ ، وبالتالى لم نأخذ تأشيرة الدخول ، وبدأت اقلق حيث أننا كنا فى يوم الاثنين مساء ، وموعد سفرنا هو الخميس ظهرا ، وان كنا سنذهب مع السيد / السفير ، الى سوازيلاند يوم الأربعاء ، فمعنى هذا أنه لم يبق لنا من الوقت الا باكرا الثلاثاء . على أنى تأدبا لم أرد أظهار ما أشعر به من قلق .

تفضل السيد السفير بأن دعانا لتناول طعام العشاء فى منزله فى الغد ، وقبلناها شاكرين كما ذكر لنا السيد / عزت أن السيد خيرى سوف يمر علينا باكر

صباحا ليصحبنا فى جولة فى المدينة حيث أن زوجتى قد أبدت رغبتها فى شراء بعض الأشياء .

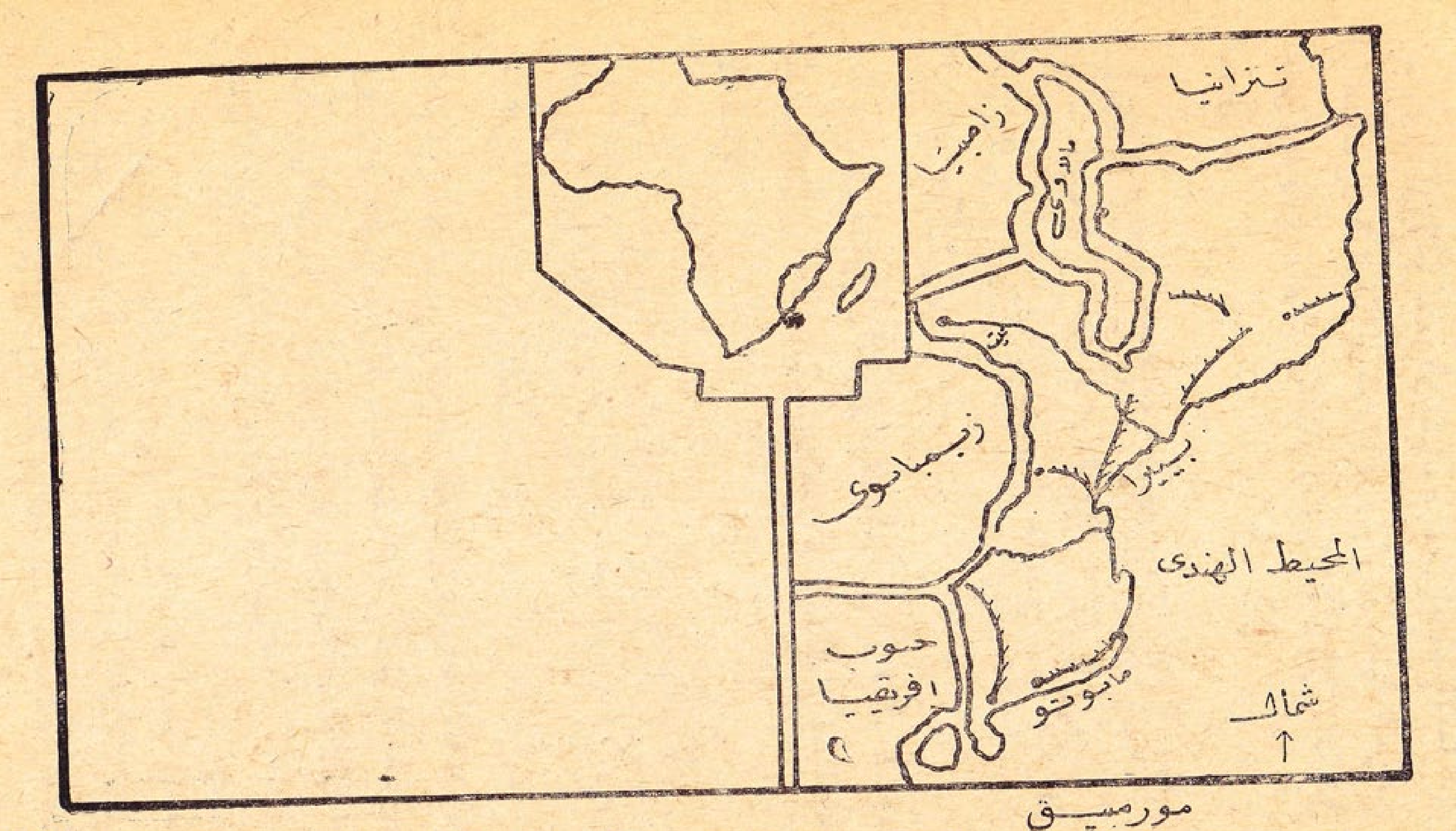
بعد ذلك استأذنا من مضيفنا اذ كانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحا؛ وعرض علينا السيد / السفير أن يصحبنا الى الفندق فى سيارته لكن مضيفنا صمم على أن يقوم بتوصيلنا بنفسه ، وتفضل وفعل .

١١ / ١

وصل السيد / خيرى الى الفندق بعد العاشرة بقليل ، وتفضل وصحبنا الى وسط المدينة حيث قامت زوجتى بشراء بعض الأشياء القليلة إذ أنها وجدت أن رخص الأسعار كان على حساب الخامات ولعل أحسن ما اشترته هو طقم من المفارش المصنوع يدويا ؛ وكذلك تمثالين خشبيين جيدى الصناعه جدا .

فى الطريق سألت السيد خيرى عما تم فى موضوع تأشيرتى زيمبابوى فقال إنه لا يدرى شيئا إذ أن الآنسة ليلى هى التى تقوم بهما شخصيا . من البدهى أن يزداد قلقى حيث أننا اعتزمنا الرحيل مع السيد/السفير باكر الى سوازيلاند، وسنقضى معه كل اليوم ولن نعود إلا مساء ثم سنسافر إلى زيمبابوى فى يوم الخميس ، إذهو اليوم الذى يلى ذلك مباشرة .

تناولنا طعام الغذاء فى الفندق ؛ ومكثت قلقا فى انتظار مكالمة هاتفية من الآنسة ليلى مستشارة السفارة ولم تأت المكالمة إلا فى الساعة السادسة مساء ذكرت لنا أن سفارة زيمبابوى رفضت إعطائنا التأشيرة مقررة أن لديها تعليمات بعدم منح تأشيرات دخول المصريين ، وحينما سألتهم عما إذا كان فى الامكان أن نأخذ التأشيرة عند وصولنا فى المطار ذكروا لها أن هذا مستحيل. قالت إن السيد السفير تفضل بالتدخل فى الأمر شخصيا ، وأنه خاطب سفير


تنزانيا
زامبيا
زيمبابوى
بيرا
المحيط الهندى
جنوب
افريقيا
مابوتو
شمال
موزمبيق

زيمبابوى إلا أن الأخير اعتذر بأن تعليماته صريحة . أضافت الآنسة ليلى أنها تفضلت بإرسال تلكس إلى سفارتنا فى زيمبابوى ليبحثوا الأمر مع المختص فى الوزارة ، وأنهـــا فى انتظار الرد ، ولكنه لن يأتى بداهة قبل الغد الاربعاء .

أصبحنا فى موقف لا نحسد عليه ، فنحن مقيمون فى مابوتو لا نستطيع الحركة ، ومعنا تذكر الطائرة إلى هرارى التى لا نستطيع دخولها ، وموعد عودتنا إلى دار السلام أمامه أثنا عشر يوما . جلست فى هدوء أفكر فيما هو أمامى من حلول .

١ ـــ فانى أستطيع أن ألغى باقى الرحلة وأعود إلى دار السلام لاستلام حقائبنا ومنها إلى القاهرة . واستبعدت هذا الحل فانا لم آت كل هذه المسافة لأعـــود

٢ ـــ وأستطيع أن أتغاضى عن كل شىء وأذهب إلى هرارى لأجرب حظى فى التأشيرة فى المطار وهو حل كنت أنا شخصيا أقوم به لولا وجود زوجتى ، فاضطررت أن أستبعده .

٣ ـــ لما كان غرضى الرئيسى من الذهاب إلى زيمبابوى هو رؤية شلالات فكتوريا ، وآثار زيمبابوى القديمة فان نصف غرضى يتحقق إذا ما غيرت خط سيرى ليصبح من مابوتو إلى لوساكا ؛ ومنها إلى دار السلام ذلك أن الشلالات يقع جزء منها فى زيمبابوى والآخر فى زامبيا .

على أى الأحوال فان رحلة الغد إلى سوازيلاند قد أضحت فى حكم الأحلام إذ يلزم أن أكون فى مابوتو أتابع الأحداث . فى المساء مر علينا السيد عزت وصحبنا إلى منزل السيد محى الدين السفير ، وهناك تناولنا عشاء شهيا وشرحت للسيد السفير أثناء ذلك موقفى معتذرا عن مصاحبته فى اليوم

التالى . أسف سيادته لذلك ، وبما أنه سيقوم مبكرا فاننا اعتذرنا بعد أن تناولنا القهوة ، واستمعنا بعضا من الموسيقى التقليدية الجميلة وفى الساعة الحادية عشرة مساء صحبنا السيد عزت إلى الفندق .

١٢ / ١

هذا يوم قلق بكل معنى الكلمة ، ولكى يزداد الأمر سوءا ، بدأ اليوم بانقطاع المياه ، فى الفندق ، واضطررنا إلى غسل وجوهنا من (جردل) . فى الساعة العاشرة حضر إلينا السيد خيرى وصحبنا إلى السفارة ، وهناك وجدنا الآنسة ليلى المستشارة فى انتظارنا . أعادت ما ذكرته لى هاتفيا فى مساء اليوم السابق ، وأخبرتها باعتزامنا تغيير خط سيرنا ، والتحول من زيمبابوى إلى زامبيا . وافقت على الرأى ، وأرسلت معنا السيد خيرى ، والسيده كلارا السكرتيرة ، وذلك لمعرفتها اللغة البرتغالية . وذهبنا إلى شركة طيران أولا . هناك كان الموظف متفاهما معنا إلى حد كبير فقرر أنه يمكن أن يلغى رحلة زيمبابوى وأن يحرر لنا تذاكر إلى الطائرة المتوجهة إلى زامبيا فى يوم السبت التالى مباشرة وعند مراجعة موعد العودة من لوساكا إلى دار السلام اتضح أننا لابد أن نأخذ طائرة الأربعاء وبذلك فاننا نفقد يومين يلزم أن نقضيها فى مابوتو ، وثلاثة أيام من الأربعاء إلى السبت مساء فى دار السلام . بالإضافة إلى هذا كان على أن أدفع ستمائة دولار ثمنا للتذاكر على أن أسترد ثمن التذاكر الملغاه من مصر للطيران حين عودتى إلى مصر كان هذا كثيرا ولكن ما باليد حيلة ، فاضطررت أطلب منه أن ينتظر إلى باكر عسى الله أن يجد لنا مخرجا .

توجهنا بعد ذلك إلى سفارة زامبيا لأخذ تأشيرة الدخول ، وأخذنا معنا خطاب توصية من السفارة . ذكر الموظف المختص ، وكانت الساعة الواحدة ،

أننا نستطيع أن نأخذ جوازى السفر ، وعليهما التأشيرتان المطلوبتان فيما بين الساعة الرابعة والخامسة مساء اليوم نفسه. تفضل السيد خيرى ، بعد هذا ، وصحبنا إلى الفندق ووعدنا بأن يعـــود فى مساء اليوم ، ومعه جوازى السفر .

تناولنا طعام الغذاء ، وصعدنا إلى غرفتنا لنستريح قليلا ووجدنا أن المياه مازال مقطوعة . فى الساعة الرابعة والربع ، تركت زوجى فى الحجرة ، ونزلت إلى البهو انتظر السيد خيرى ، ومعه جوازى السفر لكنه لم يحضر ، كما لم يعتذر هاتفيا حتى ليخبرنى عما تم فى موضوع التأشيرتين ، وليطمئن على حصولنا عليهما .

١ / ١٣

انتظرت فى الفندق، وفى الساعة العاشرة خاطبتنا الآنسة ليلى مقررة أن معها جوازى السفر وقد حصلنا على تأشيرة زامبيا ، لكن لم يأت رد بعد من سفارتنا فى زيمبابوى ، فرجوتها أن ترسل لنا سيارة السفارة لتذهب إلى شركة الطيران ، ونأخذ التذاكر إلى زامبيا فوعدت بذلك .

بعد حوالى ربع ساعة حضرت السيدة كلارا فى سيارة السفارة، وأخبرتنى أن سفارتنا فى زيمبابوى قد ردت علينا وقالت إنه يمكن لنا أخذ تأشيرة الدخول إن أردنا فى المطار ، وأن موظفى جوازات المطار قد أخطروا بذلك. لا أعتقد أنى فى حاجة إلى شرح مدى الراحة التى إنتابتنى بعد سماع هذا الخبر. ولما كانت الطائرة إلى زيمبابوى تقوم اليوم فى الساعة الثالثة وأربعين دقيقة فانى إستأذنت من السيدة كلارا أن أخطر زوجى لتعد الحقائب فورا على أن أخطر الفندق باعتزامنا السفر ، وأن أدفع الحساب ، وتم كل ذلك فيما لا يزيد على ثلث ساعة ، بل أن زوجى صحبتنا ، ووضعنا الحقائب فى السيارة.

وصلنا إلى شركة الطيران لنؤكد حجز اليوم إلى زيمبابوى ، والغاء حجزنا على طائرة زامبيا . ووافق الموظف المختص على ذلك .

أضحى الآن أمامنا متسع من الوقت فرافقتنا السيدة كلارا إلى السفارة لنستأذن من السيد السفير واخواننا أعضاء السفارة ، ونشكرهم على كل مالاقيناه من حفاوة ، وكرم ومعونة استقبلنا السيد السفير باشا مرحبا كعادته ، وأضاف مكرمة جديدة بأن رفض ان يأخذ بطارية الفيديو التى كنت استعرتها منه إذ أن بطاريتى كنت قد تركتها مع حقائبى فى دار السلام ، وطلب منى الاحتفاظ بالبطارية حين وصولى إلى مصر ان شاء الله ، ووجدت فى هذا اجحافا به فرفضت الا أنه أصر ، وأخيرا وصلنا إلى حل وسط وهو أن أحتفظ بالبطارية طوال مدة وجودى فى زيمبابوى على أن أسلمها للسفارة هناك ، وقبلت شاكرا .

فى الساعة الثانية عشرة ، استأذنا من السيد السفير واخواننا ، وتركناهم شاكرين بعد أن وعدونا بزيارتنا فى مصر ان شاء الله ، الا أن السيد / عزت صحبنا فى سيارة السفارة حتى المطار ، وودعناه شاكرين .

أقلعت الطائرة من مابوتو فى الساعة الثانية وخمسين دقيقة وحلقت على ارتفاع ثلاثة وثلاثين ألف قدم ، ووصلنا إلى بييرا وهى ميناء على الساحل الموزمبيقى الشمالى فى الساعة الرابعة وخمس دقائق . من الجو شاهدنا معامل تكرير البترول التى أحرقها الثوار وكانت جميعها سوداء متفحمة إلا واحدة ، ولابد أن الحريق كان هائلا . ونحن نهبط أرض المطار لاحظت أن هنالك الكثير من الجنود مختفين فى الحقول حوله . مكثنا فى الطائرة لم نبرحها نصف ساعة ، ثم أقلعت بنا على ارتفاع خمسة آلاف وخمسمائة قدم ، ووصلنا الى هرارى بعد أربعين دقيقة .

فى الطائرة كانت إحدى المضيفات داكنة اللون لكن شعرها كان كستانيا ، وعينها لونها أخضر يميل إلى الزرقة ، وهى مجموعة ألوان يندر أن توجد ، وعلى ذلك فقد كان شكلها لطيفاً جداً. كلمة عن البرتغاليين فى موزمبيق. إن مابوتو جيدة التصميم ، جيدة الطرق ، واسعتها حسنة الرصف ، والمحلات التجارية تروى عن عز غابر. ولست اعتقد أن البرتغاليين كانوا قد بنوا المدينة وفى ذهنهم أنهم سيرحلون فى وقت ما ، بل أننى أكاد أجزم أنهم بنوها وهم موقنون ببقائهم إلى ما لا نهاية ، ولا شك أن استقلال البلاد بعد أن ظلت فى حكمهم طوال خمسة قرون كان ضربة قاسيه . بعد الاستقلال خـير البرتغاليون الموجودون فى موزمبيق بين اتخاذ الجنسية الموزمبيقية أو الرحيل ومما شاهدته إختار الكثيرون البقـاء ، ولعلهم تأقلموا إلى درجـة أنهم لا يستطيعون الحياة الآن فى البرتغال ، ومع أنهم يختلطون مع الأهالى بحرية تامة وببساطة إلا أنه ما يزال هنالك ذلك الفاصل الذى يصعب فيما اعتقد تخطيه بمثل هذه السرعة وإن كنت أعتقد أنهم سيذوبون شيئاً فشيئاً فى الأهالى. والواقع أنك تجد الآن من الأهالى من لا تظهر فيه سمات البانتو واضحة ، فالكثير ليسوا زنوجا ، ولونهم ليس داكنا وأنوفهم مستقيمة ، وليست مفلطحة وشفاههم أقل غلظة .

كلمة أخيرة لقد ذهبت إلى موزمبيق لأزور البلاد وأتعرف على ملامحها وحضارتها ولم أزر البلاد إذ لم أخرج من مابوتو العاصمة ، لكنى كسبت معرفة السيد / السفير محى الدين بسيونى ، والآنسة ليلى روفائيل مستشار السفارة ، والسيد عزت سعد سكرتير ثان السفارة وسائر الأخوة واعتقد أنى كسبت أكثر كثيرا مما فقدت . وكم أود أن سفارتنا بالخارج تولى المواطنين معشار ما قدمه لنا اخواننا فى مابوتو .

زيمبابوى

مساحتها ٥٠٣٢٢ ميلا مربعا أو ٢٥٨٧٠٠ كم٢ تقع بين خطى عرض ١٧° و ٢٣ درجة جنوب خط الاستواء، وتحدها من الشرق موزمبيق ومن الغرب بوتسوانا ومن الشمال زامبيا والجنوب جمهورية جنوب أفريقيا.

تعدادها حسب إحصاء ١٩٦٦ ٤٢٦٠٠٠٠ نسمة، منهم ٢٢٥٠٠٠ من البيض؛ و٢٢٠٠٠ من الآسيويين والملونين وجوها ينقسم إلى ثلاثة فصول فصل معتدل جاف شتوى يشمل مايو ويونية ويوليو والثانى حار جاف ويشمل أغسطس وسبتمبر واكتوبر والثالث مطير من نوفمبر إلى ابريل.

كانت فى المبدأ يقطنها الماتابلية ولم يدخلها الأوروبيون إلا بعد لفنجستون فى سنة ١٨٥٥ ودخلتها أول مجموعة منهم فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨١ حينما جاء سيسل رودس واشترى رودس حقوق التعدين من لوبنجولا، ملك المتابلية ثم لم يتورع على أن يدعى أنه اشترى منه جميع أراضيه ولم تأت سنة ١٨٩٣ حتى كانت البلاد جميعها تحت سيطرة شركة جنوب أفريقيا، وطرد لوبنجولا منها فى سنة ١٨٩٦ قام المتابلية بالثورة، كما قامت أيضاً قبائل الشونا، إلا أنها قمعت بقسوة مما أحبط نفوس الأهالى فلم تقم ثورات أخرى إلا فى سنة ١٩٦٠ حينما اشتعلت فى سالسبورى وجويلو، وبولاوايو.

عاصمة البلاد هى سالسبورى، وقد غير اسمها إلى هرارى كما غير اسم البلاد من روديسيا الجنوبية إلى زيمبابوى منذ أن نالت البلاد استقلالها فى فبراير سنة ١٩٨٠. وتعداد العاصمة ٣٤٧٠٠٠ حسب إحصاء ١٩٦٦. والمدينة التالية فى الأهمية هى بولاوايو وتعدادها ٢٤٨٠٠٠، واللغة الرسمية السائدة هى البانتو ولكن معظم الأهالى يتكلمون الانجليزية.

تابع ١٩٨٣/١/١٣

وصلنا إلى مطار هرارى فى الساعة الخامسة والنصف تقريباً ، وكان الجو جوا معتدلا ، والسماء صافية. وهرارى عاصمة زيمبابوى وكان اسمها أصلا سالسبورى نسبة إلى لورد سالسبورى رئيس وزراء بريطانيا الأسبق ثم عدل بعد الاستقلال سنة ١٩٨٠ إلى هرارى. مطارها أكبر من سائر المطارات الأخرى التى رأيتها فى أفريقيا ربما فيما عـدا نيروبى وأديس أبابا ، وهو حديث جدا، ونظيف، ومنظم وأول ما يلاحظ أن عدد الأجانب كبير ، وهى حقيقة لاحظتها فى كل سفرى فى زيمبابوى ، سواء فى العاصمة أو خارجها .

حينما جاء دورنا أمام موظف الجوازات أعطيته جوازى السفر مقررا أننا نريد تأشيرة، وأن سفارتنا قد اتصلت بهم. وكان رد الموظف مذهلا إذ قال إن المصريين لا يحتاجون إلى تأشيرة دخول ، وختم جواز سفرنا ببساطة .

أنهينا باقى الإجراءات الجمركية ثم أبدلت بعض النقود؛ وبهذه المناسبة فان العملة المتعامل بها فى زيمبابوى هى الدولار الزيمبابوى، والدولار الأمريكى يساوى فى السوق الرسمية بعد خصم عمولة البنك وغيرها حوالى ٩١٥ سنتا زيمبابويا ، أما فى السوق السوداء فانه يساوى ١٧٠ سنتاً أو أكثر قليلا .

من الجلى أننا لم نكن قد حجزنا فى أى فندق، لذا ذهبت إلى الاستعلامات وطلبت الحجز فى فندق ميكلز وهو فندق من الدرجة الأولى فاخبرنى الموظف المختص بأنه لا توجد حجرات به نظرا لوجود أعضاء المؤتمر الأفريقى، وذكر أن هنالك فندقا جيدا آخر اسمه جيمسون فطلبت الحجز فيه وفعلا قام الموظف المختص بالحجز . أخذنا سيارة أجرة إلى الفندق، والملاحظة الأولى فى الطريق هى أن الطرقات واسعة جدا لا تقل عن مابوتو ، وأنها جيدة الرصف . وفى هذا تفوق مابوتو ، وإن الجميع يحترمون قواعد المرور سواء قادة السيارات أو الراجلة، ولا يستعمل الصفير إلا فى أقل من النادر، والقيادة على يسار الطريق شأن كل البلاد التى خضعت للاحتلال البريطانى .

أما عن الأراضى فهى خضراء تكثر بها الأشجار ، وهى فى هذا تفوق ما شهدته فى موزمبيق وتنزانيا، وإن كانت أقل درجة من زنجبار، وأوغندا. والمبانى حديثة ، وجميلة ، بها العمارات المرتفعة والفيلات ، التى تحـوطها الحدائق ، بل إننى فى الطريق شاهدت جراجا متعدد الطوابق فى وسط المدينة مع أن المرور ليس مزدحماً ، ولاحظت عدم وجود سيارات بها خدوش ،أو آثار تصادم إلا فى النادر جداً ، وهى ملاحظة تأكدت لى فيما بعد والمحلات التجارية مكتظة بالبضائع ، حتى أنها تضارع مايشاهده المرء فى مدن أوروبا العظيمة أعنى لندن ، وباريس ، وغيرها . كما أن تنسيقها جميل يدل على ذوق رفيع ، لكننى للأسف تحققت من أن جل هذه المحلات ، إن لم يكن كلها، ملك للأجانب ، وخاصة البوير، من جنوب أفريقيا ، ويليهم الهنود، أما الأهالى ، فلا يكادون يمتلكون شيئاً .

لاشك أن الفندق كان جيداً ، وحتى الطعام فيه كان من الدرجة الأولى، وإن كنت اكتشفت أن الطعام فى كل زمبابوى جيد ،ويقدم بكميات كبيرة حتى الإفطار ، ويرجع ذلك إلى أن النظام السائد هو ماوضعه رجال الأعمال فى فى جنوب أفريقيا ، إذ هم كما قلت يمتلكون الأغلبية العظمى من المنشآت التجارية . والبوير عموماً يأكلون كميات ضخمة من الطعام ، وقد حدث أننا فى مطعم تيفانى ، الخاص بالفندق ، طلبنا ، أنا وزوجتى ، الوجبة العادية « المينو » ولم نستطع أن نتمها ، فغيرنا من طريقة طلبنا فى الوجبة التالية ، وطلبنا طبقاً واحداً لكل منا من اللحم والخضروات ، ولم نستطع أيضا أن نكمله ، والواقع أن الطبق الواحد كان يكفينا معاً .

تركت زوجتى فى الحجرة تخرج الملابس ،ونزلت أسير قليلا فى الطرقات المحيطة بالفندق لأتعرف جهد الاستطاعة تعرفاً مؤقتاً على المدينة وإن كانت المحلات التجارية قد أغلقت ، وقل السابلة. ازداد اقتناعى من المدة اليسيرة التى سرتها أن انطباعى الأول عن المدينة كان على حق، فانها بدت أجمل المدن

التي زرتها. لقد سمعتهم يقولون إن ايروبي هي لندن الصغيرة ؛ وقد زرتها ، ولعلهم على حق ، ولكن هراري لاتقل عنها ، إن لم تفقها . بعد حوالى الساعة عدت إلى الفندق ، وتناولنا طعام العشاء ، ثم صعدنا إلى الحجرة وانقضى اليوم

١/٤

كان على أولا ان أزور السفارة المصرية ، جريا على عادتي ، أعلمهم بوجودنا وفي الساعة التاسعة والنصف طلبت سيارة أجرة أقلتني إلى السفارة، في الطريق شاهدت ملاعب التنس ، والنوادي، والحدائق العامة ، منظمة كأحسن ما يكون التنظيم ، وبعد حوالى ربع ساعة وصلنا إلى السفارة وهي تقع في حي هادىء ، جميل ، ولها حديقة واسعة جداً . دخلت إلى الاستقبال ليستقبلني موظف استقبال بربطاق الجنسية على ما أعتقد ، فقدمت له نفسي، وطلبت مقابلة السيد إيهاب طاهر القائم بأعمال السفارة ؛ وطلب مني الموظف الانتظار لأنهم مشغولون بزيارة السيد عمران وكيل وزارة الخارجية فانتظرت. بعد فترة دخل شخص أشعث الشعر مفلفة يرتدى قميصا وسروالا ، ورباط عنق ، ويحمل في يده جاكتة ، تخاطب قليلا مع الموظف المختص ، وفهمت من حديثهما أنه يرتب مواعيد السيد وكيل الوزارة. أثناء الحديث طلب مني موظف الاستقبال أن أذكر إسمي ؛ والمهمة التي جئت بصددها وأخبرته عن إسمي مضيفا إنها مجرد زيارة مجاملة ، وإنني مقدر مدى مشغولياتهم ، ولامانع عندي من الحضور في وقت آخر. حينما ذكرت إسمي تفرس في السيد الأشعث لكنه لم يتكلم .

مالبث أن خرج ، ومعه موظف الاستقبال ثم عاد الأخير ، وطلب مني أن أتبعه .

دخلت حجرة إنتظار أخرى ، ثم مالبث أن حضر السيد إيهاب ، واستقبلني بترحاب معتذراً عن التأخير، وأجبت بأنه إن كان هناك خطأ فهو

منى ، إذ أننى لم أكن أعلم عن زيارة السيد وكيل الوزارة ، والمؤتمر المنعقد ، ولم أطلب تحديد موعد مسبق . سألنى أين أقيم فأجبته ؛ وأخطرته بأنى اولا أشكرهم على مابذلوه بخصوص تأشيرتى دخولنا ، وثانيا أنى قد استعرت بطارية فيديو السيد محي الدين بسيونى سفيرنا فى موزمبيق ، وأنى وعدت أن أتركها بعد استعمالها ، وقبل رحيلى من زيمبابوى ، فى السفارة لحين حضور أحد من طرفهم ، فقال إنه لايرى غضاضة مطلقا فى أن يقوم بهذه الخدمة ، فأعدت شكره ، وطلبت منه أن يطلبوا سيارة أجره ففعل ، وودعنى معتذراً مرة ثانية بأن ضيق وقتهم لايسمح بأن يقوم بواجب الضيافة ، فودعته شاكراً ، ومقدراً .

عدت إلى الفندق مرة ثانية لأخطر زوجتى بأنى سوف أتغيب لأنى يجب أن أبحث عن وسيلة انتقال إلى شلالات فكتوريا فى الغد، وحتى لاتضيع الأيام هباء ، ذهبت إلى شركة تدعى أبكو، إلى جوار الفندق مباشرة، وسألت الموظفة المختصة عن إمكانية استئجار سيارة لبضعة أيام تقلنا إلى الأماكن التى نريدها ، فأجابت بأن هنالك أزمة مؤقتة فى الوقود نظراً لما قام به الثوار من تدمير خط أنابيب البترول ، وكنت قد قرأت عن هذا ، وأن جميع سياراتهم تعمل الآن فى نطاق المدينة ، ثم قالت إنها ستحاول ، وتركت لها رقم حجرتنا فى الفندق لتتصل بى إذا استطاعت عمل شىء .

تركتها وذهبت إلى أفيس فكان الرد مقاربا لهذا ؛ وهى شركة سياحية أخرى، ثم إلى شركة هرتز ؛ واعتذرت الفتاة أيضا ، لكنها أشارت على الذهاب إلى مكتب السياحة الحكومى فى استطاعتهم مساعدتى على تنظيم الرحلة ؛ فعلا ذهبت وقال الموظف إننى استطيع الذهاب إلى شركة وورلد ترافل فى شارع سانلى حيث أنهم فى استطاعتهم، مساعدتى واتصل بالشركة أمامى ثم قال إنهم فى انتظارى الآن إذا شئت ذهبت إلى هنالك.

فى الطريق أتيح لى أن أرى الكثير من المدينة . والمحلات التجارية . وتأكدت مما سبق أن ذكرته من حسن التنسيق ، وكثرة البضائع ، وتنوعها .

سواء فى الطعام أو الملابس أو البضائع التذكارية . وبهذه المناسبة ان أكثر المصنوعات الشعبية هنا أيضا هى مصنوعات الاخشاب، والسلال فهم ماهرون جدا شأن جميع أهالى هذه المناطق ، وهذا طبيعى لكثرة الغابات ، وبالتالى الأخشاب الجيدة ، كما أنهم فنانون ذوو ذوق رفيع ، وعبقريات خلاقه . بالإضافة الى هذا رأيت المصنوعات النحاسية ، ولا عجب اذ دخلنا فى نطاق الحزام النحاسى العظيم فى أفريقيا . مهارة الاهالى فى الصناعات النحاسية لا تقل عن مهارتهم فى المصنوعات الخشبية ، بل لعلها تفوقها فناً ، وجمالا وابداعا وابتداعا .

فى الطريق أيضا مررت على حديقة واسعة تجمع على طرفيها عشرات الاهالى ، وأمامهم شتى أنواع الزهور يبيعونها ، وهى أيضا منسقة تنسيقا جميلا ، وفى مجموعها تعطى منظراً أخاذاً . أخيرا وصلت الى مقر شركة وورلد ترافل للسياحة ، واستقبلنى الموظف ،وقال إن لديهم رحلة فى الصباح المبكر الى شلالات فكتوريا . ومنها إلى وانجى ، وأن الرحلة بالطائرة إلى الشلالات . ومن المطار سوف نستقل سيارات الشركة إلى أحد الفنادق ، وفى اليوم التالى . أيضا نستقل السيارات إلى الشلالات ثم فى اليوم الثالث نستقل الطائرة الى وانجى حيث الحدائق المفتوحة ، ثم نعود الى هرارى فى اليوم الخامس أى يوم الاربعاء . كان هذا يناسبنى . وان كان معناه أنى لن أرى آثار زيمبابوى ، لكننى أجلت رؤيتها الى وقت آخر قريب ان شاء الله ، خاصة وان السياحة بالسيارة قد تكون فيها خطورة فى المنطقة من وانكى الى بولاوايو حيث تشتد شوكة الثوار .

فى الشركة أيضاً طلبت من الموظف تأكيد حجز أماكننا فى طائرة العودة

إلى دار السلام فى يوم ١/٢١ فصل . تركت الشركة على أن أعود فى الساعة الثالثة لكى أستطيع استبدال بعض النقود من البنوك ، وهى بهذه المناسبة ، تعمل حتى الثانية والنصف بلا انقطاع . ذهبت إلى أحد البنوك واستبدلت ما يكفى لسداد فاتورة الشركة ، ثم عدت إلى الفندق . وفى حوالى الساعة الواحدة والنصف تناولنا ، زوجتى وأنا طعاما دسما وان يكن فى طبق واحد لكن قطعة اللحم زادت على نصف كيلو فى تقديرى ، وهى أقل ، أو تقارب [illegible] زوجتى . فى الساعة الثانية والربع نزلنا سويا إذ أرادت زوجتى أن تقوم ببعض المشتروات التذكارية ، وأن تلقى نظرة على المدينة .

سرنا ، زوجتى وأنا ، حتى وصلنا إلى طريق ستانلى وهو أحد الطرق الرئيسية فى المدينة . هنا تعرضنا لمحاولة سرقة كنت أسير إلى جوارها وقد اعتادت هى أن تحمل حقيبة كبيرة لتضع بها جميع أوراقنا جوازات السفر وما شابه ، وكنت أنا لا احمل شيئا ، لكننى كنت أضع النقود التى استبدلتها فى جيبى الأيسر كعادتى والواقع أن فى هذا خطرا كبيرا ، إذ أننى سبق أن تعرضت للنشل فى بوروندى ، وأيضا كنت أضع النقود فى جيب بنطلونى الأيسر ولولا لطف الله لفقدنا ما معنا . هنا أيضا تعرضنا للنشل ، أو لعلها أقرب إلى السرقة ذلك أن أحدهم دفعنى فى كتفى ، ثم دخل الشخص الآخر بينى وبين زوجتى عنوة فقد كانت تسير إلى يسارى وأحسست بيد الأخير تدخل جيبى فقبضت عليها ، إلا أنه تخلص منى بسرعة تاركا النقود وأسرع بالعدو .

لم أتوقف لا تحقق مما إذا كان قد سرق شيئا أم لا إذ أن ما كنت أخشاه حقيقة أن يكون قد سرق شيئا من حقيبة زوجتى ، وأسرعت بالعدو وراءه . من الغريب أن الشارع كان مزدحما ، وكنا كما ذكرت فى حدود الثالثة ظهرا أى فى وضح النهار ومع ذلك فلم يحاول أحد أن يوقفه ، وتركوه يعدو ولم

يعرقله أحد فيما عدا سيدة أجنبية حاولت إيقافه فدفعها بعيداً، هذا رغم أنى صحت أوقفوا اللص. عدوت وراءه مسافة تزيد على مائتى متر ولم ألحقه ثم مالبثت أن اختفى. عدت لأرى زوجتى واقفة قلقة فسألتها عما إذا كان اللص قد أخذ شيئاً من حقيبتها فأجابت بالنفى، ثم أعطتنى بعض الدولارات الزيمبابوية التى كانت قد سقطت على الارض وأنا أقبض على يد اللص، أحصيت النقود ووجدت أنها تنقص عشرين ريالا ربما كان اللص قد أخذها وربما ضاعت حينما جمعت زوجتى النقود من الارض. على أى الاحوال فان الله سلم ولم تكن الخسارة كبيرة. خرجت من ذلك بدرس أن لا أضع أية كمية من النقود فى مكان ظاهر من ملابسى فهى تجتذب اللصوص والنشالين.

كان من نتيجة هذه الحادثة أن تأخرت إلى الساعة الثالثة والنصف عن موعدى مع موظف الشركة فاعتذرت له ذاكرا ما حدث. والموظف رجل من الاهالى، وصاحب الشركة كالعادة رجل أوربى، وقد استمع الاخير إلى القصة وسألنى عما إذا كنت قد أبلغت الشرطة فأجبته بأنى لم أفعل، إذ أن ما سوف أقوله لهم لن يكون ذا فائدة، فعلق على ذلك قائلا إنى محق لأن الزنوج جميعاً فى نظره يتشابهون. تحول نظرى رغماً عنى إلى السيد الموظف، فإذا بصاحب الشركة يعلق مرة ثانية أن لا أهتم اذ أن سيمون، وهو اسم الموظف، يفهم، وهو منهم أى من البيض ؟ !.

لم يكن هذا ما قصدته مطلقا من اجابتى الاولى، ولهذا علقت قائلا انى انما قصدت أنى لم أتبين ملامح اللص اذ كنت أعدو وراءه. وكل ما أستطيع أن أصفه هى ملابسه، وربما سنه التقريبى. أما عن السرقة والنشل فإنهما للأسف يحدثان فى جميع بلاد العالم وأكثرها تحضرا وثراء. وقد

قصدت من اللفظ الأخير أن أنبه الأوروبى إلى أن فقر الأهالى هنا ، إنما يعود إلى امتصاص الأوروبيين لدمائهم ، وأموالهم وإن كنت أحسبه لم يفهم هدفى ، أو لعله فهم ، وفضل الصمت .

على أى الأحوال دفعت حسابى ، وخرجنا من الشركة لنعود إلى الفندق بعد أن قمنا ببعض المشتروات الخفيفة . فى الفندق ، أخطرتهم بأننا سنخلى حجرتنا فى اليوم التالى ، ودفعت حسابى ، وتركت حقيبتى الصغيرة وديعة لديهم إذ لم أشأ أن أحمل سوى حقيبة واحدة ، كما حجزت فى الفندق ليومى الأربعاء والخميس ١٩، ٢٠ يناير ، إذ أن موعد رحيلنا من هرارى إلى دار السلام هو الجمعة ١/٢١ . لم نتناول عشاء سوى بعض السندوتشات ، والشاى لأن طعام الغداء كان دسماً لم يتم هضمه .

١/١٥

أيقظنا كاتب الاستقبال فى الساعة الخامسة صباحا ، وبعد ذلك بربع ساعة جاء النادل بالشاى والقهوة . أتممنا استعدادنا ، وتركنا الفندق فى السادسة وعشرة دقائق لنصل إلى المطار فى السادسة والنصف . لم يكن هناك تفتيش للحقائب ، وسارت الأمور بيسر فى المطار الأنيق ، وجزء منه مخصص للخطوط الداخلية . كل التفتيش الذى تم كان فيما نحمله من حقائب معنا ، نظراً لوجود الثوار فى الجنوب الغـــربى ، كما ذكرت ، وهى منطقة قريبة من مقصدنا ، ومع ذلك لم يكن فى التفتيش أية مضايقـــة ، وتم بكياسة وسرعة .

توجهنا إلى الطائرة وجلسنا فى مقعدينا المحددين طبقاً لأرقام معينة ، وقامت الطائرة متأخرة قليلا عن موعدها فقد كان موعد القيام السابعة والربع ، إلا أنها لم تتحرك إلا فى السابعة وأربعين دقيقة ، ووصلنا إلى مطار الشلالات فى الساعة التاسعة والثلث . والمطار صغير ، إلا أنه نظيف وأنيق . هنالك أخذنا حقائبنا ، ثم توجهنا إلى Flame dily حيث

أعطتنا موظفة تذاكر للانتقال فى سيارات الشركة ، والإقامة فى الفنادق المدة المحجوز لنا فيها . وبهذه المناسبة فإن اسم المكتب هو اسم زهرة اتخذتها الدولة شعاراً لها .

حملتنا سيارة ركاب كبيرة ، تملكها شركة طيران زيمبابوى ، من المطار إلى مكتب الشركة فى قرية شلالات فكتوريا . والقرية صغيرة ، شوارعها جيدة الرصف ، تحيط بها الحدائق الواسعة ، وتستغرق مساحة هائلة مع أنها لاتزيد على مائتين أو ثلاثمائة منزل ، وهى أنيقة بل بها بعض المحلات التجارية المزدحمة بالبضائع ، ووجدت بها مثلا أفلاما لآلة التصوير فى حين أنى لم أجد فى دار السلام أو مابوتو ، أية أفلام ، مع الفارق الهائل فى الحجم والمساحة والأهمية . وتعداد المدينة حوالى ٧٢٢٠ شخصاً ، وارتفاعها ٩١٣ فوق سطح البحر . من مكتب شركة الطيران حملت سيارات صغيرة الركاب القادمين كل إلى وجهته ، ولما كنا سوف نذهب إلى فندق نهر زيمبابوى فقد أخذنا أماكننا فى السيارة المتجهة إلى هناك . فى السيارة ، وفى المقعدين المجاورين لنا كان يجلس شخصان ، ويبدو أنهما سمعانا نتكلم بالعربية فوجه أحدهما حديثه إلينا بها ، ودهشت إلا أنى علمت أنهما لبنانيين وقد استوطنا البلاد منذ تسع سنوات ، وافتتحا محلا تجاريا فى هرارى ، وأنهما الآن فى رحلة عمل سيعودان منها فى اليوم التالى ، ومما يؤسف له أنهما لم يقدما نفسيهما إلا قرب نهاية رحلتنا إذ مالبثنا أن تركانا فى إحدى المحطات التى تقف فيها سيارة الركاب الصغيرة ، وأن وجدنا فى مجرد هذا الحديث السريع لفتة أخويه لطيفة .

وصلنا إلى الفندق فى الساعة العاشرة ، وأخذنا حجرة جميلة مكيفة الهواء ، وكان الجو حارا وإن يكن غير شديد الرطوبة مثل دار السلام ، ومابوتو . والفندق بعيد عن المدينة ، وبنى وسط المروج التى ترتع فيها الحيوانات ، وبالإضافة إلى هذا فإنه يقع على شاطىء نهر الزمبيرى مباشرة لا يفصله

زيمبابوى

زامبيا
شلالات فكتوريا
بحيرى
نهر شنغانى
وانكى
هرارى
بولاوايو
فورت فكتوريا
موزمبيق
بوتسوانا
جنوب افريقيا

عنه إلا سياج من الأسلاك ، وقطعة من الأرض لا يزيد عرضها على عشرين متراً . ويمكن اجتياز السياج عن طريق بوابة صغيرة كتب عليها ، أغلق السور بعد تخطيته ، وذلك حتى لا تدخل الحيوانات المتوحشة إلى الساحة الضخمة المخصصة للفندق ورواده .

تريضت قليلا فى أرجاء الفندق أتعرف عليه ، فى حين قامت زوجتى بإفراغ الحقيبة ، وإعداد الملابس ، ثم تناولنا طعام الغداء . ولعله من الطريف أن أذكر أن اشتراكنا فى الرحلة كان يشمل كل شىء : أعنى ثمن تذاكر الطائرة ، والانتقال الداخلى ، والذهاب إلى الشلالات ، والسياحة فى نهر الزمبيرى ، ثم الإقامة ، والإفطار والعشاء ، ولا يشمل الغداء فقط ، وهذه هى المرة الأولى التى أصادف فيها مثل هذا النظام ، وإن كنت قد صادفت أحياناً استثناء طعام العشاء

فى الساعة الخامسة إلا ربعاً ، وصلت سيارة الشركة لتحملنا إلى مرسى مركب بخارى كبير يتكون من دورين ؛ ويحمل مائة راكب . وصعدنا إلى السطح حتى تكون الرؤية أوضح ، واتخذنا مجلسنا . بعد قليل حضرت جماعات أخرى اكتظت بهم المركب وجلس إلى جوارنا ، والمائدة أربعة مقاعد ، رجل انجليزى وزوجته ، يكبرانا قليلا فى السن وكان ظريف الحديث طليقه . فى الساعة الخامسة والنصف أقلعت بنا المركب فى اتجاه الشرق أى فى الطريق العكسى للشلالات من نقطة أوسع قليلا من ترعة الاسماعيلية وإن اتضح بعد ذلك أن الضفة المقابلة لنا هى جزيرة كولوندا التى تقع وسط النهر وأنها تقع فى أراضى زامبيا . بعد أن تجاوزنا الجزيرة اتسع النهر جداً ووجدنا أن به عدداً كبيراً من الجزر الصغيرة . أثناء الرحلة تحادثنا مع جارينا واتضح أنهما من جزيرة مان وهى جزيرة تقع بين ايرلندا ويوركشاير ، كما اتضح أن ابن السيدة من زوج سابق قد لقى مصرعه فى الشلالات إذ كان يلتقط

بعض الصور وانزلقت قدمه ولم يعثروا على جثته . وفى حدود الساعة السابعة عدنا إلى المرسى ، وأقلتنا سيارات إلى فندق شلالات فكتوريا . ورأينا على البعد دخانا يتطاول إلى السماء ولم نلبث أن تبينا أنه رذاذ مياه الشلالات . دخلنا بعد ذلك قرية ملحقة بالفندق شاهدنا فيها عرضا لرقص قبيلتين هما شينجا وماكيني وهما من قبائل الزولو وشملت الرقصات رقص تكريس الشبان ليدخلوا فى طبقة الرجال ، وتعليمهم الرقص بالسلاح ، ورقصة الحرب ، والروح حينما تلبس شخصا . لكن أظرفها كان استعراضاً قدمه رجل صعد على عامودين متقابلين يبلغ ارتفاعهما حوالى عشرة أمتار . وأدى بعض الرقصات الرمزية وهو على هذا الارتفاع . وفى الساعة الثامنة والربع عدنا إلى فندق زامبيزى لنقضى بقية الليلة .

١/١٦

كان المفروض أن تأتى سيارة الشركة لتقلنا فى الساعة التاسعة والربع إلى شلالات فكتوريا وقد فكرت فى الأمر . هذا هو أهم جزء فى الرحلة فى الواقع وكانت معى آلتى الفيديو والتصوير بالإضافة إلى آلتين أخريين للتصوير وهى ثقيلة الحمل ، وتأخذ مساحة كبيرة . واستشرت زوجتى أن نستقبل سيارة أجرة خاصة وندع سيارة الشركة لأنها ، أولا سوف تزدحم بالسائحين وثانياً لأننا سوف نكون تحت رحمة الدليل ، ولن يقف بنا حيث نريد كما أننا لن نستطيع أن نتأخر إذا شئنا التمهل . وافقتنى زوجتى على الرأى ومن ثم طلبنا شركة أفيس هاتفيا ، ووعدتنا بإرسال سيارة صغيرة فورا . حينما جاءت سيارة الشركة رفضنا أن نستقلها ، فصعد فيها باقى السائحين ثم بعد حوالى عشرة دقائق حضرت سيارة الأجرة التى طلبناها وبدأنا رحلتنا . لكن قبل أن أصف الرحلة أود أن أذكر شيئاً عن الشلالات .

أسماها الأهالى موسى . أو تونيا Mosi oa Tunya وتعنى حرفياً الدخان الذى يرعد . وحينما رآها ليفنجستون لأول مرة فى ١٦ نوفمبر

سنة ١٨٥٥ أسماها تيمنا بالملكة فكتوريا. وأقيمت أول مستعمرة أوروبية على ضفة الزمبيزى فى أضيق منطقة لمجراه بين الشلالات وتيارات كانوا مجبورا لكن نسبة كبيرة من الأوروبيين أنهكتهم حمى المياه السوداء، ولهذا نقلت المستعمرة إلى منطقة أكثر ارتفاعا.

ومما يذكر أن سيسل رودس كان يحلم أن تمتد أملاك الامبراطورية البريطانية فى افريقيا من كيب تاون فى الجنوب إلى الاسكندرية فى الشمال، وأن تتصل جميعها بخط حديدى واحد يربط القارة؛ ولهذا أراد أن يبنى قنطرة بين الجبلين اللذين يفصلهما أخدود عميق يسمى الإناء الذى يغلى Boi Ling Pot وفعلا بدأ العمل فى بناء القنطرة فى سنة ١٩٠٥.
هذا باختصار شديد هو تاريخ الشلالات. والآن أذكر بعض الحقائق عنها.

تقع على نهر الزمبيزى الذى ينبع من شمال زامبيا قريباً من تل كالينى. وطوله ألفان وسبعمائة كيلو متر. وهو بهذا رابع أنهار افريقيا طولا كما أنه النهر الوحيد فيها الذى ينبع من الغرب ليصب فى المحيط الهندى شرقا. أما الشلالات نفسها فيصل طولها إلى ١٦٩٠٫٧٤ مترا، وارتفاعها فى المتوسط ٩٢٫١١ مترا ويتدفق منها فى المتوسط مائة وعشرون مليون جالون من المياه فى كل دقيقة، وقد يصل إلى مائة وستين مليون جالون فى الدقيقة فى أوقات الفيضان. وينتج من شدة انحدار المياه رذاذ يتطاير ليرتفع فى الهواء إلى أربعمائة وخمسين مترا، أى خمسة أمثال ارتفاع الشلالات نفسها وقد قال عنها ليفنجستون حينما رآها لأول مرة، ولا بد أن الملائكة حدقت فيها أثناء طيرانها. ونستطيع نحن الآن أن نطير فوقها فعلا إذ توجد طائرات خاصة تؤجر لهذا الغرض.

تعالى معى نسير ألف وسبعمائة متر تقريباً هى طول الشلالات وقفت بنا السيارة فى مدخل حديقة تبدو لأول وهلة من الحدائق العادية، بل

ولعلها تبدو وكأنما عبثت بها يد الإنسان فنسقتها ، والواقع أن كل مافعله الإنسان هو شق الطريق وسطها وقامت الطبيعة بالباقى فأبدعت التصوير . أشجار ضخمة متراصة تكاد أن تتشابك أحياناً ، وتتباعد أحياناً أخرى ، وأعشاب خضراء تغطى الأرض ، ونباتات مزهرة ، وغير مزهرة لو أنك نظرت إلى أوراق الأشجار نظرة سطحية لخلتها لا تفترق عن بعضها ، لكن قليلا عن التمعن سرعان ما يقنعك بأن الخالق قد أبدع فى الأوراق ابداعه فى كل مافعل . ستجد ألواناً مختلفة ورسومات متباينة لا تقل فى روعتها عن الأزهار والأطيار . هل لاحظت مثلا أن المعظم الساحق من الأشجار الضخمة رقيقة الأوراق ، وأن الأوراق الغليظة أو الكبيرة ، إنما توجد فى النباتات أو الأشجار الصغيره ؟ وهل فكرت فى سبب ذلك .

بين هذا الإبداع فى الصنعة سرنا . أثناء سيرنا أشار السائق إلى تمثال منصوب على الجهة اليسرى بعيداً عن الأمطار الدائمـــة ، كان هذا تمثال ليفنجستون الذى لم يضر رجل الإفريقيين كما فعل ، ولست أدرى ماقيمته حتى يقام له تمثال عند الشلالات العظيمة كأنما قام بصناعتها ، أو حتى كأنما اكتشفها ، فقد كانت معروفة لدى البانتو قبل أن يولد بمئات السنين . ربما كانت أهمية ليفنجستون أنه أول أوروبى شاهد الشلالات ، وربما كان لهذا أهمية لدى الأوربيين ؛ ولكنه قطعاً لا أهمية له ؛ أو على الأصح لا فائدة له لدى الأفريقيين : لماذا مثلا لا يقام تمثال لأول عربى رأى شلالات فكتوريا فمما لاشك فيه أن عرب عمان ، وزنجبار قد رأوها قبل لفنجستون بسنوات عديدة ، ولولاهم ما تمكن هو من السير فى هذه المناطق ؟! لكنها الدعاية الأوروبية ، حينما تذكر تاريخ العرب فى أفريقيا ، فإنما تذكره مقترنا بالرق ، وحينما تذكر لفنجستون وأمثاله من المبشرين تذكر أنهم مكتشفون ، وأبطال ، ولا تذكر أنهم أول المستعمرين ، وأنهم هم الذين جلبوا الذل والدمار على الافريقيين ، أو على حد تعبير قرأته أعطونا الكتاب المقدس ، وحينما أمسكناه أخذوا الأرض من أيدينا .

بدأت آذاننا تلتقط صوت هدير يتزايد كلما تقدمنا . سار بنا السائق فى ممرات طويلة ثم توقف فقد التقينا بالنهر . كانت المياه قد أسرعت ، وتضاربت تياراتها ، واعترضت المجرى صخور سوداء تتلقى لطمات لانهاية لها من المياه المتدفقة المندفعة من كل جانب ، التى تبدو وكأنها تود أن تفر من مصيرها المحتوم نحو الهوة العميقة أمامها . مياه حيرى كأنما هى مجموعات من البشر مسها الذعر فراحت تتخبط لاتدرى أين المفر . ووقفت الجبال الشم تحيط بالمياه تمنع فرارها ، وتحدد مسارها إلى مصيرها .

لقد أحسن من أسماه خانق الشيطان ، إليه اندفعت المياه تسحب سحباً ، وتجر رغم أنفها ، وتبدو وكأنها تقاوم مرتعبة ثم تجبر على الاندفاع فى الخانق ، بين الجبلين ، لتزداد سرعتها وتتعاظم كمياتها ، وتتلاطم على غير نظام ، ويغلظ عن دمائم فجأة ... تختنق .

تركنا الموقع فلم نعد نرى المياه ، وإن كانت أصواتها تأتينا غاضبة هادرة . عدنا إلى السير ، وتقدمنا السائق ثم توقفنا عند شجرة ضخمة . من هنا بدأنا الهبوط درجات ، مائة درجة أو تزيد ، لكنها ليست درجات عادية ، وإنما هى منحوتة ، فى الصخور ، ولعل ارتفاع كل منها خمسون سنتيمتراً أو يزيد . إنك لاتستطيع أن تهبط بقدم على درجة لتنقل الأخرى على التى تليها ، وإنما يجب أن تستقر بقدميك على كل درجة . أخيراً وصلنا إلى مكان نرى منه الشلال الأول . ومجرى النهر تحتنا . كانت المياه قد عرفت مصيرها ، وروضت نفسها عليه ، فهبطت من عليائها فى قوة ، وغزارة لامثيل لها ، لتكون ستارة بيضاء ترتطم بما سبقتها من مياه ، ويرتد منها رذاذ فى محاولة للعودة إلى أعلى ثم تعود لتنضم إلى زميلاتها . ويهدران فى غضب فى مجرى ضيق بدت فيه المياه ، وكأنها تغلى وتفور .

لم يكن هذا كل شىء . وإنما يبدو أن المياه قد اقتضت لنفسها على مر القرون

من ذلك الجبل الأشم فشقت طريقا آخراً وسطه ، فأضحى هناك شلال . أضيق من سابقه ، ومحصور أيضا بين جبلين. وبذا صار أحد الجبال محصوراً بين مياه غاضبة يتلقى لطمات من كل اتجاه . ويهبط الشلال الثانى بين الجبلين فى أخدود ضيق ، فتكون المياه فيه أشد اندفاعا ، وأ كثر تركيزاً . ويتطاير الرذاذ بقوة ليكون ما يشبه ستارة الدخان تخفى جزءا من الشلال نفسه . ثم تندفع المياه فى المجرى ، لتلتقى بأختها الآتية من الشـــلال الأول ، وتسير مزمجرة مدمرة غاضبة لما لقيت معاملة .

هل تظن أنى وصفت الشلالات ؟ أبداً فإنى لم أكد أبدأ . ولا تنس أنى ذكرت أن اتساعها يبلغ حوالى ١٧٠٠ متراً، وأخدود الشيطان هذا لا يزيد على مائة وخمسين متراً ، فهو أقل من عشر الشلالات . ويبدو أن النهر قد انحرف فى هذه المنطقة فخرج عن مجراه الأصلى ، وشق لنفسه سبيلا بين الجبال. لكن المجرى الأصلى مايزال فى سيرانه العادى. تركنا المنطقة وصعدنا الدرج الطويل ، وهى رحلة شاقة . لكننا مع كبر سننا ، لم نشعر بها فى كل خطوة كانت الجبال تحيط بنا بشكل متغير متنوع . النهر والصخور . والأشجار والخضرة ، والنباتات كلها تضافرت لتخرج لك آية من آيات الله جل شأنه . أخيراً وصلنا إلى القمة . وتابعنا السير بين الأشجار إلى الطريق الممهد المرصوف وعرج بنا دليلنا إلى طريق جانبى . لم نكد نسير فيه مائة خطوة ، حتى انكشف أمامنا منظر آخر ، ودليل جديد على عظمة الله . كنا قد دخلنا نتوءاً بارزاً فى الجبل ، يصل إلى مدخل مجرى النهر أمامنا كانت الشلالات ، أقل من سابقتها عنفاً إذأن مجرى النهر هنا ضحل . وتوجد وتوجد جزيرة تحد من جريان المياه ، ولهذا هبطت المياه أقل كثافة وأخف حدة . ولكنها أيضا لم تكن تخلو من الجبال . بل إن رذاذها قد انعكست عليه أشعة الشمس لتكون قوس قزح ، إذ لم يكن الرذاذ من الشدة بحيث يمحوه ، ولا من الضعف بحيث لا يظهر فيه . كم من الزمن يلبث المرء واقفاً

يتأمل هذه المعجزة؟ دقائق! ساعات! أيام؟! أو سنوات! لن تمل النظر إليها، ولن تجد المنظر واحداً، ستجده يتجدد في كل دقيقة كل ثانية وستظل مبهوتاً كالمأخوذ من روعة، وجمال ما ترى، لكن عليك أن تتحرك فالدقائق تمر، والساعات تمر، وأمامك الكثير.

عدنا نتقدم في الطريق الطويل، الممهد، ولم نلبث أن شعرنا بقطرات ماء تتساقط علينا. تطلعنا إلى السماء، وكانت صافية، وهالنا أن فهمنا. لقد اقتربنا من الشلالات الرئيسية، وهذا هو الرذاذ يتساقط. لقد نشأت من الرذاذ الدائم غابة، دائمة الخضرة، أسموها غابة الأمطار إذ أن الرذاذ لا ينقطع عنها، في أية لحظة من لحظات السنة. ويعجب المرء كيف يعيش النبات وكيف تحيا الأشجار، مع هطول المياه الذي لا ينقطع.

يرنا، وكلما تقدمنا ازداد هطول الرذاذ، وأخيراً انكشفت منطقة صخرية لا نبات فيها ولا شجر، نتوء آخر من الجبال يعترض مجرى النهر، ويقابل الشلالات. هنا رأيت عجباً، كانت هذه هي الشلالات الرئيسية وقد إندفعت فيها المياه بشدة، حتى أن رذاذها يتطاير إلى حد أنه كون ستارة بيضاء كثيفة، اخفت الشلالات نفسها. إن ارتفاع الشلالات كما قلت حوالى مائة متر، أما الرذاذ فإنه يرتفع إلى أربعمائة وخمسين متراً، أي أربعة أو خمسة أضعاف الشلال نفسه، ولك أن تقدر من هذا شدة الاندفاع، وقوة السقوط. إمتلأ الجو كله، والمنطقة كلها، بالرذاذ؛ المتطاير حتى أضحت أمطاراً حقيقية بللت ملابسنا تماماً؛ ومع هذا فلم نشعر بما نحن فيه إذ أخذنا جلال المنظر وجماله. هذه هي سحابة الدخـــان التي رأيناها من فندق فكتوريا فولز تتطاول إلى عنان السما. هذه التي أسماها البانتو بحق الدخان الراعد.

من هذه النقطة ، وهى بين ثلث الشلالات ونصفه ، لم يتوقف الرذاذ . كنا زوجى ، وأنا ، كطفلين يلهوان تحت مياه الأمطار لأول مرة ، ومن الجلى أننا لم نكن الوحيدين الذين طغى عليهما هذا الشعور فكنت ترى سائر السائحين يلهون بمعنى الكلمة تحت الرذاذ وقد استخفهم الطرب . منهم من خلع قميصه ، ومنهم من حمل نعليه وسار حافيا ، نساء ورجالا ، شبانا وشيباء سرنا متمهلين غير متعجلين الهروب من رذاذ المياه الكثيفة . ورأينا الشلالات تتغير أشكالها من الرقيق الذى يبدو كستارة حريرية ، إلى المندفع بقوة حسب طبيعة أرض النهر فإن كان قبل الشلال جزيرة ، أو كانت أرضا ضحلة فهو خفيف وإن كان المجرى ضيقاً أو عميقا فالشلال قوى مندفع .

مررنا على شلالات قوس قزح ، رينبو ، حيث تنعكس أشعة الشمس خاصة فى الصباح ، وتظهر ألوان الطيف فى أجمل صورها ، ألوان دائمة باقية ويقف المرء ليتأمل جمالا سرمديا انعدم معه الزمن فهو الأمس ، وهو اليوم ، وهو الغد . معجزة خالدة دعت زوجى لأن تهتف قائلة إن عجائب الدنيا السبع ، لو تجمعت لبدت قزمة أمام مقدار هذا الجلال الأبدى . أخيرا ، ودائما تحت مياه الرذاذ المتساقط ، وصلنا إلى ما يطلقون عليها دانجر بوينت أى نقطة الخطر ، وهى نتوء جبل صخرى يتساقط عليه الرذاذ بشدة ومقابله نتوء جبلى آخر عند الضفة الأخرى ، وهى تدخل فى حدود زامبيا . فى هذه النقطة ينحنى النهر انحناء شديداً فى حين أن الشلالات تستمر فى امتدادها مسافة ثلاثمائة متر تقريبا . تصطدم المياه بعد ذلك بالجبال ثم ترتد لتلتقى مع أخواتها الآتيات من الشلالات الأخرى لتكون دوامات مائية رهيبة ، أطلقوا عليها الإناء الذى يغلى أو بوبلنج بوت .

هذه هى أخطر منطقة وأكثرها سقوط رذاذ ، إذ لا تحميها أية أشجار

قريبة . هنا توجد بعض الصخور الزلقة إثر استمرار سقوط المياه عليها ، وبالإضافة إلى هذا فهى نتوء جبلى لا يزيد عرضه على عشرة أمتار ، ويحف به من الجوانب الثلاثة هوات صخرية تسقط رأساً إلى المياه المتلاطمة من كل جانب . هنا أيضا حسبما فهمنامات ان السيدة الانجليزية التى التقينا بها على المركب النهرى ، كان يصور بآلته وتراجع ، أولعله تقدم خطوة فهوى من حالق ليختفى فى اللجج المتصارعة .

كان لابد أن نتحرك فانتزعنا أنفسنا انتزاعا ، وسرنا وراء دليلنا . دخلنا غابة ثانية انقطع فيها الرذاذ ، وسرنا فى طريق ممهد إلى منطقة أخرى تطل على الإناء الذى يغلى كنا نطل على الجسر الذى أقيم بين الجبلين ، والذى يصل مابين زيمبابوى ، وزامبيا ، والواقع أنه آية فى الإبداع الفنى . استندت دعائمه الحديدية على الجبلين المتقابلين ، ومع أن المسافة لا تزيد على مائتى متر أو ثلاثمائة إلا أنه بدا عملا خطرا ، ولا عجب أنه استغرق ثلاث سنوات لإتمامه .

انتهينا ، آسفين ، من زيارة الشلالات ، وأشار لنا السائق على طريق دعانا إلى اتخاذه وقال انه سوف يعود ليقابلنا بالسيارة عند منتهاه . سرنا وسط أشجار باسقة ، ونباتات ، وزهور وأطيار مختلفة الألوان متباينة الأصوات ، وفى النهاية التقينا بالسائق والسيارة .

كانت خطوتنا التالية هى المرور بالسيارة على القنطرة ؛ من زيمبابوى إلى زامبيا والعودة . وقد أخذنا السائق ، وعند الحدود قبل القنطرة وجدنا نقطة الحدود والجمارك . لما أعلمناهم بمقصدنا أعطونا تصريحا مؤقتا بلا مقابل ، وتخطينا الحدود ثم سارت بنا السيارة ، فوق الإناء الذى يغلى أو بويلنج بوت . ووصلنا إلى الحدود الزامبية ، ومنها عدنا أدراجنا بعد أن

ألقينا نظرة على النهر . قريباً من هذه النقطة أقامت زامبيا مشروعات لتوليد الكهرباء من المياه ولكن زيمبابوى لم تفعل ذلك من ناحيتها .

اتخذت السيارة سبيلها بعد ذلك إلى ما يسمى الشجرة الكبيرة ، وهى شجرة هائلة الحجم ، وربما يزيد قطر جذعها على ثلاثة ، أو أربعة أمتار وتتطاول فروعها وأغصانها ، لكن الواقع أن أى شيء بعد رؤيتنا الشلالات كان مسخا ، لا معنى له . لقد سبق أن وصفت جمال الشلالات على بحيرة تانا والنيل الأزرق ، لكن مثل هذا الجمال لم أره . فهو يشعرك بإبداع صنعة الخالق ، سبحانه وتعالى وبقدرته ، ويدخل الرهبة ، والخشية إلى قلبك ، ممزوجتان بالحمد .

عدنا إلى الفندق إذ كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ، وتواعدنا على أن يأتينا السائق بعد ساعة ، وأن يشترى لى ثلاثة أفلام للتصوير ، إذ كانت أفلامى قد فرغت . فى الساعة الثانية تماما ، عاد السائق وارتحلنا من الفندق متوجهين إلى مزرعة التماسيح ، وهى مزرعة أقامها رجل يدعى سبنسر كريك على بعد يسير من الفندق .

دخلنا لقاء ثلاثة دولارات زيمبابويه لكل منا ، والواقع أن الرجل بذل مجهوداً جباراً لجمع هذه التماسيح وتصنيفها ، فلديه حوالى أربعة آلاف تمساح ، وضع كل مجموعة حسب عمرها ، وأنشأ لها أماكن طبيعية تشابه بيئتها . تستطيع أن ترى مجموعة من تلك التى يبلغ عمرها سنة ، ثم مجموعة أخرى بلغت السنتين ، ثم الثلاثة ، وهكذا حتى تصل إلى التماسيح الناضجة ، بل وهنالك التماسيح الأنثى التى على وشك الوضع . بالإضافة إلى هذه المجموعة الهائلة فإن هنالك سياجا يحيط بمساحة كبيرة من الأرض وضع فيها زوجا من الشيتا .

على أن أجمل ما فى المزرعة الواسعة كان من فعل الطبيعة ، ذلك أن أعداداً كبيرة من الطيور ، زاهية الألوان ، اتخذت عشوشها ، فى الأشجار ومنها بالذات نوع ، يؤسفنى أنى لا أعرف اسمه ، يبنى عشه بطريقة فريدة إذ أن بابه إلى أسفل ، وتتدلى العشوش من أفرع الشجر ، وأغصانها، فيخيل إلى الرائى أنها نوع من الثمار الطبيعية . وقد شاهدنا بعض هذه الطيور وهى تصنع أعشاشها ، بمهارة فريدة ، والتقطنا لها بعض الصور .

خرجنا من الحديقة فى الساعة الثالثة ، وتوجهنا إلى حديقة الشـــلالات المفتوحة ، وهى بدورها قريبة من المنزل . دخلنا بعد أن دفعنا ، نصف دولار عن كل شخص ، وبالرغم من أننا أمضينا زهاء ساعتين إلا أننا لم نر كثيرا من الحيوانات ، بجرد بعض الكودو ، وهو نوع من الأيائل أقرب إلى اللاما فى شكله ، وغزلان الامبالا ، وبعض الثيران الوحشية ، وما شابه ، لكن هذه جميعها ، لم تكن شيئا مذكورا بالنسبة لما سبق أن شاهدناه ، خاصة فى تنزانيا ، أخيرا عدنا إلى الفندق ، فى الساعة السادسة والنصف ، وانتهى يوم مشهود فى حياتنا ، وأحمد الله الذى أبقانا على قيد الحياة حتى استطعنا أن نرى بعض عجائب خلقه ، ودلائل قدرته .

١٧ / ١

كان علينا أن نكون مستعدين للرحلة فى الساعة الواحدة والثلث ، والطائرة إلى وانكى ، محطتها التالية ، تقوم فى الساعة الثالثة إلا ربعاً ، والمسافة إلى المطار يجب ، كما فعلنا فى الإياب أن نقطعها على دفعتين : الأولى إلى مكتب شركة الطيران فى المدينة الصغيرة ؛ ثم بعد ذلك إلى المطار ، فى سيارات شركة طيران زيمبابوى . قضينا ، زوجى وأنا ، فترة الصباح فى استجمام كامل ، وتناولنا غذاء شهياً فى الحديقة أمام نهر الزمبيزى ، وقد ظهرت وراء السور أمامنا بعض الخنازير البرية ، راحت ترعى فى هدوء غير مكترثة بوجودنا ،

ثم ما لبثت أن اختفت . لما حان موعد ذهابنا حضرت سيارة شركة فلام ليلى وحملتنا إلى المدينة ، ثم جاءت سيارات شركة الطيران لتقلنا إلى المطـــار الصغير ، وفى الساعة الثالثة قامت الطائرة لتصل فى الثالثة والنصف إلى مطار وانـكى حيث نزلنا ، ومعنا بعض السائحين .

ما أود أن أذكره هنا أن جميع الخطوات تمت بيسر وسهولة ، وبلا تعقيد أو مضايقة ، مع أن هناك بعض الثوار فى المنطقة التى هبطنا فيها ، ومع أنى لاحظت أن بعض الجنود يختبئون فى الحشائش ، حول المطار ، وكل ما حدث أثناء صعودنا الطائرة أن الموظف المختص سألنا إن كانت معنا أسلحة من أى نوع فلما أجبنا بالنفى تنحى لنا آذناً بالمرور . هذا اليسر ، وهذه السلاسة فى سير الأمور لم أشاهدها فى أى بلد فى أفريقيا حتى الآن ، وإن قاربتها المغرب ، وكينيا . حتى تونس مع رقة المعاملة ، وضبط الإيقاع ، لم تـكن السهولة فى مجرى الأمور بهذا الشكل . وربما تلى هذه الأقطار الاربعة راوندا ، ففيها دقة فى التنفيذ ، ويسر إلى حد كبير رغماً عما حدث لى مع البلجيـكى مما رويته فى موضعه .

وصلنا الى مطار وانـكى كما ذكرت فى الساعة الثالثة والنصف ، وقابلتنا فتاة أعطتنا برنامج زيارتنا للحدائق المفتوحة مقررة أن أول زيارة لهـــذه الحدائق أعدت لنا فى الساعة الرابعة ، أى بعد أقل من نصف ساعة ، وكان علينا فى هذه الأثناء أن نستقل سيارة الشركة ، إلى فندق وانـكى ، وأن نسجل أسماءنا فى سجل الفندق ، ونضع أمتعتنا فى حجراتنا ثم نعود لنستقل السيارات فى الموعد المحدد ، قبل أن أتابع الحديث أود أن أذكر ثلاثة أشياء . أولها أن المطار صغير جداً فلا توجد فى المنطقة بلاد ، وإنما انشىء خصيصاً لخدمة الفندق ، والحدائق المفتوحة فحسب ، ومع ذلك فهو فى منتهى النظافة ، ومنتهى التنظيم ، ولا ينقصه شىء حتى السيارات الصغيرة التى

تحمل الحقائب الى المطار . إنى قارنت هذا مع ما رأيته فى الحبشة وشتان الفارق .

المسألة الثانية أن حدائق وانكى المفتوحة هى أكبر حدائق من نوعها فى زيمبابوى ، إذ تصل مساحتها الى ١٤٦٢٠ كيلومترا مربعا ، من مجموع مساحة الحدائق المفتوحه ، والغابات التى تبلغ ١١ ٪ من مساحة زيمبابوى جميعها ، أو ما يقابل ٤٤٦٨٨ كيلومترا مربعاً . والمسألة الثالثة هو أنى وجدت فنادق البلاد تتسابق فى الترحيب بزبنها ؛ واجتذابهم ، فيها ما يستقبل السواح بفرقة موسيقية وطنية ، تعزف بصفة تكاد أن لا تنقطع أمام المدخل ، ومنها ما يقدم مشروباً معيناً ، ومنها ما يترك تحديد المشروب للنزيل فله أن يطلب ما يشاء على حساب الفندق ، ومنها من ابتدع ، بالإضافة إلى هـذا ، أن يسألك عن موعد استيقاظك ، وعما تطلب من شاى أو قهوة ، فإذا ما حددت الموعد ، والشراب الذى ترغبه ، يقدم إليك فى وقته دون أدنى تأخير ، وهو على حساب الفندق ، ولا علاقة له بما يقدم فى وجبة الافطار العادية ، ولو كانت تدخل فى حساب المبيت ، ولك فى الإفطار أن تطلب أية كمية تشاءها من الزبد ، والمربى ، والشاى أو القهوة ، بل وأحيانا من عصير الفواكه ، والفواكه الطازجة وقد بالغوا فى فندق نهر زامبيزى ، إذ كانوا يضعون على مائدة مفتوحة سبعة أو ثمانية أنواع من المربى ، ولك أن تأخذ منها ما شئت ، وأية كمية ، كما لك أن تكرر أخذك بلا حساب ؛ وبلا حد نهائى . وتميز فندق وانكى بأنه يضع على مائدة مفتوحة فى الإفطار أنواعا متعددة من عصير الفواكه ولك أن تأخذ ما شئت كما تميز أيضا بالفواكه الطازجة سواء فى صيغة سلاطة ، أو قطع منفرده من الاناناس أو الشمام ، ولا رقيب عليك أو حسيب فيما تأخذ .

فى الساعة الرابعة تماما وصلت سيارة الشركة أمام الفندق ولعل ما نذكر

أن عددنا كان عشرة وكان يمكن أن تسعنا السيارة ، ولكن السائق رفض إذ قرر أن حمولة السيارة تسعة فقط ، واعتذر لنا ثم عاد بعد حوالى الخمس دقائق بسيارة سعة سبعة عشر شخصا ، وركبنا فى راحة . هنا فى الواقع تبينت أننى أخطأت فى قبول الرحلة إلى وانكى لأنه بعد تنزانيا من العسير جدا أن تجد متعة فى رؤية أية مجموعة من الحيوانات ، وحتى لا أظلم الحدائق المفتوحة فى زيمبابوى أذكر أننا شاهدنا مجموعة لا بأس بها . شاهدنا فيلين ، والكثير من الزراف ، والإمبالا ، وبعض الكودو ، وهو نوع كبير من الأيائل ، وابن آوى أكثر من مرة ، وبعض النعام ، والسفين بوك وهو أصغر أنواع الغزلان ، والخنزير البرى ، وغزلان الماء والجنو ، والحمر الوحشية ، والثيران كما شاهدنا الطائر السكرتير ، والكراوند هوتيل ، وهو نوع من العقبان لكنه لا يطير ، ولونه أسود ، وأصفر عند الرقبة . وفى الساعة الخامسة والنصف ، وصلنا إلى مساحة واسعة جرداء تقريبا وبها بركة أقيم قريبا منها كوخ خشبى مرتفع مقام على أعمدة من جذوع الشجر ومنه يستطيع المرء أن يكشف المنظر أمامه كاملا ، وقد رأينا فى البركة . فرس النهر (سيد قشطة) وتمساحين قابعين على الشاطىء ، كما رأينا الكثير من الأمبالا ، وغزلان الماء ، وابن آوى .

استمر تجوالنا فى الأدغال حتى الساعة السادسة والنصف ثم خرجنا منها طبقا للتعليمات ووصلنا إلى الفندق حوالى الساعة السابعة . لاحظنا أن أمام الفندق ساحة مفتوحة من الغابة ويفصلها خندق طويل ، وعريض ، وعميق وفى هذه المساحة توجد ثلاث برك صغيرة من المياه تفد إليها الحيوانات ، وقد سلطت ادارة الفندق على هذه البرك الأضواء الكاشفة حتى يستطيع النزلاء مشاهدة الحيوانات ، وإن يكن عن بعد . وبالاضافة إلى هذا أقامت كوخا كبيرا مفتوحا على غرار الذى رأيناه فى الغابة ، ووضعت فيه بارا

كامل الاستعداد ، وقد جلسنا قليلا فى حديقة الفندق ، ننظر من خلال المنظار المكبر ، لكننا لم نر سوى بعض الجنو ، ولما كنا متعبين ، فقد تناولنا العشاء وآوينا إلى الفراش .

١٨ / ١

أيقظنا النادل فى الساعة الخامسة صباحا ، وقدم لنا الشاى والقهوة ، ذلك لأنه كان علينا أن نقوم برحلة أخرى داخل الغابة ، تبدأ من الساعة السادسة والربع . فى الموعد المحدد تماما حضرت السيارة ، وبدأنا الرحلة . صادفنا الزراف ، والحمر الوحشية ، والجنو وربما كان من أظرف مارأينا غزلان الامبالا الرشيقة ، وهى تلهو وتجرى وراء بعضها ، فى حلقات ، وصغارها تقفز معها . كان المنظر طريفا حتى أننا وقفنا مدة نتسلى بمشاهدته .

شاهدنا أيضا مجموعة كبيرة من الطيور المختلفة ، لكننا حينما وصلنا إلى الكوخ المرتفع ، لم نجد أية حيوانات ، وتعجب السائق من ذلك وقرر أنه لم يأت مرة واحدة إلا وكانت هنالك حيوانات ، خاصة الامبالا لكن السر اتضح حينما شاهدنا بعد قليل لبؤتين ، وأسدا يمرقون ، ويختفون فى الأحراش والاجمات ، وفيما عدا هذا لم نر شيئا له قيمة وعدنا إلى الفندق فى الساعة الثامنة والنصف لنتناول إفطارنا .

كان المفروض أن نذهب مرة ثالثة إلى الحدائق المفتوحة فى الساعة الرابعة إلا أننا رفضنا ، وفضلنا البقاء فى الفندق للاستجمام . جلسنا بعض الوقت فى الحديقة فرأينا عند بركة المياه بعض البابون ، وابن أوى كما شاهدنا منظرا آخر طريفا لبعض الجنو ، وهى ترد المياه ثم بدات صغارها تمرح وتلعب ، وهنا لاحظت أن واحدا من الحيوانات وقف عند كل الاتجاهات

وأن الصغار لم تخرج من المساحة الموجودة بين الحيوانات الواقفة للحراسة ومن الطريف أنه ، كما يحدث للانسان ، قد استخف الطرب ببعض البالغين من الحيـــوانات ، فانضموا إلى الصغار فى لهوهم ؛ وبقينا فى مجلسنا نرقبها حتى أظلمت الدنيا ، وبدأنا نشعر بالبرد فدخلنا وتناولنا العشاء .

١٩ / ١

لم نخرج اليوم أيضا فى الصباح ، وفضلنا البقاء فى الفندق ، فى الساعة الثانيه والنصف جاءت سيارة الشركة وحملتنا إلى المطار الصغير الانيق ، وفى الثالثة وخمسة وأربعين دقيقة رحلت بنا الطائرة إلى كابيرو ، وهى أيضا حدائق مفتوحة تطل على بحيرة كابيرو ، إحدى أكبر بحيرات العالم الصناعية ، ومطارها يكاد أن يتطابق مع مطار وانكى . لم نلبث كثيرا فى المطار ، واستأنفنا رحلتنا إلى هرارى ، فوصلناها فى الساعة السادسة إلا خمس دقائق ، وكانت تمطر ، والمسافة بين الطائرة والمطار ، تربو على مائة وخمسين مترا يسيرها الركاب فى العراء ، لكننا وجدنا ثلاث رجال يحملون مظلات مكتوب عليها اسم شركة الطيران ، فكانوا يسلمون كل راكب أو اثنين مظلة ليستعملها حتى يصل إلى مدخل المطار فيتركها .

استأجرنا سيارة أقلتنا إلى فندق جيمسون حيث كنت قد حجزت غرفة لنا قبل أن نقوم برحلتنا الداخلية ، كما كنت قـــد تركت حقيبة سفرنا بهـــا . استلمناها حين وصولنا ، وصعدنا إلى حجرتنا ولم نخرج منها إلا للعشاء .

٢٠ / ١

كان على فى الصباح أن أذهب إلى السفارة لأعيد بطارية الفيديو التى

استعرتها من السيد السفير محي الدين بسيوني ، وفعلا في الساعة العاشرة صباحا استأجرت سيارة أجرة اقلتني إلى السفارة حيث قابلت السيد /ايهاب طاهر الذي استقبلني بترحاب، وشربت معه القهوة المصرية ، وأخذ مني البطارية وقال إن أحد موظفي السفارة سوف يذهب باكرا إلى مابوتو ، وأنه سيرسلها معه فشكرته على ذلك ثم إستفسرت منه عن الجالية المصرية ، فأجاب بأنها لا تزيد على اثنين أحدهما خبير أرصاد ، موفد من الأمم المتحدة ، والثاني لا أذكر عمله واستفسرت عما إذا كانت هنالك أعمال تجارية بين بلدنا ، وبين زيمبابوي فأجاب بالنفي ، وإن كانت قد بدأت بعض البشائر .

بهذه المناسبة أود أن أذكر ان هناك مكتبا تجاريا لجنوب إفريقيا يعمل به أكثر من خمسة عشر شخصا ، مسألة أخرى هي أنني لاحظت أعدادا كبيرة من السيارات في انتظار أن تمون الوقود ، وكنت أعلم أن هناك أزمة وقود لكنها في الأيام القليلة التي غبتها في الشلالات ، ووانكي قد اشتدت إلى درجة كبيرة حتى أنها كادت أن تقارب السودان ، وإن لم تصل بعد إلى هذه الحدة ، مسألة ثالثة أننا إذ قارنا بين سيارات الأجرة وحالتها نجد أن في موزمبيق لا يكاد يوجد أكثر من عشر سيارات في كل العاصمة ، مابوتو ، وفي تنزانيا سيارات الأجرة موجودة وربما بكثرة إلا أنها جميعا قديمة جدا ، وحالتها سيئة إلى أقصى درجة . وفي زيمبابوي حالتها أحسن ؛ ولكنها أيضا قديمة وحالتها سيئة ؛ حتى التابعة لشركات السياحة لم تكن حديثة . تلى ذلك في المرتبة زنجبار ، فهي بانها ، وإن تكن غير حديثة الطراز إلا أنها لا بأس بها وأحسن السيارات الأجرة التي ركبتها في هذه الرحلة كانت في السودان بالرغم مما حدث لنا في الطريق إلى الشلال السادس مما رويته قبلا .

وهذا بدوره يدفعني إلى الكلام عن المرور . فإن القيادة في جميع البلاد التي زرتها على يسار الطريق ؛ على النظام الإنجليزي ، خلا السودان فالقيادة

على اليمين ، وجميع المواطنين بلا استثناء يحافظون على قواعد المرور وأصوله . ولا يكاد أن يوجد شرطة مرور إذ نادرا ما تلحظهم ، وحتى حينما يكون الطريق خاليا لا يتخطى السائق الإشارة إذا كان طريقه مغلقاً ، ولا تكاد تسمع صوت نفير أو بوق ، كلاكس ، فهم لا يستعملونه إلا عند الضرورة القصوى ، ولهذا فالبلاد هادئة لا تسمع للسيارات فيها صوتاً، غير صوت آلاتها .

أعود إلى رواية ما كنت فيه إذ أنني بعد أن شكرت السيد إيهاب على رقته، وكرمه سألته أن يطلب لى سيارة أجرة تقلنى ، وذكرنى أن السفارة لهـا خصم فى الفندق ولا مانع من استعماله ، فوعدته وشكرته وودعته إلى اللقاء ان شاء الله . كانت السيارة قد وصلت فصحبنى إلى باب السفارة مودعا . طلبت من السائق أن يذهب إلى الفندق ، وبالمصادفة كان هو السائق نفسه الذى أقلنى أول مرة زرت فيها السفارة وتعرف على . وسألته إذا كان يقبل أن يبقى معنا لساعة أو إثنتين حيث انى كنت أود أن أؤكد تذاكر السفر ايا كر ثم أن زوجتى تود أن تشترى بعض الهدايا التذكارية ، وقبل السائق . والميم بهذه المناسبة عداد انتظار يسجل دولارا زيمبابويا كل خمسة وعشرين دقيقة .

وصلنا إلى الفندق ، وكانت زوجتى تنتظرنى ، فركبنا السيارة وانطلقنا إلى شركة الطيران حيث أكدت الحجز ، وقالوا إن الطائرة تقلع فى العاشرة والربع ، وأن علينا أن نكون فى المطار فى التاسعة والربع . من هنا انتقلنا إلى وسط المدينة ، وهو قريب ، والمحلات التجارية فيه جميلة ، والبضائع متوفرة بكثرة حتى أنها تضارع أية مدينة أوروبية فى مثل حجم هرارى . قضينا حوالى الساعة بين المحلات ، ثم طلبت من السائق أن يسير بنا فى شوارع المدينة، ووسطها ، وفعل . رأينا موقفين رئيسيين لسيارات النقل العام

كما شاهدنا سوقين صغيرين لبيع الفواكه ، والخضر ، وبعض منازل الأهالي ، وهي منازل مقبولة ، أحسن كثيراً مما شاهدنا في السودان ، أو أوغندا ، أو غيرهما ، وتتساوى مع منازل مابوتو ، وعدنا إلى الفندق في الساعة الواحدة تقريباً .

تناولنا غذاء شهيا ، وأرادت زوجتي الخروج ثانية لاستكمال مشترياتها إلا أن الأمطار هطلت بشدة ، ولما كانت المحلات التجارية تغلق في الرابعة والنصف ، فقد انتظرنا إلى الثالثة ، ولما لم تنقطع الأمطار جازفنا بالنزول ، وحاولنا إيقاف سيارة أجرة لكنها جميعا كانت تحمل ركابا ، ولما كانت الأمطار قد خفت حتى أضحت رذاذا ، فاننا جازفنا وسرنا على أقدامنا تحت البواكي ، وهي تكاد أن تمتد طوال الطريق ، طبعاً فيما عدا أماكن تقاطع الطرق ، وكما ذكرت فإن طرقهم واسعة جدا خاصة في منتصف المدينة . أكملنا مشترياتنا وعدنا إلى الفندق في حوالي الساعة الرابعة والنصف ، وكان مما اشتريناه ثمرتين من الأناناس كنت أود أن أحملها معي إلى القاهرة إلا أنني نسيت أن أقول للبائع أن لا تكونا قد طابتا ، ولهذا اضطررنا أن نأكلها ، وأذكر أن ثمن الثمرة تسعة وسبعون سنتا ، يضاف إليها الضريبة لتبلغ الثمان وتسعون ، أي ما يقارب الجنيه بعملتنا ، وعلى أي الأحوال فإنني عزمت على أن اشتري بعض الثمار في دار السلام ، إن شاء الله قبل رحيلنا مباشرة إلى القاهرة .

١/٢١

استيقظنا في السابعة ، وفي تمام الثامنة كنا قد انتهينا من جميع ضرورات الصباح ، وأفطرنا . تركت زوجتي لتستكمل اعداد الحقائب ، وهبطت حيث دفعت الحساب ، وطلبت سيارة أجرة لتقلنا إلى المطار كما طلبت ارسال حمال ليأتي بالحقائب من الحجرة . وفي الساعة الثامنة والنصف حضرت السيارة ،

ووصلنا إلى المطار فى التاسعة إلا عشرة دقائق . انتهت جميع الإجراءات بيسر حتى أن الحقائب لم يتم تفتيشها ، وإنما تم تفتيش شخصى خفيف ، وفى الساعة العاشرة ، صعدنا إلى الطائرة لكنها لم تقلع فى موعدها إذ يبدو أن عدد الركاب لم يتطابق مع الكشف ، ولما كانت هنالك خشية من الثوار ، وقراصنة الجو خاصة فى هذه الأيام ، فقد استمر الموظفون المختصون فى المراجعة أكثر من نصف ساعة ، ومع ذلك لم ينتهوا الى شىء . وأقلعت الطائرة بعد موعدها بحوالى ثلاثين دقيقة .

بعد خمسة وأربعين دقيقة وصلنا إلى تشيليكا ، فى مالاوى ، ووقفنا بها نصف ساعة أخرى ثم أقلعت الطائرة الى دار السلام لنصل اليها فى الساعة الواحدة والنصف ، بمجرد دخولنا المطار بدا الفارق واضحاً بينه وبين مطار هرارى ، فى النظافة والمعاملة ، ونشاط الموظفين ، ومعرفتهم لواجباتهم . لم نكن قد أخذنا تأشيرة دخول ثانية كما أن التأشيرة التى كنا قد أخذناها من مصر بطلت باستعمالها ، وكان علينا بالتالى أن نأخذ التأشيرتين فى المطار لزوجتى ، ولى . طلب منى الضابط المختص أن ادفع مبلغ خمسين شلناً نظير التأشيرتين ، ولما لم تكن معى نقود تنزانية فإنى استمهلته لأذهب الى البنك ؛ واستبدل بعض الدولارات . لكنه قال انه لا داعى لذلك ، وهو الذى سوف يقوم بعملية الاستبدال . اعطيته خمسة دولارات . وهو مبلغ من الناحية الرسمية أقل مما يستحق ، فسألنى إن لم يكن معى ورقة من فئة أكبر فاخبرته أن معى ورقة من فئة مائة دولار . فسأل إن لم يكن معى من فئة الخمسين فأجبته بالنفى . وهنا كتب الإيصال بالشلنات . طبعاً وأعطانا التأشيرتين اللازمتين .

عندما خرجنا أخبرنا سائق السيارة الأجرة أن قيمة توصيلنا الى فندق

كليمنجارو حيث حجزنا ، هى مائتان وخمسون شلنا ، ولما أخبرته أنى كنت فى دار السلام منذ أسبوعين ، وأنها مائتان فقط قال إنها ارتفعت ، وقلت له إنه كاذب لكننى سأدفع فابتسم وقاد سيارته . فى الفندق طلبت الحجرة التى حجزتها ، وتم ذلك كما طلبت الحقيبتين اللتين تركتهما وديعة ، وجاء الحمال بهما . صعدنا إلى حجرتنا وفوجئنا بعدم وجود المياه ، ولما سألنا قالوا إن هنالك اصلاحا يجرى ومن فضل الله أن المياه عادت بعد حوالى الساعتين والنصف . تركت زوجتى فى الحجرة ، وذهبت إلى مكتب شركة مصر للطيران لأؤكد الحجز لباكر ؛ ولم أجد لا السيد / مصطفى مدير الفرع ولا السيد شوقى المدير المالى ، ولكن الموظف المختص أكد أن الحجز قد تم ، وعدت إلى الفندق لأقضى فيه بقية اليوم .

١/٢٢

هذا هو اليوم الأخير فى الرحلة والمفروض إن شاء الله أن نستقل طائرة شركة مصر للطيران التى تتحرك من مطار دار السلام فى الساعة الثانية عشرة مساء ، ومعنى هذا أن نكون فى المطار فى الساعة العاشرة مساء ، وأن نترك الفندق فى التاسعة والنصف على أقصى تقدير .

فى الصباح تناولنا إفطارا شهيا مكونا من عصير الأناناس والفواكه الأناناس والموز، والباباى ثم البيض والزبد ، والمربى والتوست وأخيرا الشاى، والقهوة. وفندق كليمنجارو يقدم لك العصير والفواكه فى مأدبة مفتوحة ولك أن تأخذ ماتشاء مرة واثنين أو أكثر إن أردت ، وأية كمية ترغبها فى كل مرة ، وكذلك الحال بالنسبة للشاى والقهوة والسكر .

بعد الإفطار أكلت زوجتى بصاحبتى ، مشترواتها ثم أعدتها إلى الفندق وذهبت إلى مكتب شركة مصر للطيران . ولم أجد السيد مصطفى أو السيد/شوقى إذ أن الطائرة تصل اليوم من القاهرة وكانا فى استقبالها فى المطار . عدت إلى الفندق وكان الجو معتدلا ، إن كانت الرطوبة شديدة لكن نسمة من الهواء خففت من حدتها .

مكثنا فى الفندق إلى الساعة التاسعة والنصف ، ثم اكترينا سيارة إلى المطار ، هناك قابلنا السيد رجائى ، وأكرمنى ، لاشك بناء على أوامر السيدين مصطفى ، وشوقى ، فتمكنت من أوائل الذين مروا إلى الجمرك ، وكان التفتيش فيه شديداً ، وإن كان الموظف رقيقاً . فى المطار تقابلت مع الأستاذ إبراهيم عبد المعطى الذى كان موجوداً لوداع بعض موظفى السفارة ، وكان على عهدنا به من الرقة ، وصحبنا إلى قاعة كبار الزوار ، وهى قاعة فسيحة بها تكييف لم نشعر إلا بجلبة محركة دون أن يكون له أى تأثير فى تغيير الجو . وتعرفنا على بعض الإخوة من أعضاء السفارة وزوجاتهم .

فى الساعة الثالثة عشرة والنصف ، أقلعت الطائرة متوجهة إلى القاهرة لقطع المسافة فى ست ساعات ، وتصل فى الخامسة والنصف صباحا مع ملاحظة أن الفارق فى الساعة بين تنزانيا ، ومصر هو ساعة تماما . عندما نزلنا من الطائرة كان الجو شديد البرودة ، والرياح قوية ، فارتدت زوجتى معطفها ، ودخلنا إلى قاعة المطار ، ولم يكن بها تكييف . أثناء انتظارنا لوصول الحقائب ، توجهت ومعى جهاز الفيديو ، وآلة التصوير ، إلى أحد مفتشى الجمارك وذلك لنثبت فى الأوراق وصول الجهازين حتى يمكننى أن أسترد نقودى التى أخذتها منى الجمارك كأمانة ، وفعلا تم ذلك .

سألت السيد المفتش عن كيفية استردادى لمبلغ الرسوم الأمانة فأشار على بالذهاب إلى الخزانة لاستردادها ، ولما لم تكن الحقائب قد وردت بعد فإنى توجهت إلى هناك ، لكن السيد الموظف أخبرنى أننى يجب على الذهاب إلى إدارة الجمارك فى مدينة نصر . حينما عدت تعجب السيد مفتش الجمارك من هذا ، واتصل تليفونياً برئيسه الذى قال إنه يمكن صرف المبلغ من الخزانة فى الصالة رقم واحد ، ثم حينما خاطبه السيد موظف الخزانة ، عاد وأنكر مؤكداً وجوب ذهابى إلى مدينة نصر .

فى هذه الأثناء بدأ وصول الحقائب ، ومما يؤسف له أنى رأيت كثيراً منها مفتوحا ، وتلقى بإهمال شديد ، كما أنى رأيت بعض الملابس ملقاة على السير الجلدى ، دون حقائب ، وأخذها أحد حمالى المطار ، لولا أن أحد الموظفين استوقفه وسأله إلى أين يأخذها فأجاب بأنه سيعيدها حيث أن أحداً لم يتقدم لسحبها ، وحينما أعاد الموظف سؤاله إلى أين سيعيدها لم يتمكن من الإجابة . حدث كل هذا أمام بعض السواح الأجانب الذين أبدوا قلقاً شديداً على حقائبهم ، وفعلا جاءت إحداها وهى مفتوحة ، وشاهدت السائح يقلب فيها خشية ضياع شىء من محتوياتها ... مما زاد الطين بلة إنه يبدو أن طائرة مصرية كانت قد وصلت من العراق ، ووصلت الحقائب أيضاً فى سير آخر ، لكن الأمر اختلط على ركاب الطائرة الواردة من العراق ، بل إنه اختلط علينا ، حتى أنى حينما تأخر وصول بعض حقائبنا ذهبت إلى حيث حقائب العراق لابحث عنها . على أى الأحوال مر الحادث بسلام بفضل الله ، ووصلتنا حقائبنا سليمة لم تفتح .

• • •

هل انتهت الرحلة ؟ كلا إذ أنى بقى على أن أسترد مبلغ الألف جنيهاً التى دفعتها أمانة رسوم . بدأت رحلة عذاب أخرى ، لقد مررت اثنتى عشرة مرة فى رحلتى هذه بجمارك خمس دول ، هذا عدا مطار القاهرة ، ولم يوقفنى أحد للسؤال عن الفيديو . أجل سئلت عما أحمل ، وحينما كنت أجيب بأنها للتصوير فيديو لم يحتج الأمر إلى تأمين ، أو تأشيرة خاصة ؛ أو أى شىء . أما فى مصر بلدى ، فلا شك أن صالح الخزانة يجب أن يراعى . من يدرى فربما كنت أعمل على تهريب الفيديو ، والكاميرا ؟ إن كل مصرى مفترض فيه هذا ، ولا يكتفى بالتأشيرة مثلا على جواز سفره ، وإنما هو الحرص على مال الدولة فمن يدرى ، ربما أهرب بالفيديو وآلة التصوير ؛ ولا أعود إلى القطر ؟!

على أى الأحوال ذهبت فى اليوم التالى ، إلى مدينة نصر ، وكانوا رقيقين ومتفهمين الموضوع وإن اعتذروا مقررين وجوب أن أذهب إلى قرية البضائع المهملة فى كسفريت حيث أن إدارة الحسابات هناك وذلك لاستخراج استمارة ٥٠ ع ح ، وقالوا إن هذه هى التعليمات ، ولا مناص عنها . وحينما سألت عما إذا كانت التعليمات تنص على أن تكون إدارة الحسابات فى كسفريت بعيداً عن الإدارة العامة قوبلت بالصمت . لم يكن لدى الوقت ، ولهذا اضطررت أن أذهب فى اليوم التالى إلى قرية البضائع المهملة وهى على بعد حوالى كيلومتر بعد المطار الحالى، وهناك تلقى منى أحد حضرات موظفى الحسابات المستندات ، وبعد أن اطلع عليها ذكر أن السيد موظف الجمرك لم يكتب إذا كنت قد اخرجت الفيديو للإصلاح أو للاستعمال الشخصى ، وأنه بناء على ذلك ، وبناء على التعليمات سوف يعتبره للإصلاح ، وهذا صالح الخزانة إذ أن عليه رسوما قدرها ٢٣ ٪ أى ٢٣٠ جنيه .

رفضت ذلك فأشار على بأن أعود إلى مطار القاهرة إلى السيد / مدير تفتيش الركاب فى الصالة رقم واحد ليؤشر بأن آلة التصوير والفيديو إنما كانا للاستعمال الشخصى ذهبت إلى الصالة رقم واحد حيث قال لى الجندى المعين على المدخل ، إن على أن أستخرج تصريحا لإمكان الدخول . عدت إلى المباحث، واستخرجت التصريح المطلوب وعدت لأقابل السيد المدير وذكرت له الوقائع فقال إنه سيحول الموضوع إلى السيد المفتش الذى سبق أن أشر على الورقة، إذ أنه لا يستطيع على مسئوليته أن يكتب أن الفيديو لم يخرج للاصلاح . سألته إذا كان هو أو السيد المفتش يفهمان فيما إذا كان الفيديو به عطب ، وحينما أجاب بالنفى قال إنه يعتمد على الإقرار الشخصى فطلبت منه أن يأخذه الآن فرفض ، وحاولت المناقشة ذاكرا أن البلاد التى ذهبت

إليها لا يأخذ المرء فيها آلات للإصلاح ، والعكس هو الصحيح ، مع هذا أصر على موقفه .

عدت إلى الصالة رقم اثنين حيث كان من حسن حظى أن تقابلت مع السيد المفتش وكان كريما إلى درجة أن تذكرنى ، وأشر على المستند بأن الفيديو وآلة التصوير إنما خرجا للاستعمال الشخصى والسياحة . أخذت المستند وعدت إلى السيد موظف الحسابات فطلب منى العودة بعد يومين ، أو ثلاثة لاستلام استمارة الصرف أو الذهاب بعد أسبوع أو أكثر رأسا إلى مدينة نصر لصرفها ، فرجوته أن يحدد لى موعدا لإستلامها منه وحدث ذلك .

فى الموعد المحدد لم تكن الاستمارة قد تمت ، واضطررت أن أصحب أحد الموظفين إلى مكان يبعد أكثر من كيلو متر ليوقع عليها السيد المدير ، ثم أخذتها وانصرفت .

فى اليوم التالى ذهبت بالاستمارة إلى الإدارة العامة فى مدينة نصر ، وهناك أخبرتنى الموظفة المختصة أن كشف الحسابات لم يصل بعد ولم يراجع وأنه يلزم ذلك للتأشير على الاستمارة ٥٠ ع-ح بالصرف ووعدتنى أن تنتهى من ذلك بعد ثلاثة أيام .

وقد كان ، ذهبت يوم الأربعاء الموافق الثانى من فبراير ١٩٨٣ واستلمت الشيك ناقصا ستون مليما .

لكننى حمدت الله على أن حق الخزانة لم يضع وتحطمت أعصابى وكدت أفقد كل أثر حميد للرحلة . وبقى سؤال ماذا لو لم أكن محاميا ؟ ماذا لو لم أتابع الموضوع فى كل خطوة ؟ وماذا لو كنت أجنبيا مثلا ؟ أو رجلا بسيطا لا أستطيع التفاهم بطريقة مجدية ؟ وماذا لو لم أكن حسن الحظ ويوافق مفتش الجمرك على إضافة أن الفيديو والكاميرا كانا للاستعمال الشخصى وليس للاصلاح ؟

الجمهورية الصومالية

تقع الصومال بين خطى عرض ١٣° شمالا ، ٢° جنوبا ، وبذلك يقع الجزء الأعظم منها فى المنطقة الاستوائية ، ومع ذلك ، ونظرا لامتدادها على طول الشاطىء الشرقى لإفريقيا لمسافة تصل إلى ثلاثة آلاف وستمائة كيلو مترا ، فإن الجو فى معظم مناطقها معتدل .

وليس بها سوى نهران يجريان بصفة دائمة هما نهر جوبا وشبيلى وهما فى الجنوب أما سائر أنهارها فموسمية لا تجرى إلا أيام الأمطار .

مساحتها ٢٧١٫٠٠٠ ميلا مربعا ، أو ٦٣٧٫٩٦١ كيلو مترا مربعا ، ويحدها من الشمال جيبوتى ، وهى مستعمرة فرنسية وكانت أصلا جزءا من الصومال إذ أن سكانها من قبائل عيسى والدناقله ، والأولون صوماليون ، والأخيرون يمتون بصلة قرابة قوية للصوماليين . يحدها أيضا من الشمال ، والشمال الغربى ، الحبشة ومن الجنوب ، والجنوب الغربى كينيا ، ومن الشرق المحيط الهندى .

وليست منطقة جيبوتى هى الوحيدة المقتطعة من الصومال فقد اقتطعت انجلترا جزءا كبيرا فى الجنوب وضمته إلى كينيا ، كما اقتطعت الحبشة منطقة هرر التى تمتد من نهر أواش شمالا إلى حدود كينيا جنوبا ، ولا يزال النزاع قائما بين البلدين بخصوص هذه المنطقة .

والجو عموما فى الصومال تتحكم فيه الرياح الموسمية ، بالإضافة الى النواحى الجغرافية ، فتهب الرياح الموسمية الجنوبية الغربية فى الشهور بين

الصومال

خليج عدن
الولا
جيبوتي
بربرة
برجال
هرجيسة
الحبشة
المحيط الهندى
مقديشيو
كسمايو
شمال

مايو وأكتوبر ، ثم تهب الرياح الموسمية الشمالية الشرقية فى الشهور بين نوفمبر وابريل ، وفيما بين الميعادين توجد فترتان تمتد كل منهما أربعين يوما ويطلق عليهما موسم الهدوء .

ويلخص الجو بصفة عامة فيما يلى :

من يناير الى ابريل	فترة جفاف .
من مايو الى يوليو	موسم سقوط أمطار .
من يوليو الى سبتمبر	جفاف وطقس بارد نسبيا .
من أكتوبر الى ديسمبر	أمطار خفيفه (حيس) .

ويلاحظ أنه حينما يكون الجو فى الشمال حارا ، يكون الجنوب باردا نسبياً .

وتاريخ الصومال يكاد أن يواكب تاريخ مصر ، فقد كانت معروفة لدى الفراعنة باسم بلاد بونت وكانوا يستوردون منها البخور ، والحيوانات وغيرها ، ولا بد أنها كانت وقتذاك أكثر أمطارا مما هى الآن . وليست الرسومات التى تركتها لنا حتشبسوت عن أسطولها الذى ذهب إلى بلاد بونت بغريبة على أى مصرى ، كما أن اتصالها بالعرب خاصة اليمنيين لم ينقطع فى أى وقت من الأوقات . وحينما ظهر الإسلام هاجرت جماعة من المسلمين إلى سواحل مادن واستقروا بها ، وتزاوجوا من الأهالى ، ولم يلبث الإسلام أن انتشر بين كل الصوماليين كما أنشأت مدن ممالك على كل منها سلطان مسلم وربما كان أشهرها زيلع وبربرة ومقديشيو .

وحينما احتل البرتغاليون الشاطىء الشرقى لإفريقيا احتلوا معه شواطىء الصومال حتى أجلاهم عنها العمانيون ، ومن ثم خضعت لحكم سلطان عمان ثم سلطان زنجبار من العائلة البوسعيدية . ومما يؤسف له أن سلاطين زنجبار

كانوا ضعفاء فارتموا فى أحضان الأوربيين، خاصة انجلترا وبالتالى كان نفوذهاه خاصة ابتداء من سنة ١٨٢٧ كبيرا فى الصومال . وقد انتهزت انجلترا الفرصة وعقدت عدة معاهدات مع الزعماء والشيوخ ابتداء من سنة ١٨٨١ . وفى سنة ١٨٩٧ عقدت بريطانيا معاهدة مع الحبشة فى عهد الإمبراطور منليك سلمت بموجبها جزءا من الصومال إليها ، أما إيطاليا فقد باع لها سلطان زنجبار بعض أراضى من الصومال ، وما لبثت أن أعلنت فى أواخر سنة ١٨٨٩ بأنها أنشأت محمية إيطالية على الساحل الجنوبى للصومال كما تفاوضت مع رؤساء المناطق الداخلية ليضعوا أنفسهم تحت حمايتها .

رفض الصوماليون أن تقسم بلادهم دون أى اعتبار لشعورهم ، وقاموا بعدة ثورات ربما كان أهمها تلك التى تزعمها الشيخ محمد عبد الله حسن « مهدى الصومال » ، والمعروفة باسم ثورة الدراويش تشبيها بثورة السودان . وقد قاد المهدى الثورة منذ سنة ١٨٩٩ واستمر يحارب الانجليز، والاحباش، والإيطاليين بل وحتى بعض بنى جلدته اثنين وعشرين عاما، ولم يهزم حتى قتلته الطائرات البريطانية فى إحدى غاراتها سنة ١٩٢١ .

خلال الحرب العالمية الثانية احتلت انجلترا الجزء الذى كانت إيطاليا تسيطر عليه، وأعلن فيها فى سنة ١٩٤١ حكم إدارى عسكرى بريطانى واستمرت ثورات الشعب ، وقلاقله تطالب بالحرية والاستقلال وكانت نتيجة ذلك أن أوفدت هيئة الأمم المتحدة لجنة لتقصى الحقائق فى الصومال ، كان من نتيجتها أنه فى الحادى والعشرين من نوفمبر سنة ١٩٤٩ صدقت الجمعية العامة للأمم المتحدة على وضع البلاد تحت وصاية الأمم المتحدة لمدة عشرة سنوات ورشحت إيطاليا لتكون هى الدولة الوصية .

أخيراً أجبرت بريطانيا من ناحية أخرى على منح المنطقة التى كانت تحتلها

استقلالها فى ٢٦ يونيو سنة ١٩٦٠ وفى أول يوليو من السنة نفسها، أى بعد خمسة أيام فقط أعلن الاتحاد بين الصومالين البريطانى والإيطالى.

٢٢ / ٢ / ١٩٨٣ :

لم أتمكن، كما ذكرت، من السفر إلى الصومال فى رحلتى السابقة نظرا لصعوبات الطيران. ولما كانت الصومال بلدا عربيا قريبة إلى قلبى، وهى بالإضافة إلى هذا تكمل البلاد التى زرتها فى شرق افريقيا، لهذا اعتزمت أن أذهب إليها فى رحلة خاصة. توجهت إلى إحدى الشركات السياحية وطلبت من الموظفة المختصة أن تحجز لزوجتى، ولى تذكرتين إلى الصومال فى الثانى والعشرين من فبراير.

كانت الطائرة التى سوف تستقلها تقلع فى الخامسة والربع صباحا على أن نتواجد فى المطار من الساعة الثانية والنصف، ومعنى هذا أنه من العسير علينا أن ننام فى المساء. وهذا ما حدث، فبالرغم من محاولتنا النوم ولو لساعتين، لم نستطع، وما أن حلت الساعة الثالثة إلا ربعاً حتى كنا فى المطار فعلا.

تمت الإجراءات الجمركية بسهولة، وفى هذه المرة لم آخذ آلة تصوير الفيديو معى فقد كفانى ما لقيت من تعب من الإجراءات الجمركية، واسترداد أمانة الرسوم فى المرة السابقة. وكان الجو شديد البرودة فى مصر، وقد ارتديت لذلك البلوفر الصوفى، ومعطف المطر كما فعلت زوجتى، حتى دلفنا إلى الطائرة وهى مكيفة الهواء فخلعنا المعطفين. كانت الطائرة غير مزدحمة، وهى بوينج ٧٠٧ لهذا أمكننى ان أستقر على المقاعد الخالية إلى جوارنا، وتركت لزوجتى الثلاثة مقاعد حتى تستطيع أن تستريح ولو لبضعة ساعات.

تمكنت أنا من النوم بعد دقائق من إقلاع الطائرة، فى حين لم يوات

النوم زوجى فظلت تختطف لحظات بين الفينة والأخرى ، وفى الساعة الثامنة صباحا أيقظتنا المضيفة لتناول الإفطار ... فى الساعة التاسعة والخمسين بتوقيت القاهرة ، والعاشرة والخمسين بتوقيت الصومال ، وصلنا إلى مطار مقديشيو ، وأذاع علينا قائد الطائرة أن درجة الحرارة ٢٩ مئوية . خلعت البلوفر ، ووضعته فى حقيبة اليد ، وكذلك فعلت زوجتى ، ومع هذا فإننا بمجرد خروجنا من باب الطائرة شعرنا بلفحة شديدة من الحرارة . كان الهواء قويا لكن الحرارة المرتفعة ، خاصة فى الشمس ، أضاعت كل أثر له ، بل لعلنا شعرنا بوطأة الحرارة أكثر .

ومطار مقديشيو صغير الحجم جدا لا يتناسب مطلقا مع ما لهذه المدينة من أهمية ، وتاريخ طويل . بالإضافة إلى هذا فإن المطار غير نظيف ، وغير منظم وتتم إجراءات الجوازات ، والجمارك والنقد جميعا فى صالة واحدة ... أما إجراءات الحجر الصحى فبالرغم من أنى لاحظت وجود مكتب إلا أنى لم أر موظفا جالسا عليه ، ولا سألنى أحد عن بطاقة الحجر الصحى . أتممنا الاجراءات ولم تأخذ وقتا طويلا ، ثم خرجنا ، واكتريا سيارة أجرة وقد اشترط علينا السائق أن ندفع مائتين وأربعين شلنا لكى يقلنا إلى فندق جوبا . ولما كنت لا أعلم شيئا عن الأسعار ، ولا توجد قائمة بها فى المطار أو خارجه ، فقد وافقت ، وقد علمت بعد ذلك أن الأجرة لا تزيد على ثلث هذا المبلغ ، لكن يبدو أن السائح دائما لقمة سائغة خاصة ساعة وصوله .

والعملة السائدة فى الصومال هى الشلن الصومالى ، وهو يساوى مائة سنت ، وسعره الرسمى هو خمسة عشر شلنا للدولار ، وقد قيل لى إن سعر الدولار فى السوق السوداء ما بين خمسة وعشرين والاثنين شلنا أى زهاء الضعف ، أو أقل قليلا .

والانطباع الأول لزائر مقديشيو أنها تشابه الخرطوم إلى حد بعيد، فشوارعها واسعة جدا جيدة الرصف ، ومبانيها لا يزيد معظمها الساحق على طابق واحد ، والأشجار كثيرة على جانبي الطريق حماية من الشمس لكن هذا الانطباع مايلبث أن يزول ، فالمدينة أكثر تنظيما من الخرطوم ، والحركة التجارية فيها أكبر ، وإن لم تكن فى مثل الحركة فى أم درمان ، والطرقات فى المساء أكثر ازدحاماً . ولم أر هذه الظاهرة فى معظم العواصم الإفريقية التى زرتها حيث تخف الحركة مساء بشكل ملحوظ حتى تكاد أن تنعدم لانعدام الأمان فى كمبالا ، وبوجامبورا ، ونيروبى أو لانعدام ، أو ندرة وسائل الترفيه كما فى ماوتو ، وكيجالى أو لكل من السببين كما فى أديس أبابا.

وصلنا إلى فندق جوبا ولم أكن قد حجزت جريا على عادتى ، لكنى لم أجد صعوبة فى أن أجد حجرة ، وأعطينا حجرة لطيفة بها تكييف هواء ، وطاشرفة واسعة تطل على الميناء والمحيط ، وتقع فى الطابق الرابع . ولك أن تتصور المنظر بعد أن ذكرت أن سائر المبانى لاتزيد على طابق واحد أو اثنين ، على أكثر تقدير ، فقد لاح لنا أننا على قمة جبل ننظر إلى المدينة تحتنا .

تركت زوجتى فى الحجرة لأنها أرادت أن تستريح إذ كانت متعبة جدا من أثر عدم نومها فى الليلة الماضية ، واكتريت سيارة أجرة لتقلنى إلى مصلحة السياحة لأرتب رحلتنا . للمرة الثانية اشترط على السائق أن أدفع ستين شلنا ، أو مايساوى أربعة دولارات وقبلت . أقلتنى السيارة عبر طرقات المدينة ، والقيادة على الجهة اليمنى ، حتى وصلنا إلى ميدان صغير ، ووقف أمام مبنى من طابق أرضى واحد ، كتب عليه وزارة السياحة . دخلت من الباب ولم تكن توجد حراسة ، ووجدت لافتة على أحد أبواب الحجرات مكتوب عليها الوزير . ولم أجد أحداً فى أول حجرة صادفتها ، وان وجدت بعض

الموظفين ، والموظفات فى حجرة ملاصقة لها ، وحينما دخلت أسأل عن استعلامات السياحة قابلنى شاب فى العقد الرابع من عمره ذكر أنه مدير السياحة ، وطلب منى أن أصحبه إلى مكتبه ، وهو يبعد ثلاث أربع حجرات من حجرة الوزير .

لى هنا وقفة . إنى حينما كنت فى الخرطوم لم أشعر بأنى انتقلت من مصر ، وقد تولانى الشعور نفسه وأنا فى مقديشيو ، والكرم نفسه ، ودماثة الخلق نفسها ، وخروج المرء عن طريقه لمحاولة مساعدة الآخرين ، والبساطة والحب فى المعاملة ، والترحيب بك خاصة إذا ما علم أنك مصرى ، كلها سمات طبع عليها الشعب المصرى ، وطبع عليها الشعب السودانى ، وطبع عليها الشعب الصومالى ، لكن انتظر ، واحكم بنفسك .

قدم لى السيد مدير السياحة كل ما عنده من نشرات سياحية وهى ليست كثيرة ، كان لى خير معوان فى انتقاء المناطق التى تستحق أن أذهب إليها ، وحينما سألته عن أسماء شركات سياحية ، أو عما إذا كانت السياحة تتولى بنفسها أعمال السياحة قال معتذراً إن الوزارة لا تقوم حتى الآن بأى نشاط سياحى ، وأنه ليس هنالك سوى شخص واحد ، أو على الأصح شركة بين أحد الأهالى ، وآخر إيطالى الجنسية هما اللذان يقومان بأى نشاط سياحى . اتصل هاتفيا بالشركة ، وتحادث مع الشريك الإيطالى ، وبهذه المناسبة معظم الصوماليين يتكلمون الإيطالية وهم أيضا يتكلمون العربية ، وأنت ترى اللافتات التجارية والرسمية مكتوبة باللغتين الصومالية ، والعربية ، وأحيانا بالإيطالية أيضا . بعد أن وضع الهاتف جانبا أخبرنى أنه ، مع أن الساعة تجاوزت الواحدة والمنشأة تغلق لفترة الغداء ، إلا أن الرجل ينتظرنى .

سألنى إن كان معى سيارة أجرة لتقلنى ، وحينما أجبته بالنفى إذ أنى كنت قد صرفت السيارة التى أتيت بها ، استأذن . وخرج قليلاثم عاد مشيرا إلى أن اتبعه ، وقال إن من حسن الحظ أن مدير فندق جوبا ، وهو الفندق الذى نزلنا فيه ، موجود ، وأنه تبرع متفضلا بأن يصحبنى فى سيارته إلى مقر الشركة . صحبنى السيد مدير السياحة إلى خارج الوزارة حيث رأيت سيارة يقودها رجل قدمنى إليه واسمه / السيد عيسى سلوى ، كما كان هنالك رجل آخر يجلس فى المقعد الخلفى ، وخرج حينما رآنا ، وقدمنى إليه على أنه السيد / محمد إبراهيم رئيس حسابات الفندق ، وكان الأخير يتكلم العربية بلهجة مصرية ، وقد قال إنه قضى سنتين فى مصر .

ودعنا السيد / مدير السياحة ، ومما يؤسف له أننى أنسيت اسمه ، وانطلقنا فى شوارع مقديشيو ، ولم يبخل على المرافقان المتفضلان ببعض الملاحظات عن المبانى الهامة فى الطريق . بعد حوالى عشرة دقائق توقفت السيارة فى ميدان صغير أمام أحد الحوانيت ، وقد كتبت عليه شركة السيد عثمان هيدافى لنقل وتغليف البضائع ، ولم يكن هناك ما يشير إلى أن نشاط الشركة يشمل السياحة . تخوفت ، وتخوف الأخوان أن لا يكون هذا هو الحانوت المقصود ؛ ولهذا قال السيد / عيسى إنه سينتظر فى السيارة لحين دخولى الحانوت ، والتأكد منه ، كما تفضل الأخ محمد إبراهيم بأن صحبنى إلى الداخل ، وتحادث مع الاخوة الصوماليين الموجودين فى الحانوت ، ثم التفت إلى مؤكداً أنه هو المكان المقصود . طلب منى أحد الموظفين أن أتبعه إلى الداخل حيث يوجد الشريك الايطالى ، لينو مارانو ، واستأذن بعد ذلك محمد إبراهيم فشكرته على فضله كما شكرت الأخ عيسى سلوى ، ودخلت إلى حجرة داخلية فى الحانوت حيث تقابلت مع السيد مارانو .

تحادثنا عن إمكانيات السياحة فقال إنه يوجد على بعد خمسين كيلو مترا من مقديشيو مكان سياحى لطيف أقامت فيه الشركة مخيمات نستطيع قضاء يومين فيها للاستجمام ، والراحة وصيد السمك ، إن أردنا ، كما أنهم لديهم لاندروفر يقلنا بعد ذلك إلى قسمايو حيث حدائق الحيوان المفتوحة ، وهى منطقة غنية بمختلف أنواع الحيونات المتوحشة نستطيع قضاء أربعة أو خمسة أيام بها .

لاحظت أنه يتكلم دائما عن المناطق الجنوبية ولما سألته عن إمكانيات الذهاب إلى الشمال إلى بربرة ، وهجراسة قال إنه لا ينصح بذلك حيث أن الحال مضطربة هناك د ناقشنا فى الأسعار ثم تركته إلى الفندق على أن أعطيه إجابتى النهائية قبل الساعة السادسة مساء .

لم تكن المسافة بعيدة بين الحانوت والفندق ، ولهذا فضلت أن أقطعها سيرا على الأقدام لأتعرف على المدينة قليلا ، وحينما عدت إلى الفندق كانت الساعة قد جاوزت الثانية والربع ، ووجدت أن زوجتى قد استيقظت ، وجلست قلقة تنتظر ، ومن ثم ذهبنا إلى المطعم ، وتناولنا طعام الغداء ، وهو ليس على مستوى الفندق، وإن كنت قد سررت جداً وأنا أتناول الفاكهة إذ وجدت لديهم البطيخ واسمه عندهم حب حب .

حينما صعدنا إلى حجرتنا كانت الساعة تجاوزت الثالثة ، وكنت مرهقا جداً لأنى لم أكن قد حظيت بفترة كافية من النوم فى الليلة السابقة ، وكذلك كانت زوجتى ، لهذا ما كدت أضع رأسى على الفراش حتى استغرقت فى نوم عميق لم أستيقظ منه إلا فى الساعة السابعة ، وبهذا فاتنى موعد السيد لينو ، وقد حاولت الاتصال به هاتفياً إلا أنى لم أستطع إذ كان من الجلى أن الحانوت قد أغلق .

تركت زوجتى ، ونزلت إلى ردهة الفندق ، وهناك رأيت السيد محمد إبراهيم فوقفت أتحادث معه قليلا ، وأثناء حديثنا جاء شخص إنجليزى وسأله إن كان يوجد فى الفندق بعض السجائر فاعتذر لعدم وجودها ، ولما كنت قد اشتريت سجائرى من الطائرة فقد عرضت على الإنجليزى أن يأخذ علبة فقبلها شاكراً ، ثم جلسنا نتحدث .

أعلمنى أنه يعمل فى الاستيراد والتصدير ، وأن منطقة نشاطه تشمل دول الخليج العربى ، والصومال ، وجزر بحر الكاريبى ، وإنها أيضاً كانت تشمل أفغانستان ، ودول غرب إفريقيا ... روى لى أن من أطرف ما حدث له أنه كان فى احدى جزر الكاريبى ، وكان يتناول طعام الافطار فى حديقة الفندق وطلب أن يتذوق المانجو ، وكان يحسب أن ثمارها موجودة فى مخازن الفندق إلا أنه دهش حينما رأى أحد الصبية يتسلق احدى الأشجار ليقتطف منها ثمرتين ويهبط بسرعة ليقدمها له ، وذكر له أنه لا يمكن أن يحتج بأن الثمار غير طازجة .

تناولنا بعد ذلك طعام العشاء ، وصحبتنا زوجتى وحينما علم النادل أننا من مصر ، إذ سمعنى أتحدث أنا وزوجتى بالعربية ، بالغ فى اكرامنا حتى أننا قمنا متخمين . وقدم لنا فى نهاية العشاء بعض الفاكهة ، فطلبت زوجتى باباى ، وهى تلك الثمار التى تشابه إلى حد كبير العجور عندنا ، وطلبت بعض الموز ، فقدم لى ثمرتين لم أذق أحلى منهما . والواقع أن الصومال هى أكثر البلاد العالم انتاجا للموز ، كما أن ثمارها أحلى الثمار وهى متوسطة فليست صغيرة الحجم كما انها ليست كبيرة .

٢٣ / ٢ / ٨٣

تناولنا افطارنا فى الساعة الثامنة ، وما حلت التاسعة حتى كنا قد خرجنا ، زوجتى وانا ، وسرنا فى المدينة متوجهين إلى الشركة السياحية . هنالك

تقابلنا مع السيد لينو ؛ واتفقنا على أن نقوم فى صباح اليوم التالى فى التاسعة إلى مخيمه فى الجزيرة وهى تبعد حوالى الخمسين كيلو مترا من مقديشيو ، وعلى أن نمكث هنالك يومين ثم نسافر إلى قسمايو لنقضى أربعة أيام ، ونعود فى الخامس إلى مقديشيو .

تركنا بعد حوالى الساعة من المناقشة على أن يرسل لنا السيارة فى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، واتجهنا إلى شركة الطيران الصومالية ولم أكن أعرف أين هى فسألت أحد تجار الخردوات فتفضل الرجل وترك حانوته ، وسار معنا حوالى ثلاثة دقائق ، وأخيرا أشار الى الشركة فشكرناه على فضله ، وتركناه ليعود الى حانوته . فى شركة الطيران علمت أن الطائرة المتجهة إلى القاهرة تقوم يومى الأربعاء فى الساعة الثامنة عشرة عند منتصف الليل ، والاحد فى الساعة نفسها . وكان معنى هذا أننا يجب أن نكون فى مقديشيو يوم الأربعاء التالى وهو نفس يوم العودة من قسمايو ، وإذا علم أن المسافة بين المدينتين حوالى ستمائة كيلو مترا أى أنها لا تقطع فى أقل من عشرة ساعات ، فان معنى ذلك أن نقوم فى الفجر من قسمايو لنصل فى المساء إلى مقديشيو ثم نستقل الطائرة لنصل فى صباح اليوم التالى ، الخميس إلى القاهرة ، وفى هذا ارهاق شديد جدا علينا .

الخيار الاخر لنا أن نعود الى مقديشيو يوم الأربعاء لنقيم بها إلى مساء يوم الأحد الذى يليه ، ومعناه أيضا مصروفات إضافية ، وتعطيل دون أى داع . كان يلزم إذاً تعديل المواعيد ، ولهذا كان أول مافعلته أن حجزت تذكرتين فى الطائرة المتجهة إلى مصر إن شاء الله يوم الأربعاء أو الخميس على الأصح فجرا . بعد انتهيت من هذا كان على أن أخاطب السيد لينو فى يل مواعيد رحلتنا ، ولكنى أرجأت هذا حتى اتحول مع زوجتى قليلا

فى المدينة خاصة وان الرجل قال أنه سيأتى الى الفندق فى الغد الساعة التاسعة مع سائق السيارة.

تجولنا قليلا فى وسط المدينة ، وأردنا شراء بعض الأشياء التذكارية لكننا لم نجد شيئا للاسف ما يستحق الشراء ، حتى المصنوعات الخشبية كانت مستوردة من تنزانيا، أثناء تجوالنا دخلنا المتحف القومى، وكانت الساعة الثانية عشرة ظهرا تماما . قابلنا موظف الاستقبال وهو شخص لطيف وقبل إن المتحف قد أغلق ، لكنه حينما علم أننا من مصر تفضل ، وأعاد فتحه ، ومن الطريف أن سائحا آخرا دخل ونحن نتحدث ، واتضح أنه فرنسى الجنسية ، فقال له الموظف باللغه الانجليزية إن المتحف مغلق ، لكنه يمكن أن يرافقنا مبالغة فى اكرامنا، مما أثار فى أجمل المشاعر أنى رأيت صورا فى المدخل الداخلى للمتحف عن رحلة الملكة حتشبسوت إلى الصومال وهى لفتة توضح إلى أى مدى يعتز الصوماليون بحب مصر ، وبعلاقة البلدين المغرقة القدم .

كان المتحف فى الأصل قصر السلطان برغش بن سعيد ، سلطان زنجبار ، حينما كانت الصومال خاضعة لحكمه ، وهو بناء جميل بنى على الطراز العربى حيث تكون الحديقة وسط الدار ، تحيط بها المبانى لتطل عليها من الداخل ، وهو من أجمل الأبنيه العربية التى شاهدتها ، وأن يكن صغير الحجم نسبيا كما أنه قريب جدا من البحر ، أما سائر الآثار الموجوده فى المتحف فلا تزيد على آثار السلطان برغش وحينما سألت السيد موظف المتحف عن آثار مهدى الصومال أجاب بأنه يأسف إذ أن الحكومة لم تعتن بأن تجمعها ، وهذا شىء مؤسف حقا ، وخاصة إذا علمنا أن المهدى حارب الانجليز — والايطاليين والأحباش ، مجتمعين زهاء إثنين وعشرين عاما متصلة ولم ينته إلا بعد أن قتلته الطائرات البريطانية فى إحدى هجماتها ،وإنى شخصيا أرجو أن تهتم

الحكومة الحالية بجمع آثاره تخليدا لذكراه ، فهو من أبطال الاسلام المعدودين .

فى الساعة الواحدة عدنا إلى الفندق ، وتناولنا طعام الغذاء ثم استرحنا قليلا . حاولت أن اتصل بالسيد لينو لاطلب منه تعديل البرنامج إلا أنه قيل لى إنه غير موجود ، فتركت الأمر إلى اليوم التالى .

نزلنا إلى ردهه الفندق ، وجلسنا نحتسى القهوة ، وبعد فترة قليلة رأينا السيد محمد إبراهيم داخلا . إتجه الينا حينما رآنا ، وجلس معنا ، وأخذنا نتحادث عن ذكرياتة فى مصر فقال لنا إنه قد أجريت له عملية جراحية للتجميل ، وأنه ظهر فى التلفيزيون بين سنتى ١٩٨٨لم ١٩٧٩ ،وفعلا تذكرت أنى شاهدت هذا البرنامج ،وكانت صدفة غريبة حقا أن نلتقى به . ذكر لنا أنه يعمل رئيس حسابات بالفندق ، وسألنا ان كنا نود ان يقدم لنا اية خدمة لكننا شكرناه فلم أكن أريد أن اثقل عليه.

بعد أن قضى معنا أكثر من نصف ساعه عرض على أن يصطحبنى فى جولة مسائية لكننى شكرته ، فلم أكن اريد أن اثقل عليه بعد قليل إعتذر ، وتركنا . هنا أود أن أقول شيئا وهو أنه مما يؤسف له أن الصوماليين يتعاطون القات ، وهو النبات المخدر الذى يستعمله اليمنيون بكثرة . مكثنا فى الردهة نصف ساعه أخرى حتى حل ميعاد العشاء .

٢٤ /٢/ ١٩٨٣

فى الساعه التاسعة إلا عشرة دقائق كنا قد تناولنا الشاى،ودفعت حساب الفندق ، وانزلنا الحقائب فى الردهة وجلسنا ننتظر السيد لينو . تبين

لمكاتب الاستقبال أننا مصريان فخاطبنا بالعربية، وذكر مقدار حبه لمصر، والمصريين، وذكرت اننا نتبادل الاحاسيس منها.

تمدت الساعة التاسعة والنصف قبل أن يحضر ليتو، واعتذر ذاكرا أن السائق يبحث عن الوقود فهم لا يمنحون أكثر من عشرة لترات فى كل محطة. هنا ذكرت له رغبتى أن نعدل البرنامج بحيث لا نبقى سوى ليوم واحد فى المخيم، وبحيث نعود إلى منديشيو فى يوم الثلاثاء، بدلا من الاربعاء. وافق على ذلك، وتركنى قائلا إنه سوف يرسل السائق فى الساعة العاشرة لكنه لم يحضر ثانية إلا فى العاشرة والنصف.

بدأنا السير فى الساعة العاشرة وأربعين دقيقة متجهين جنوبا. الجو حار جدا، والشمس شديدة الضياء: كانت السيارة التى خصصت لنا لاندروفر، ذلك أن المنطقة التى سنذهب اليها، واسمها الجزيرة، غير معبدة الطرق، وكان السائق لا يتكلم العربية واسمه مختار، ومعه شخص آخر اسمه أحمد عيدى عثمان قال إنه الذى سوف يصاحبنا لصيد الاسماك.

بدأ الطريق الرئيسى قبل خروجنا من المدينه معبدا، لكن الطرقات الجانبية كانت رملية، كما يوجد طريق رئيسى آخر مستعرض مسفلت جيدا، ولاحظت أن كل المنازل من طابق واحد، وأن المحلات التجاريه كثيرة.

هبت نسمة خفيفة تحمل معها بعض الحرارة، وإن خففت منها حركة السيارة، وشاهدت طريقا مستعرضا آخرا مسفلت، ظهرت الأرض على جانبيه رمليه جدا، وصخرية جيريه. بعد حوالى عشرة دقائق تركنا الطريق المسفلت، إلى طريق جانبى رملى، وتوقف السائق عند أحد المنازل الصغيرة لكنه سرعان ما عاد، وعدنا الى الطريق المسفلت نسير مع إرتفاع يسير، ثم سرنا طويلا فى الطريق المسفلت، ودخلنا مره ثانيا فى طريق رملى تتناثر على

جانبيه المنازل الضيقة ، وتوقفنا قليلا ، ثم عدنا إلى طريق آخر مسفلت ، ورأينا فيه الاستاد ، واتخذنا طريقنا مرة ثانية إلى مقديشيو ويبدو أن تلك كانت قريبة السائق ، وأنه أراد حمل بعض أشياء خاصة لأهله . اتجهنا إلى أقرب الطريقين المستعرضين وهو مسفلت ، وكانت الساعة قد اضحت الحادية عشرة ، وما زلنا فى مقديشيو نمر على المنازل ، والاكواخ الكثيرة وابتدأ الطريق فى الانحـــدار الخفيف ، ثم لارتفاع الطفيف مرة ثانية ، ورأينـــا عربات الجاز عندنا ، تجرها الحمير وعلمنا أنها تنقل المياه للسكان . للمرة الثالثـــة تركنا الطريق المسفلت إلى اخر جانى رملى ومررنا باحدى القرى ،وفيهـــا توقفنا ،وهنا نزل صائد السمك وليس السائق ، وقد اضحت الساعه الحادية عشرة وعشرة دقائق . خمس دقائق أخرى ثم عاودنا السير بعد أن جلب الصياد بعض الملابس الخاصة به . توقفنا مرة رابعة بعد أقل من دقيقتين ، ومكثنا عشرة دقائق ثم عدنا إلى طريق اخر مسفلت رأيت بعض التزاحم على محطات البنزين ويبدو أن التأخير فى القيام كما قال لى لينو يعود إلى أن هنالك أزمة حقيقية فى البترول فهم لا يعطون أية سيارة أكثر من عشرة جالونات ، ومع ذلك فالأزمة غير ملحوظة .

عندما وقفنا فى المرة الأخيرة تجمع بعض الصبية حول العربة كما هى العادة ... وكان من بينهم صبى وصبية ، الصبى فى حوالى العاشرة من عمره واسمة ادريس حسين على ، والصبيه فى نحو العمر نفسه ، واسمها فردوس محمد . ولم يكن أيهما يتكلم العربية ، فسألت الصبي إن كان حافظا بعض القرآن فأجاب بالايجاب ، وتلى الفاتحة ، لكنه أخطأ فى سورة الضحى ، وكذلك التحيات .

أما الصبية فلم تكن تعرف شيئا . وأرجو أن يكون هذا اللقاء الصغير حافزا لهما على أن يتعلما العربية ، وتلاوة القرآن .

في الساعة الحادية عشر والنصف رأينا المحيط الهندى عند نهاية المطار من الجهة الجنوبية ، وكما على الشاطئ . في الطريق من الاسكندرية إلى مرسى مطروح توجد أشجار التين ، واسمة تين أيضا بالصومالى .

سرنا في طريق مسفلت يوازى المحيط ، ومررنا بمعسكر للجيش الصومالى في بلدة إسمها حلامه ، وبمحاذاة المحيط تحرك الهواء ، وخفت حدة الحرارة إلى حد بعيد ، واضحى الجو لطيفا ! ورأيت نساء الفجر يرعين بالخراف ، والماعز . والشاطئ غير مستو ، وصخرى ، وإن وجدت فيه كثبانا من الرمال تنمو عليها بعض الأعشاب .

في الساعة الحادية عشرة ، وأربعين دقيقة تركنا الطريق المسفلت لنسير في طريق حجرى في محاذاة الشاطئ ، وصادفنا الكثير من الابقار وهى تشبه الى حد بعيد الابقار في مصر ، كما مررنا بمحجر رمل ناعم .

في الساعه الحادية عشرة وخمسين دقيقة مررنا بمنطقة قال عنها القائد أنها أول جزيرة ، وهى مجرد بركة متصلة بالبحر وداخله الى البر وبها جزيرة صغيرة وفيها الكثير من الطيور وتوجد بالقرب منها ملاحه .

وقرية الجزيرة نفسها عبارة عن أكواخ من الأخشاب ، والاحجار مبنية بغير نظام وسط كثبان الرمال . وفي جزيره صغيرة في الخليج يوجد مقام الشيخ حاجى محسن ، وزيارته في ٢٤ شعبان ، وقال لنا القائد إن الشيخ رحمة الله كان عمه .

على بعد حوالى كيلو مترين يوجد مطعم ، ولم نستطع أن نتناول به أية

مرطبات حيث أن الكهرباء كانت مقطوعة ، وبالتالى لم تكن الثلاجات تعمل . رأينا بعض الطيور التى تشبه البشاروش . لكن رءوسها سوداء ، وكذلك ذيولها ، أما باقى الجسم فأبيض ، وقال الصائد إن اسمه دلال ، بكسر الدال ، وامالتها .

فى الساعة الواحدة إلا ربعاً وصلنا الى منطقة صحراوية بعيدة عن الشاطىء ، وتهب عليها الرياح محملة بالأتربة حتى أن الرؤية تتعذر لأكثر من خمسين مترا ، واسم المكان رأس بقرة ، وهو كثير الكثبان الرملية البيضاء الناعمة ، ويرتفع عن سطح البحر بحوالى الثلاثين أو الأربعين مترا .

كانت الرياح ناعمة إلى حد أن اللاندروفر غرزت فيها . اضطررنا الى إزاحة الرمال حول الإطارات بالأيدى ، ودفعها ، ومن ثم استمرت فى سيرها ، وبعد دقائق عادت الأعشاب تكسو الكثبان .

فى الساعة الواحدة وعشرة دقائق ، وصلنا الى مقام الشيخ مكى ، ووصلنا الى المخيم . وهو يقع فى منطقة ترتفع عن سطح البحر بحوالى المائة متر تكسوها أشجار الأكاسيا ، كما تبتعد عن المحيط بأكثر من خمسمائة متر . ويتكون من عدة خيام يسع كل منها شخصين ، أو ثلاثه ، كما جهزت أحد الخيام الكبيرة لتحل محل حجرة الطعام ، وبالمخيم الكهرباء ، لكن لا توجد مياه ، فهذه يجب أن تنقل من قرية الشيخ حاجى محسن كما أن المؤن تنقل من مقديشيو .

قادنا مختار ، المشرف على المخيم ، إلى خيمة بها ثلاث أسره ، وجهز لنا فراشين ، واستعملنا الثالث كمنضدة نضع عليها حقائبنا ، واعتذر مختار قائلا : إنه لم يخطر بمجيئنا ، وبما أننا الشخصين الوحيدين فى المعسكر فإنه لم يعد

غذاء ، وطلب إمهاله بعض الوقت فأجبناه إلى طلبه . قدم لنا بعض عصير الجريب فروت المثلج ، ثم تركنا وذهب لإعداد الطعام ولم ينته منه إلا فى الساعة الثالثة .

تناولنا الطعام فى الخيمة المخصصة ، وكان طعاما شهياً حقاً إذ أن الرجل مختار طباخ ماهر ، كما لم يفتنا أن ننهى الطعام ببعض الموز . عرض علينا أحد الصائد أن يرافقنا فى نزهة بحرية ، لكن الهواء كان شديداً كما أننا كنا متعبين من آثار السفر فطلبنا منه إرجاءها إلى صباح الغد . لا يفوتنى هنا أن أقول أن خيمة الطعام تقع فى أعلى منطقة فى الربوة تقريبا ، وأنها تطل على منظر آخاذ من أعالى الأشجار الأكاسيا إلى الشاطىء الأبيض المترامى الأطراف إلى المحيط من ورائه ، وقريبا منه الجزيرة الصغيرة التى يوجد بها ضريح الشيخ مكى ؛ والتقطت بعض الصور .

واسترحنا قليلا فى خيمتنا ثم تناولنا الشاى فى الساعة السادسة تقريبا ، وبدأ الليل يرخى أستاره ، وأضاءت المعسكر الأنوار الكهربائية المتناثرة تتداخلها الأجمات ، والأحراش ، والنباتات الشوكية لتكون ظلمات تخفف من حدة الأضواء ، ونحن جلوس ، كنا نرى ، أو يخيل إلينا أننا نرى حيوانا يدلف بسرعة من أجمة إلى أخرى مسرعا فى الضوء الكهربائى ، ثم يختفى بين النباتات القريبة من حسن حظنا أيضاً أن الليلة كانت مقمرة مما أضفى على المكان سحراً طبيعياً أخاذا . جلسنا نتمتع بالمناظر الجميلة ، والسكون الشامل الذى لا يقطعه سوى صوت طائر ليل بين آن وآخره وهدير أمواج المحيط تأتينا من بعد . فى الساعة التاسعة تناولنا عشاء شهيا وعاودنا الجلوس أمام الخيمة حتى آن أوان النوم ، فأوينا إلى الفراش لننام نوماً عميقا لا تقطعه أصوات مزعجة .

٢/٢٥

استيقظنا فى السابعة صباحاً خلافاً لعادتنا وهذا متأخر جداً بالنسبة لنا لكن يبدو أن الارتحال والسكون ، والهواء النقى ، دفعتنا إلى أن ننام أكثر مما اعتدنا . تناولنا إفطارنا فى حدود الثامنة صباحاً ، ووقف مختار المشرف على المعسكر يروى لنا ذكرياته . هو فى الحادية والخمسين من عمره ، ودهشت إذ لم أتصوره يتعدى الأربعين ، وهو أب لثمانية أطفال . وهو طباخ ماهر جداً ، ويمتلك ماعزتين وبقرة . حينما كان فى أوائل الثلاثين من عمره كان يعمل دليلا للصائدين الأجانب الانجليز والإيطاليين خاصة الذين يرغبون فى صيد الأفيال والأسود ، وذات مرة أصاب أحد الإيطاليين أسداً برصاصة بندقيته لكنه لم يقتله ، وهجم الأسد على مختار ، وأنشب أنيابه فى كتفه ، ومزق عضلات فخذه بمخالبه ، وحاوره بين الحياة والموت .

كتبت له الحياة ، ولا يوجد فى جسده سوى آثار المعركة التى أعتنى أن يرينا إياها ، فى الكتف والفخذ . روى لنا أيضاً أنه رأى ذات مرة رجلا مصاباً بالصرع ، فى حالة متقدمة منه ، ويئس من شفائه الأطباء . وذهب الرجل إلى طبيب القرية (الساحر) الذى أخذ حافر حمار الوحشى ، وبشر مقدمه ، ثم أحرقه مع بعض اللادن ، وأمر الرجل باستنشاق البخار ، واستنشق الرجل وأبل ... وروى غير ذلك الكثير .

انتهينا من تناول افطارنا بعد زهاء الساعة وكانت قد شارفت على التاسعة ، حينما طلبت منه أن يأمر الصائدين لكى نقوم بنزهة بحرية ، فطلب من صالح أن يرافقنى بالسيارة إلى الشاطىء ، إذ اعتذرت زوجتى عن المجىء . ونحن نهبط التل رأيت بعض الخنازير البرية على بعد ، وأشرت إليها لمختار فقال إنهم يسمونها بالصومالية دوفاو . وسألته إن كانت توجد حيوانات أخرى

فأجاب بأن الغابة تحتوى على بعض البابون، والضباع، وابن آوى ، والقندس ، وقد رأينا أثناء هبوطنا أحد الحيوانات يشابه القندس إلى حد بعيد ، لكنه أكبر منه حجما ، وأطول ذيلا .

صحبت صالحاً إلى السيارة وقادها إلى الشاطىء ، وأثناء مرورنا شاهدنا الخنازير البرية عن قرب ، والتقطت صورة من مكان قريب لضريح الشيخ مكى ، وسط الجزيرة الصغيرة . وقفنا قليلا عند الشاطىء ، لكن أحمد ، الصائد ، كان قد استقل القارب من وقت بعيد ، وخرج إلى المحيط ليصطاد ، ولم نر له أثراً ، وعلى هذا عدنا إلى المخيم ، وجلست مع زوجتى خارج الخيمة نستمتع بالهواء النقى ، والسكون الذى تخلله أصوات الطيور المختلفة .

ولا يفوتنى هنا أن أذكر أنى كنت كثيرا ما أخلط كلامى بالعربية ، إذ أخاطبهم بالإنجليزية، والإيطالية وبكلمات عربية قليلة ، وسرعان ما وجدت تجاوبا من جميع من بالمعسكر . وشيئا فشيئا كنا جميعا نكاد أن نقتصر على الكلام بالعربية . محاولات سقيمة أحياناً ، لكنها ناجحة تماماً فى معظم الأوقات . حتى الفتاة الصغيرة ، ويبدو أنها صغرى بنات مختار ، كم سرنى حينما بادرتها بصباح الخير ، وردت على « صباح النور » . أما مختار فكان فى بداية الأمر خجلا من الكلام بالعربية ، ثم فى الصباح بادرنا بصباح الخير ، ثم عدد الأصناف التى سيعدها لنا فى الإفطار ... عددها بالعربية جميعها ، لكنه حينما بدأ فى رواية أقاصيصه ، كان يخلط بين العربية ، والإيطالية ، والإنجليزية .

ثمة ملاحظتان غريبتان ... أولاهما أنه لم تظهر حين مجيئنا أو فى الصباح التالى أية سحالى ، وظهرت ليلا ، وإن كنا لم نر سوى واحدة فقط شكلها غير عادى ، الثانية أن الفراشات لم تظهر ليلا من وجود المصابيح الكهربائية

وظهرت نهارا بكثرة الفراشات المعروفة لدينا بأبي دقيق . لكن لم تظهر فراشات عادية .

مكثنا نقطع الوقت فى السير أحيانا ، ولعب الورق أخرى . حتى كانت الساعة الحادية عشرة واربعين دقيقة حينما وصل السيد لينو ، ومعه زوجته وابنه . كانت زوجته سمراء أخطرتنا بأنها حبشية ، وهى سيدة جميلة لطيفة ، وكذلك الأولاد . طلبت من السيد لينو ، أن نرحل فورا إلى قسمايو حيث أن المسافة تزيد على خمسمائة كيلو مترا ، ومعنى هذا أننا لن نصلها قبل المساء ، وأنا شخصيا ، أكره السفر بالسيارة فى الظلام . بسرعة أعدوا لنا بعض الطعام لنأخذه معنا ، ونتناوله فى الطريق ، كما أعطانا ثلاجة بها مياه معدنية مثلجة ، والموز ، والبرتقال فى الساعة الواحدة إلا عشر دقائق ، ودعنا أصحابنا ، مختار المشرف على المعسكر ، وأحمد الصياد ، وصالح السائق ، وزوجة مختار ، وأولاده ، ولينو وزوجته ، وركبنا سيارة لاندروفر أخرى ، وسائقها اسمه حسن ، ثم بدأنا رحلتنا .

بعد خمس دقائق تقريباً قال لنا السائق إنه سيخترق الغابة ، وإن كان الطريق وعراً إلا أنه يوفر لنا أكثر من ثلاثين كيلو مترا . وافقنا على ذلك ، ومن ثم بدأت السيارة تصعد التل مبتعدة عن المحيط ولم نلبث أن دخلنا فى غابة غريبة إذ أنه لا توجد بها سوى النباتات ، والأشجار الشوكية وبعض أشجار الأكاسيا .

نظراً لكثرة الأشواك لم يكن يوجد بالغابة أى نوع من الحيوانات الكبيرة ، وكل ما استطعنا رؤيته هو :

النمس وأصغر أنواع الغزال ، وهم يسمونه دج دج ، وهو لا يزيد فى الحجم على الحمل الصغير ، كما أنه يوجد بها ابن آوى ،

وبعض الخنازير البرية الصغيرة الحجم ، وحتى هذه الحيوانات لم نر منها الكثير بالرغم من أننا اخترقنا الغابة من أولها إلى نهايتها . استمر سيرنا فى الغابة أكثر من نصف ساعة ، ثم بدأت تظهر علامات تدل على أن الارض كانت مزروعة غالبا على مياه الأمطار ، وانتهت التلال ، وقلت النباتات الشوكية ، وأشجار الاكاسيا .

فى الساعة الواحدة والنصف وصلنا إلى قرية حسنة البناء ، ومنها خرجنا إلى الطريق المسفلت المتجه إلى قسمايو . كان الطريق لا بأس بحالته ، كما لم يكن الجو شديد الحرارة ، لهذا أطلق السائق لسيارته العنان. لم نلبث أن مررنا بقرية ثانية ، ثم ثالثه وما تزال الارض فيها ما يدل على زراعه سابقه ، وإن كانت فى الاخيرة قد انخفضت ، كما كثرت الجبال . أخيراً عادت النباتات الشوكية تكسو الارض على جانبى الطريق وإن ظلت الارض مستوية ، وفى الافق البعيد شاهدنا كثبانا رملية مما يوحى بوجود صحراء .

توقفنا فى الساعة الثانية ، وتناولنا بعض الطعام الذى كان السيد لينو قد أعده لنا ثم استأنفنا الرحيل ، ووصلنا الى مدينة صغيرة اسمها شالامبوت ، وبها فندق صغير انيق يدعى سفارى ، ويقع على الطريق الرئيسى مباشرة . هناك توقفنا ، واشترينا بعض الموز بسعر شلن للثمرة وقرأت لافتة تشير الى أن القريه تبعد عن مدينة بركة بتسعة كيلومترات .

تركنا شلامبوت فى حدود الساعة الثانية والنصف متجهين جنوبا الى قسمايو ؛ ومازالت الارض جرداء إلا من النباتات الشوكية ، وأشجار الاكاسيا وفى النادر توجد بعض المزروعات الحقلية . بعد حوالى ربع ساعة بدأت تظهر مزارع الموز ، والبرتقال كما لاحظنا وجود بعض فسائل النخيل ،

وأشجار جوز الهند المتناثرة . استمرت مزارع الموز على طول الطريق حتى وصلنا إلى بلدة جلوبن ثم قرية بولومارادا ، وبعدها عادت النباتات الشوكية ، والأحراش تغطى الأرض عند قرية برافا توقفنا قليــلا إذ كانت الساعة الرابعة . شربنا بعض المياه المعدنية ، ثم عاودنا السير بين الأحراش ، وشاهدنا الكثير من الخنازير البرية الفاكوشيرى ، وابن آوى، ودجاج غينيا .

رأيت على البعد الكثير من الطيور الضخمة متجمعة ، طلبت من السائق حين أن يهدىء السير ويقف الى جانبها بهدوء حتى لا يزعجهـــا لكى أستطيع أن ألتقط بعض الصور ، وفعلا توقفنا عند قنطرة تمر من تحتها المياه ، وابتدأت التقط الصور حينما شاهدت على الجانب الآخر من الطريق ثعباناً من نوع البيثون يتجاوز طوله سبعة أمتار .

كان من الجلى أنه قد دهمته سيارة ، وأنه مات ، ذلك أن العجل كان قد هشم جسمه على مسافة حوالى ثلاثة أرباع المتر من رأسه . اتجهت الى الناحية الاخرى وأخذت له بعض الصور ، وطلبت من زوجتى أن نحمله معنا فى السيارة لأن جلده فى الواقع كان بديعا ، فرفضت أولا لأنه أثقل من أن نستطيع حمله ، السائق وأنا ، وثانياً لأنه يلزم سلخه وتنظيفه وتمليحـــه ، وهى امكانيات غير متوفرة لنا ، واضطررنا الى تركه ، واستأنفنا السير بين تنهدات زوجتى الآسفة .

فى الساعة السادسة وصلنا الى بلدة حلب ، مع كسر الجسم ، والسـلام ، وتوقف السائق ليتزود بالوقود ، ولإصلاح عطب يسير فى السيارة ، وجلسنا نحن فى الانتظار . أثناء انتظارنا شاهدت منظراً طريفا . رأيت رجلا نحيفاً مسناً ، ربما فى الحلقة السابعة من عمره . كان الرجل قد ترك الطريق ، ولعله

خرج من أحد المنازل المتواضعة ، وتحسبه قد انتهى من عمل اليوم ، ويريد متعته الخاصة فى مسامرة خلانه ، ما كاد الرجل يعبر الطريق حتى ظهر كبش ماعز كبير تتبعه ثلاث إناث ، وحمل رضيع . توقف الرجل ، وأشاح إلى الكبش حتى يعود . توقف الحيوان ينظر إليـــه دون أن يتحرك . لوح الرجل بعصاه ، وتراجع الكبش قليلا لكنه لم يبتعـــد ، وتوقفت الإناث . انحنى الرجل يتحسس الأرض فى حركة توحى بأنه يهم بتناول حجر وابتعد الكبش وابتعدت الإناث أراد الرجل أن يكمل مسيرته فعاود الكبش اتباعه ، وسارت الإناث خلفه .

نظر الرجل وراءه وحينما علم أن الحيوانات تتبعه انحنى على الأرض ، وفى هذه المرة تناول فعلا حجراً ورماه فعلا على الكبش . جرى الحيوان بعيداً ، وجرت الإناث تتبعه ثم توقف الحيوان ، وراح ينظر إلى الرجل وتوقف الرجل يشيح بيديه ، لكن الكبش لم يتزحزح من مـــكانه . من وراء الحيوانات ظهرت امرأة مسنة ؛ لعلها زوجة الشيخ ، وبهدوء انحنت ورفعت الحمل الصغير بين يديها ، وسارت به متجهة إلى المنزل ، وسرعان ما تبعتها إحدى الإناث ، ولعلها أم الصغير ، وترددت الانثتان الثانيتان قليلا ثم ما لبثتا أن هرولتا وراء صاحبتهما ووقف الكبش وحيداً وسط الطريق يردد الطرف بين إناثه اللائى هجرن ، والرجل المسن ، وأخيراً لم ير من الأمر بداً ، فتبع الأناث ، وسار الرجل الى حال سبيله .

انتهى التموين ، والاصلاح وعاودنا سيرنا . وأود هنا أن أذكر اننا كنا قد قطعنا حوالى ثلاثمائة كيلو متراً ، وأن المرور كان ضعيفاً الى حد لا يصدق حتى أننا لم نصادف أكثر من خمسين سيارة فى الاتجاهين . كان الليـل قد أسدل ستاره حينما مررنا بخط الاستواء عند قرية سنكونى ، وقد وضعوا

علامة توضح مكانه تماماً وبذلك نكون قد تركنا نصف الكرة الشمالى ، ونسير الآن فى قسمها الجنوبى .

كان الجو لطيفا ، وهبت نسمة منعشة ، كما كان القمر بدراً ، وأطلق السائق لسيارته العنان ، وأحسبه قد تعدى المائة ، خاصة وأن الطريق مسفلت جيداً . وجهت نظره أكثر من مرة إلى أنه لا داعى لكل هذه العجلة خاصة وأننا فى سياحة ، وليس وراءنا أى موعد ، فكان يبطىء قليلا ثم يعود إلى اندفاعه .

ذات مرة ظهر من الطريق فجأة خنزيران بريان ، ولم يستطع السائق أن يوقف السيارة فى الوقت المناسب ، فصدمت أحدهما ولم تمر عليه عجلاتها . لست أدرى لماذا طلبت منه الوقوف إذ داخلتنى رغبة سقيمة أن لا أترك الخنزير المصاب وسط الطريق حتى لا يكون عرضة لأن تمر عليه عجلات سيارات أخرى فربما يكون مايزال حياً . أنا أعلم الآن أنها رغبة سقيمة لأنه من الخطر جدا محاولة مساعدة الحيوان الجريح خاصة وأن هنالك زميلا له . والخنزير البرى حيوان قوى جداً رغم صغر حجمه ، وهو أيضا شديد الشراسة . على أى الأحوال توقف السائق ، وهبطت من السيارة لأجد أن لا أثر والخنزير فى الطريق . لقد تلقى الصدمة ، ونهض واختفى فى الأدغال .

طلبت من السائق ، وفى هذه المرة بحزم ألا يتعجل السير ، وحسناً فعلت إذ لم تكد تمضى دقائق حتى رأينا فى منتصف الطريق وعلا ضخما ، واقفاً ، قد عمته أنوار السيارة ، فلا يدرى أين يذهب . أطفأ السائق الأنوار ، وسرعان ما اختفى الوعل بدوره فى الأحراش .

وصلنا فى الساعة السابعة والنصف إلى فندق وابو ، وهو يقع خارج مدينة قسمايو بحوالى كيلو مترين أو ثلاثة ، ومبانيه على هيئة فيلات دائرية

بكل منها ثلاث غرف نوم، وحمامان، وغرفة استقبال. ومن الممكن أن يكون فندقاً جميلا، لو لقى بعض العناية بالخدمة. أسرع السائق يتقدمني إلى كاتب الاستقبال وخاطبه بالصومالية، ويبدو أنه كان يطلب منه شيئاً رفضه الموظف، وأحسب أنى أعلم ماذا كان يطلب.

تدخلت بعد دقائق مخاطباً كاتب الاستقبال بالإنجليزية سائلا إذا كانت توجد غرفة لنا، وأجاب الكاتب بالإيجاب، وبعد أن انتهينا من اجراءات تسجيل اسمينا أشار إلى فتاة معه وأعطاها بعض المفاتيح.

صحبتنا الفتاة فى السيارة وتوجهنا إلى فيلا قريبة فتحتها بأحد المفاتيح، وأنارتها، وانتقينا إحدى الحجرات الثلاث، وأقفلت حجرة واحدة تاركة الثانية، وقال السائق إنه سينام فيها. هنا اعتقد أنى أيقنت بما كان يطلب من كاتب الاستقبال، انه كان يطلب لنفسه حجرة على أن يضم الكاتب حسابها على حسابنا دون أن يخطرنا، مع أنى كنت قد دفعت لشركة السياحة القيمة المتفق عليها شاملة أجرة السائق، وبدل نومه، وغذائه. وقد أثبتت لى الأحداث فيما بعد صحة هـــذا الاستنتاج، . وحينما رفض الكاتب أن يكون شريكا فى سرقة تحايل السائق على الفتاة لتترك له إحدى الحجرات على أن ينام فيها دون أن يدفع شيئا للفندق، خاصة وأن الفيلات متباعدة، ومنفصلة.

بعد أن اغتسلنا ذهبنا إلى غرفة الطعام حوالى الساعة الثامنة والنصف، وهناك أيضاً لاحظنا أن المبنى المخصص رحب، وجميل، وإمكانياته غير محدودة، لكن الخدمة لا ترقى لأى مستوى، حتى أن مفارش الموائد لم تكن نظيفة. أكلا أرزاً لا بأس بطعمه، وطلبت زوجتى السمك كما طلبت أنا لوبستر، جراد البحر، أو سرطان البحر، ثم تناولنا قدحين من القهوة،

وبعد أن انتهينا دفعت مائة وسبعين شلناً أو ما يقابل أحـــد عشر دولاراً تقريباً . ثم توجهنا إلى حجراتنا ، وألقينا جسدينا المنهكين على الفراش وسرعان ما استغرقنا فى النوم .

٢٦ / ٢

استيقظنا متأخرين عن عادتنا وكانت الساعة الثامنة حينما توجهت إلى الحمام .من النافذة شاهدت ثلاث غزالات صغيرات من النوع المسمى دج دج واسمه بالصومالية سجارو ، ثم سمعت طائراً يغرد وكأنه يعزف نشيداً عسكرياً تماما ، حتى أن صوته لم يكن منغما كسائر الطيور ، وإنما كان أجشاً ، فكانت دهشتى كبيرة حتى أنى حسبت انى أخطأت السمع ، وأن هذا الصوت ربما يكون صادراً من شخص يحاول أن يعزف نشيداً ؛ لكن الصوت تكرر ،ولم يعد لدى شك فيه ، وقد سألت عن اسم الطائر ، لكن للأسف أنسيته إذ اعتمدت على ذاكرتى ولم أدون .

تناولنا إفطارنا فى الساعة التاسعة إلا ربعاً ، ودفعنا ستين شلناً أو ما يقابل أربعة دولارات . وفى طريقنا إلى مبنى قاعة الطعام شاهدنا نعامـــة رمادية أليفة التقطت لها بعض الصور ، وهى تتجول فى أنحاء الفندق دون أن تزعج أحداً ، أو يزعجها أحد .

فى الساعة التاسعة دفعت مائة وثمانين شلنـــا أجر مبيتنا أى اثنى عشر دولاراً وهو سعر زهيد جداً ، وددت لو أنهم رفعوه ، ورفعوا معه مستوى أداء الخدمات . حينما استلمت فاتورة الفندق سألت الفندقى ببساطة ظاهرة عما إذا كان هذا أجر مبيتنا فحسب دون السائق ذاكراً ، بالبساطة نفسها، أننا دفعنا لشركة السياحة مبلغاً شاملا جميع المصروفات . هنا تغير وجه الكاتب ، وابتدأ يتكلم بالصومالية بحدة مع السائق ، ووقفت انتظر الإجابة

على سؤالى . أخيراً رأيت كاتب الاستقبال يعطى السائق إستمارة الفندق ليملأها، ورأيت الأخير يفعل ذلك متضرراً ثم يضع يده فى جيبه ليخرج النقود . أثناء ذلك أكد لى الكاتب الأمين أن ما دفعته هو أجر المبيت الخاص بنا فحسب ، فشكرته ، وسبقت السائق إلى السيارة .

تركنا الفندق إلى جولة فى مدينة قسمايو ، وهى مدينة تبعد عن الفندق حوالى كيلو مترين أو ثلاثة ، والمدينة نفسها صغيرة ، ليس فيها سوى ثلاثة شوارع ،أو أربعة مرصوفة ومسفلتة ، أما باقى الطرقات فهى ترابية كما أن مبانيها لا تعلو على طابق أرضى ، وقليل جداً منها يرتفع إلى طابق أو طابقين . بينها وبين مقديشيو خط طيران يعمل مرتين فى الأسبوع ، وإن يكن غير منتظم على ما سمعت وتوجد فى الشارع الرئيسى مبانى الإدارة والبلدية، وشركة الطيران،ومبنى الجوازات والجنسية . والمحيط فى هذه المنطقة زاخر بالأسماك خاصة جراد البحر ، اللوبستر ، والجمبرى . ولا يكاد أن يكون لها سعر . حيث أنه لا توجد وسائل للنقل ، أو سيارات ثلاجات وقد علمت كذلك أن جراد البحر موجود أيضاً بكثرة فى الشمال ، ببربرة . ولا توجد وسائل لتسويقه ، أو حتى لتنظيم صيده بالطرق الحديثة .

قضينا حوالى الثلث ساعة فى التجول فى المدينه . ورأيت كذلك سوقاً، وكنيسة بناها الإيطاليون حينما كانوا يحتلون البلاد . فى حدود الساعة؛ التاسعة اتجهنا جنوباً ميممين شطر مخيم يمانى ، وهو مخيم داخل الأحراش يبعد عن قسمايو بحوالى المائة وعشرين كيلو متراً . وقد مررنا بعد عدة كيلو مترات من المدينة بمعسكر أقامته شركة أمريكية للتنقيب عن البترول وتعمل فيه حفارة كبيرة . ثم مررنا بعدها مباشرة بمطار المدينة الصغيرة. انحرف الطريق إلى داخل الأحراش وهو معبد ، وإن يكن غير مسفلت

وتحف به من الجانبين أشجار الأكاسيا ، والنباتات الشوكية كثيرة جداً . ولا توجد فى الغابة سوى الحيوانات الصغيرة كما ذكرت فى الغابة الشوكية عند الجزيرة مثل الغزال الصغيره الدج الدج . الخنازير البرية . الفاكوشيرى . وبعض النسانيس ، وأنواع من القندس . ودجاج غينيا . وقد رأيناها بكثرة أما الحيوانات الكبيرة الحجم أو الضخمة فهى قليلة جداً . ولا توجد إلا فى بعض المناطق المفتوحة التى تقل فيها النباتات الشوكية . أو تنعدم .

وصلنا إلى قرية صغيرة فى الساعة الحادية عشرة إلا ربعاً . واسمها بولا حاجى . وأهل هذه البلدة رعاة يعيشون على رعى الإبل والبقر وليس لديهم سوى زراعات يسيره . هناك سأل السائق عن الطريق إلى المخيم حيث كان قد نسيه . فرافقنا صبى فى الحادية عشرة من عمره حتى دلنا عليه . ورفض أن يأخذ أجرا نقدياً . وطلب بعض السجائر . فأعطيناها له وأستأنفنا سيرنا . من هذه القرية يتغير الطريق ويصبح غير معبد أى مجرد مدق بين الأحراش وكثير ما كانت أفرع الأشجار ، أو النباتات الشوكية ، تضرب جوانب السيارة .

حينما وصلنا إلى المخيم كانت الساعة تقارب الثانية عشرة ظهراً . والمخيم نفسه عبارة عن خيم منفصلة لا تزيد عن إحدى عشرة خيمة بكل منها فرشان ، وشماعة الملابس كما يوجد أمامهما مقعدان . وإلى جوار كل خيمة مبنى بالحوص للإغتسال وقضاء الحاجة وبه خزان صغير للمياه يملأ عندما يفرغ وحوض لغسيل الوجه . ومكان للإستحمام وآخر لقضاء الحاجة . والمخيم جميعه مزود بالكهرباء عن طريق آلة ولكن المياه النقية يستوردونها من قسمايو . بالإضافة إلى الخيم وملحقاتها توجد مبانى حجرية وهى تتمثل فى

مبنى الإدارة وبه مكان لمبيت صاحب المخيم ، ومبنى لغرفة الطعام ، وثالث للمطبخ ، والمخبز ، ورابع للعاملين .

ويقع المخيم جميعه فى نهاية الأحراش فى مكان مرتفع يطل على جزء داخلى من المحيط إلى جوار قرية للصائدين لا يزيد عدد أكواخها على خمسة اسمها يمانى ومنها أخذ المخيم اسمه . ويمتلكه إيطالى يدعى فرانسسكو بالإشتراك مع الحكومة الصومالية التى منحته الأرض ، وتسهيلات خاصة باستيراد الأدوات ، والعدد اللازمة . وبالرغم من هذا المكان النائى المنعزل ، ومن صعوبة الحصول على المواد التموينية ، فإن المكان نظيف ، والخدمة فيه لا بأس بها ، أما الطعام فمعظمه من الأسماك ، وجراد البحر وهو يشترى من قرية الصائدين ، واللحوم والألبان ، ويحصلون عليها من الأبقار من قرية بولاجاجى . أما سائر السلع فينقلونها من قسمايو بما فى ذلك الميـــاه النقية .

كنا النزيلين الوحيدين فى المخيم ، ولهذا جلسنا نتناول طعام الغداء مع صاحبه ، ورفيق له فرنسى الجنسية يبدو أنه سيشركه معه إذ أنه لم يحضر سوى منذ شهرين وهو يعمل فى المخيم . قدم إلينا فى الغداء مكرونة سباجتى ثم لوبستر أو جراد البحر (سرطان البحر) وكان الطهو جيداً كما كان الخبز أيضاً . أما الفواكه فقدموا لنا البطيخ وهو نوع من البطيخ النمس لا بأس بطعمه ، وإن كان ما عندنا فى مصر أحلى منه مذاقا .

بعد الطعام سألنى الفندق إن كنا نريد التجول فى الغابة وأبدى استعداده لأن يرسل معنا دليلا لكننى رفضت شاكراً مقرراً أننا سوف نرتاح اليوم ، ونؤجل جولتنا إلى الغد . وصحبت زوجتى إلى الخيمة المعدة لنا حيث أقلنا . والواقع أن الجو فى المنطقة جميل جداً كما أن نسمة هواء جافة

تهب دائما بالرغم من أن المخيم ، كما ذكرت ، يطل على ما يشبه البحيرة الضحلة الداخلية ، وهو أيضاً قريب من المحيط ، بالإضافة إلى هذا فإنه من البدهى أن السكون تام إذ لا يكاد المرء يسمع سوى تغريد بعض أنواع الطيور البرية ، والبحرية .

فى الساعة الخامسة والنصف قدم لنا فدلان الشاى، وتناولناه أمام الخيمة، ثم قمنا بجولة فى المعسكر لكننا لم نبتعد حيث أن السير فى الأحراش قد يكون خطراً ، وربما يضل المرء طريقه وسط الأشواك الكثيفة . عدنا فى حدود السابعة حينما هبط الظلام ، ورأينا أن المخيم مزود ببعض الألعاب ، كتنس الطاولة البنج بنج ، والبوانج والدارت . جلسنا نتحدث مع الإيطالى والفرنسى على مقاعد معدة فى الخلاء بجوار غرفة الطعام ، ومن الغريب أننا لم نجد أى ناموس فى المنطقة ، وظننت أن هذا يرجع إلى نسمة الهواء المستمرة ، وحينما سألت كانت الإجابة أنه لا يوجد عندهم ناموس مطلقاً ، حتى فى أوقات سكون الهواء .

بعد أن تناولنا طعام العشاء فى التاسعة ، ذهبت زوجتى إلى الخيمة ، وجلسنا ، نحن الثلاثة رجال ، نتحدث عن إمكانيات المخيم . فعلمت أنه لم يبدأ سوى منذ سنة، وأن امكانياته تشمل صيد الأسماك ، والتزحلق على المياه، والتجديف ، والسباحة ، وسائر ألعاب المياه ، بالإضافة إلى النزهات الخلوية، فى الغابة لمشاهدة الحيوانات . وحينما أبديت شكى فى وجود حيوانات بأية مجموعة نظراً لوجود الأشواك ، أجاب الفرنسى أنه شاهد فهدين ، وأنه يوجد أيضاً الأسود وان اعترف بأنه لم يشاهدها ، وقال إنه توجد مناطق مفتوحة وسط الغابات يوجد بها الغزلان ، وبعض الزراف . سألت عن مناطق المياه التى يمكن أن تشرب منها الحيوانات فأجاب الإيطالى بأنها لا توجد إلا فى

مواسم الأمطار ، وقال إنه يزمع أن يستخرج المياه الجوفية ، ليكون منها بركة صغيرة تتجمع حولها الحيوانات ، وأيضا ليستغل جزءا من مياهها ليزرع جزءاً من الأرض يكفى لسد حاجة المخيم من الخضروات ، والفاكهة . أبديت شكى فى أن ينجح هذا فى اجتذاب الحيوانات لأن من المقطوع به أن الأهالى حينما يعلمون بوجود المياه فسوف يردونها بدوابهم ، وماشيتهم ، وبالتالى سوف تفر الحيوانات ، وقرر الإيطالى صحة هذا الاعتراض ، وذكر أنه سوف يتفق مع الحكومة على منع الأهالى ، وان كنت أشك فى ذلك كثيرا خاصة فى مواسم الجفاف ... علمت أيضاً فى معرض الحديث أن الفرنسى ، واسمه جان بيير ، كان قد أتى إلى الصومال كمصور جوى يعمل فى شركة فرنسية تقوم بمسح البلاد تمهيدا لمحاربة ذبابة التسى تسى التى ما تزال يوجد بعضها ، وكذلك لمحاربة بعض أنواع الطيور الضارة بالمحاصيل .

كان القمر بدراً والجو رائعاً حتى أننا لم نشعر بمضى الوقت ، وامتدت بنا الجلسة إلى مابعد منتصف الليل ، وقبل أن نذهب إلى الفراش سألنى الفندقى عما إذا كنت أزمع القيام مبكرا فى تجوالنا فى الغابة ، فأجبت بأنى سأقضى الصباح فى كتابة ما فاتنى من مذكرات ، واننا سوف نقوم بالجولة بعد القيلولة واتفقنا على أن يعد لنا الدليل فى الساعة الرابعة مساء .

٢ / ٢٧

استيقظت متأخرا ، فقد نمت نوماً عميقاً ، وتناولنا افطارنا فى التاسعة ، ولم نتحرك فى الصباح إذ جلست أكتب مذكراتى بينما استمتعت زوجتى بالقراءة على قطع الوقت قبل الظهر . وصلت إلى المخيم سيارتان تقلان جماعة من اخواننا الصوماليين يصحبهم رجل أمريكى كنا قد رأيناه فى فندق واموفى قسمايو ، وحينما ذهبنا إلى غرفة الطعام تعرفنا عليهم ، وجلسنا جميعا

قدم الفندق لنا مكرونة فى الفرن باللحم ، وكانت لذيذة الطعم الى حد كبير ، ثم قدم طبقاً من اللحم والبطاطس ، لكن الأمريكى طلب جراد البحر ، لوبستر ، فقدمت له واحدة ضخمة ملأت صحناً مستطيلا ، وزادت عليه . حينما انتهينا من الطعام استأذنا من الجماعة ، وذهبنا الى مخيمنا حتى استريح قليلا قبل أن نستقل السيارة الى الغابة .

فى الساعة الرابعة تماماً كانت السيارة معدة،ومعها دليل صومالى مسن ، واتخذنا سبيلنا أولا فى الطريق العادى ، ثم ما لبثنا أن انحرفنا الى طريق جانبى دخل بنا وسط الأحراش . هنا اتضح لى أنه توجد حقيقة بعض المناطق المفتوحة التى ينمو فيها العشب ، وإن كان أصفر اللون قصيرا إذ كنا فى نهاية موسم الجفاف.استمر سيرنا حوالى عشرة دقائق دون أن ارى سوى الدج دج ، وبعض القنادس ، ثم لمحنا على البعد بعض الغزلان التى بدت هزيلة الى حد كبير طويلة الرقبة سريعة العدو .

حينما لمحتنا الغزلان على البعد أطلقت لسيقانها الريح، وهى خفيفة جداً ، ووثابة ، كذلك حدث هذا مع مجموعة أخرى منها رأيناها من مسافة بعيدة أيضاً فدلنى على أنها وحشية لم تر الكثير من السيارت ، فلا تأمن لها أن تقترب . رأينا بعد ذلك بعض الخنازير المتوحشة، فاكوشيرى، وهى تتوارى بين النباتات ، والأحراش ثم تفر مذعورة عند اقتراب السيارة لكننا عموماً لم نر أية حيوانات كبيرة جديرة بالذكر خلال ساعتين قضيناهما فى الغابة، إلا أننا رأينا بقايا غزال كبير مقتول حديثاً ولم تجف دماؤه بعد . توقفنا عنده وحاول الدليل أن يقتفى آثار الوحش الذى قتله وقد ذكر أنه فهد وربما فهدان، وبعد مسافة اختفت الآثار وسط الأحراش لم، نستطع الدخول فيها ، وبذلك عدنا إلى المخيم وقد تعدت الساعة السادسة .

جلسنا خارج غرفة الطعام على المقاعد المخصصة لذلك فى الهواء الطلق ، وجلس معنا الفندق ، والفرنسى نحتسى الشاى ، ونتحدث عن حيوانات الغابة. ولاحظت عدم وجود إخواننا الصوماليين والأمريكى فسألت عنهم فأجاب الفرنسى ، جان بير ، بأنهم ارتحلوا بعد تناول الطعام مباشرة ، وعجبت من أنهم يقطعون مائة وعشرين كيلومترا ذهابا ومثلها وإيابا ويتحملون مشقة ست ساعات سفر مقابل ساعة ، أو نحوها لتناول الطعام ، أجابنى الإيطالى أن السبب فى ذلك هو رغبة الأمريكى ، ويبدو أنه هو الداعى ، فى رؤية المكان طلبت من الفندق إعداد بعض الطعام لنأخذه معنا ، إذ اعتزمت الرحيل فى اليوم التالى إلى مقديشيو مباشرة وهى مسافه تقطع فى حوالى التسع ساعات أو ما يقاربها . ثم تناولنا طعام العشاء المكون من حساء الخضروات اوجراد البحر ثم ، الفاكهة الباباى وهى قريبة الشبه بالشمام وإن كانت تنبت على أشجار رفيعة ، وليست من النباتات الأرضية .

بعد الطعام استأذنت من صاحبينا ، وذهبنا إلى خيمتنا وجلسنا على المقعدين نستمتع بالنسيم البارد الجميل ، وبضوء القمر وهو ينساب على صفحة ميـــاه البحيرة أمامنا . مما يذكر أن البحيرة ينتابها المد ، والجزر فيحدث المد ابتداء من بعد الظهر إلى ما بعد منتصف الليل ثم تبدأ المياه فى الانحسار ، وأن الفارق بين الاثنين يربو على ارتفاع مترين . حـــوالى الساعة الحادية عشرة آوينا إلى فراشينا .

٢٨ / ٢

استيقظنا فى الساعة السادسة ، وما حلت السابعة والربع حتى كنا نتناول طعام الإفطار . حينما قدم لى فرنشسكو قائمة الحساب أتضح أنه ليس معى من النقود الصومالية ما يكفى لسدادها ، فسألته إن كان يستطيع أن يبدل

بعض الدولارات ، إلا أنه اعتذر لأن ليست لديه النماذج الحكومية الخاصة بذلك لكنه قال إنه يعتزم الذهاب إلى قسمايو لشراء بعض المؤن ، والأدوات وأنه لا يمانع فى أن يصحبنا إلى البنك حيث نستطيع أن نستبدل ما نشاء .

كان معنى هذا أن نتأخر فى قسمايو ، لكن لم يكن هنالك مفر فسألته إن كان قد أمر باعداد بعض السندوتشات لتناولها فى الطريق فأجاب بالإيجاب ، وبعد حوالى النصف ساعة استقل سيارته ، وركبنا سيارتنا متجهين إلى قسمايو . رأيت أنه اصطحب معه الفرنسى وعلمت أن الأخير يزمع السفر إلى أوربا ، وألمانيا ، فرنسا بالذات لشراء بعض المهمات وأنه سيتغيب لمدة شهر آخر حيث أن زوجته وابنه يقيمان فى فرنسا . كان فى سيارة الفندقى أيضا ثلاثة جنود نظاميين علمت أنه سوف يصحبهم إلى قرية بولا حاجى إذ أن ورديتهم فى حراسة المخيم تنتهى اليوم ، وأن عليه أن يستبدلهم بثلاثة آخرين ، ويبدو أن هذا أحد شروط إتفاقه مع الحكومة الصومالية .

انطلقنا حوالى الساعة الثامنة ، وطلب الفندقى من سائقنا أن نتبعه فسرنا على مسافة منه إتقاء للغبار الذى تثيره السيارة ، واتخذ الفندقى طريقاً مغايراً لما سبق أن سلكناه فى المجىء وقرر السائق أنه لا يعرفه . وكان الطريق الجديد أقصر ، وأحسن تمهيداً . رأينا فى الطريق بعض الغزلان الصغيرة والخنازير البرية ، وكذلك اعترض طريقنا وعل كبير الحجم ، لم أر نوعه قبل ذلك إذ أنه بنى اللون ومخطط كالحمار الوحشى وما لبث أن اختفى بين الاحراش ، على أننا لم نر كثيراً من الحيوانات ، خاصة وانها غالباً إن وجدت كانت تفر أمام السيارة التى تسبقنا .

وصلنا إلى قرية بولاحاجى فى الساعة التاسعة حيث أنزل الفندقى الجنود

وتخاطب مع قائد المنطقة ، ومن ثم انطلقنا إلى قسمايو . فى الطريق تكررت رؤيتنا للحيوانات الصغيرة نفسها كما رأينا مجموعة من دجاج غينيا ، وبعض النسانيس ، وزوجين فقط من البابون ، وكانت جميعها تفر داخل الأحراش حين رؤية السيارة ، ولهذا لم أتمكن حتى من تصويرها . أخيراً وصلنا الى قسمايو فى الساعة العاشرة والنصف ، ودلنا الفندق على البنك ، ووقف ينتظرنى خارجاً .

حينما دخلت البنك ، وهو يشغل مبنى قديم من طابقين ، سألت موظف الاستعلامات عن نافذة استبدال النقود إذ لم تكن هنالك علامات ، فاصطحبنى الى حجرة توجد بها فتاة من الجلى أنها تعمل كسرتيرة . أخرجت مائة دولار والإقرار الجمركى بالنقد ، وقدمتهما إليها وخاطبتها بالعربية قائلا إنى أريد الاستبدال لكن الفتاة ، وإن كانت قد فهمت ، إلا أنها ردت على بالإيطالية طالبة جوازسفرى . قدمته وعلمت أنى مصرى فأعادت النظر إلى مترددة ، ثم نكست نظرها على الأوراق أمامها وابتدأت فى ملئها . أثناء ذلك حضرت سيدة أخرى ، من الجلى أنها أيضاً موظفة فى البنك ، وتخاطبت السيدتان بالصومالية ثم وجهت الى الوافدة الكلام تسألنى بالعربية إن كنت مصريا ، ولما أجبت بالإيجاب قالت إنها ذهبت إلى مصر ، وانها مكثت شهرين فى القاهرة فى فندق هيلتون النيل ، وسألتها عن صاحبتها لماذا لا تتكلم العربية ، إن مسلمة أم لا ؟ وهنا رأيت مسحة الغضب تبدو على وجه الموظفة الأولى وردت بالعربية بأنها مسلمة . وهنا سألتها لماذا تتحاشى الكلام بالعربية ، وردت بأنها لا تجيدها ، فسألت إن كانت تصلى ، ولما لم تجب سألتها مرة ثانية إذا كانت تصلى ، وتقرأ القرآن بالإيطالية فنفت ذلك بالإيطالية أيضاً ، لكنها كانت فى هذه آلاين جانبا ، وزال عنها غضبها الأول ، بل لعلها ابتسمت .

خاطبتها بالإيطالية سائلا عن سبب امتناعها عن الكلام بالعربيه فقالت إنها لا تحسنها. ورددت بأنى لا أحسن الإيطالية وكثيراً ما أخطىء فيها لكن ذلك لا يمنعنى من الحديث بها، ومن محاولة التفاهم مع أنه ليس عندى دافع دينى لأن أجيدها. وهنا وعدت بمحاولة الكلام بالعربية وإن كانت قد استمرت تتكلم بالإيطالية.

إنتهت أثناء ذلك من ملء الأوراق، وناولتنى جواز السفر وناولت زميلتها الأوراق فأخرجت الأخيرة وطلبت منى أن أتبعها. وعند أحد موظفى البنك تمت سائر الإجراءات، واستبدلت النقود وشكرتها وخرجت لأدفع حسابى للفندق ونستأنف رحلتنا إلى مقديشيو. وما حلت الساعة الحادية عشرة والنصف حتى كنا قد ملأنا خزان السيارة بالوقود، وتوكلنا على الله متوكلين إلى مقديشيو.

وبعد عشرة دقائق مررنا بقرية اسمها كوكين حيث يصب عندها نهر جوبا فى المحيط ومع قرب الأراضى ومع أن النهر دائم الجريان، ومع أن الأرض حمراء، فإنها خالية من المزروعات وتكسوها النباتات الشوكية وأشجار الأكاسيا فى الساعة الثانية عشرة والربع. وصلنا إلى قرية سنكونى وعندها يمر خط الاستواء كما ذكرت سابقا. وقد وضع نصب يدل على ذلك، فتوقفنا، والتقطنا بعض الصور، ثم واصلنا رحلتنا، وبذلك انتقلنا من نصف الكرة الجنوبى إلى الشمالى.

عند سنكونى توجد مزارع الموز بكثرة كما توجد أشجار البابايا والمانجو وبعض المزروعات الأخرى أخيراً وصلنا إلى مقديشيو الساعة السادسة والنصف متعبين بعد سفر دام أكثر من عشر ساعات أكترينا حجرة رقم تسعة فى الطابق الثانى من فندق جوبا وتعجلنا العشاء ثم آوينا إلى فراشنا فى حدود العاشرة والربع

٣/١

استيقظنا مبكرين وقد أعاد النوم لنا النشاط ، وما حانت الساعة الثامنة حتى كنا نتناول طعام الافطار شربنا القهوة فى صالة الفندق، وفى حدود الساعة التاسعة والنصف استأذنت من زوجتى ، وتوجهت إلى مقر المركز الثقافى الإسلامى الذى أسسته وتديره مصر ، وهو يقع فى مواجهة الفندق مباشرة فى مبنى مستقل مدخله متواضع . أثناء دخولى رأيت رجلا فى أول الحلقة الخامسة يخرج، ثم يعود إلى الداخل توسمت فيه أنه مصرى ، ولم أتردد فى سؤاله فأجابنى بالإيجاب ، ورحب بى حينما علم أننى مصرى كذلك، وصحبنى إلى الداخل فوجدت صالة طويلة وإن كانت ضيقة نسبيا ؛ لا يزيد عرضها على أربعة أمتار ، وقد مدت فيها موائد مستطيلة جلس إليها بعض الشباب الصومالى يطالع بعض الكتب .

عبرنا الصالة ودخلنا حجرة داخلية فيها مكتب صغير أمامه ، ومقعدان ومنضدة جلس صاحبى الجديد على مقعد وراء المكتب، وطلب عصير برتقال ولاحظت أن وراءه بابا يؤدى إلى صالة واسعة تحتوى على مكتبة كبيرة تضم كثيراً من الكتب الدينية، بعضها قديم انفذت طبعته ، ولم يعد يطبع . قدمت نفسى للشاب ، وقدم لى نفسه قائلا إن إسمه بهاء الدين محمد سعيد ، وأنه نائب مدير المركز ، وأنه يقيم فى الصومال منذ سنتين وإن كان قد عين فيها قبل ذلك منذ سبع سنوات ، ونقل إلى البلاد العربية ، ثم عاد إليها ثانية ولاح لى أنه فخور بعمله، ويحب البلاد وأهلها، وأنهم أيضاً يحبونه بل لمست فى أكثر من موقف يحبون مصر وكل مصرى . قضيت معه قرابة النصف ساعة نتحدث عن أحوال البلاد وأهلها .

ذهبت بعد ذلك إلى الفندق ، واصطحبت زوجتى إلى شركة الطيران

الصومالية لتأكيد حجز التذاكر فى مساء الغد ، ومن ثم قمنا بجولة أخرى سريعة فى المدينة، ثم عدنا إلى الفندق ،وتناولنا طعام الغداء، وأقلنا . فى المساء قمنا أيضاً بجولة فى المدينة أخذتنا بعيداً عن الفندق ، ودخلنا إلى الأحياء الأهلية ، وهى تشابه إلى حد كبير مثيلاتها فى مصر، فالحركة فيها أكثر ، وللمتاجر الصغيرة تكاد أن تكون متلاصقة ، غير أن المنازل لاتزيد على دورين ، ومعظمها من طابق أرضى واحد والكثير منها له دواكى ، للاحتماء من وهج الشمس ، ومن المطر . عدنا بعد أكثر من ساعتين إلى الفندق، تناولنا عشاءنا وآوينا إلى الفراش

/٣/٢

كان أول مافعلته بعد تناول الإفطار أن ذهبت إلى السيد بهاء الدين فى المركز الإسلامى لأودعه ، مستفسراً إن كان يريد أن أحمل عنه رسالة إلى أقارب ، أو أصحاب فى مصر . أثناء دخولى لاحظت للمرة الثانية أن هنالك الكثير من الصوماليين يطالعون ، وكم تمنيت أن تتسع رقعة صالة المطالعة لتستوعب أعداداً أكبر ، وهنالك مساحة كافية لذلك فى الساحة الداخلية للمبنى يمكن أى تبنى دون تكلفة تذكر ، كما يمكن أيضاً بناء طابق ثان ، وإعادة ترتيب الكتب بحيث تستغرق مساحة أكبر ، وتنظم تنظيماً جذاباً .

جلست أحتسى الشاى بالقرنفل على الطريقة الصومالية مع السيد بهاء الدين ، وراح يحدثنى حديث المطلع على تاريخ الصومال ،وحديث العالم عن الجالية المصرية ؛ ذكر أن هنالك مركزاً تجارياً مصرياً ، وكنت قد شاهدته أثناء تجوالى غير بعيد عن الفندق ، كما أن الحكومة المصرية تدفع مرتبات كل الموظفين الذين ترسلهم إلى الصومال ، وهم كثيرون ، كما أنه يوجد بعض الأطباء الذين يعملون لحسابهم الخاص . ألح على السيد بهاء أن نتناول معه طعام الغداء، ورفضت شاكراً ، وجلسنا نتناقش بعض الوقت

فى الأحوال فى الصومال ، واتفقنا على نقطة هامة هى أنه لا يجب أن تترك الحكومة المصرية وحدها تتحمل العبء . مما يؤسف له أن معظم المصريين لا يعرفون شيئاً عن الصومال ، وإن عرفوا فمعظم معلوماتهم خاطئة مع أنه بلد حبيب شقيق ، ترجع روابطنا به إلى آلاف السنين ، كان باسم بلاد بونت أيام الفراعنة ، ويجب على حكومتنا أن تعمل على توعية شعبنا ، وتشجيعه على الذهاب إلى هنالك حيث أنه بلد متسع ، ويحتاج إلى تطـــوير سريع ، وإمكانيات سواء يدوية أو مالية كبيرة ؛ ولن يوجد أحسن من المصريين بالنسبة لهم إذ أنه لاشبهـــة فى أننا إنما نريد المساعدة ، حباً وكرامة لا للاستغلال ، وليس معنى هذا أنى أطلب من الشعب المصرى مجرد المعونة ، والهبة ، بل العكس فإن أى مجهود منتج سوف يعود بالنفع على من يبذله ، وعلى الصومال ، وأهلها معناه ، وهنالك فرص كثيرة فى البـــلاد ليس أقلها الزراعة ، وتربية الماشية ؛ والدواجن ، وصيد الأسماك ، وتعليبها ، وتشوينها وتسويقها ، وعشرات المجالات غير ذلك ، أقول إنه ليس معنى هذا من ناحية أخرى أن يذهب المصرى لينتفع ماديا فحسب ، وإنما يجب عليه أن يجعـل نصب عينيه أن تنتفع البلاد أولا ، فهى شقيقة حبيبة . عليه أن يقوم بمشروعات تبقى بعـد أن يذهب هو ولا بأس بعـد ذلك أن ينتفع بلا استغلال ، ولا مبالغة ، أو طمع ، أو أنانية .

إنى وضعت الحقائق كما هى مجردة دون تنميق ، وأسبغت شعورى كما أحسست به ، وكما يحس كل مصرى صادفته هناك ، وكل مصرى فيما اعتقد يذهب إلى بلاد أشقائه . لقد قوبلت حيثما ذهبت بكل ترحاب ، كما قوبل كل مصرى بحب أخوى عميق . وليس ما رويته هو كل ما سمعته بل إنى بعد زيارتى للسيد بهاء الدين توجهت إلى السفارة المصرية فى زيارة مجاملة وهى

تقع فيما يسمى الكيلو أربعة ، وهناك قابلني السيد المستشار عبد العزيز عزت ، وهو شخص لطيف رحب بى وذكر أنه وصل إلى الصومال منذ شهرين فقط ، وبعد أن تحادثنا ، وشربت القهوة المصرية إستأذن لى لمقابلة السيد السفير سامى هيبة الذى رحب بى بدوره ، وذكر بعض المعلومات سأذكر بعضها ، ليعلم الشعب المصرى مقدار حب الصومالى له .

ذكر أننا طلبنا من الحكومة الصومالية شتلات موز . وحتى تعرف أهمية الطلب أذكرك بأن الموز ثروة قومية فى الصومال ؛ وهو الإنتاج الأول للبلاد ، وليس من اليسير عليه قط أن يتصرف فى شتلاته لدولة أخرى. ذكر السيد السفير أنه لقى ترحيبا مباشرة لطلبه ، بل وإن الرسميين طلبوا أن ترسل الحكومة المصرية الخبراء الزراعيين المتخصصين وشحنوا خمسمائة شتلة من أجود الأنواع إلى القطر المصرى .

ذكر سيادته فيما ذكر أن مصريا ، ولن أذكر أسمه ، حضر إلى الصومال وطلب أن يستغل مساحة من الأرض فأجيب فوراً إلى طلبه ، ومنح مساحة هائلة من الأرض ، وأحضر المصرى الآلات الرافعة اللازمة ، وطواحين هوائية ، وابتدأ فى الاستغلال فعلا لكن مما يؤسف له أنه كانت لديه مشاغل أخرى كثيرة ترك المشروع فى يد نجله الشاب الذى لم يحسن الإدارة ، ولا أحسن صيانة الأمانة فانهار المشروع .

ذكر لى السيد السفير الكثير من إمكانيات الصيد فى المحيط الهندى مما أعلم ، وشاهدته ومما لم أكن أعلم ولم أشاهده . ذكر أن أحسن المناطق صيد سرطان البحر الانجوست فى قسمايو فى الجنوب وكذلك فى بربرة وفى الولا ؛ وقندله فى الشمال ، كما يوجد أيضا الجمبرى ، بكميات تجارية هائلة ولن تمانع الحكومة الصومالية إذا ما طلبت منها الحكومة المصرية أن ترسل أسطولا لصيد الأسماك فى مياهها للفائدة المشتركة للبلدين

ودعنى السيد السفير بعد أن مكثت معه زهاء النصف ساعة ، وسألنى إن كنت أحتاج إلى معونة ما ، لكننى رفضت شاكراً ، ومقرراً أن زيارتى مجرد زيارة أدب ومجاملة . ذهبت بعد ذلك إلى الفندق ، ومكثت به حتى تناولنا طعامى الغذاء والعشاء ؛ كان علينا أن نكون فى المطار فى الساعة العاشرة حيث أن موعد إقلاع الطائرة هو الثانية عشرة ، وعلى هذا اكترينا سيارة أجرة وانطلقت بنا فى طريق المطار . عند أول ميدان صدفناه وجدنا أن جنود الجيش يفتشون السيارات ، وتوقفنا لنأخذ دورنا ، وجاء جندى وطلب من السائق فتح حقيبة السيارة وعندما شاهد حقائبنا اتجه إلينا ليطلب فتحها ، وأجبته بالعربية بأنى سأفعل ، وهممت بالخروج من السيارة لكنه استوقفنى سائلا إن كنا مصريين ، ولما أجبته بالإيجاب طلب منى عدم الخروج وأذن للسائق بالسير مودعنا إيانا على بركة الله .

حينما وصلنا إلى المطار كان هنالك جنود من الجيش أيضاً ، يمنعون اقتراب السيارات من مبنى المطار لأكثر من خمسين متراً ، أوقف جندى السيارة ، وطلب منا جوازى سفرنا ، وتذاكر الطائرة ، وقلت إنى سأفعل ومددت يدى إلى جيب سترتى لأخرج الأوراق المطلوبة ، وإذا بالجندى يسأل السؤال التقليدى عما إذا كنا مصريين واجبته ، فقال لا داعى وربت على كتفه وتمنى لنا سفراً سعيداً .

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٨٣ / ٥٣٠١

زنجبار

كنيا

تنزانيا

جزيرۀ بمبه

جزيرۀ زنجبار

ونوتي

تناوكا

زنجبار

ماكودوتشي

كيزيمكازي